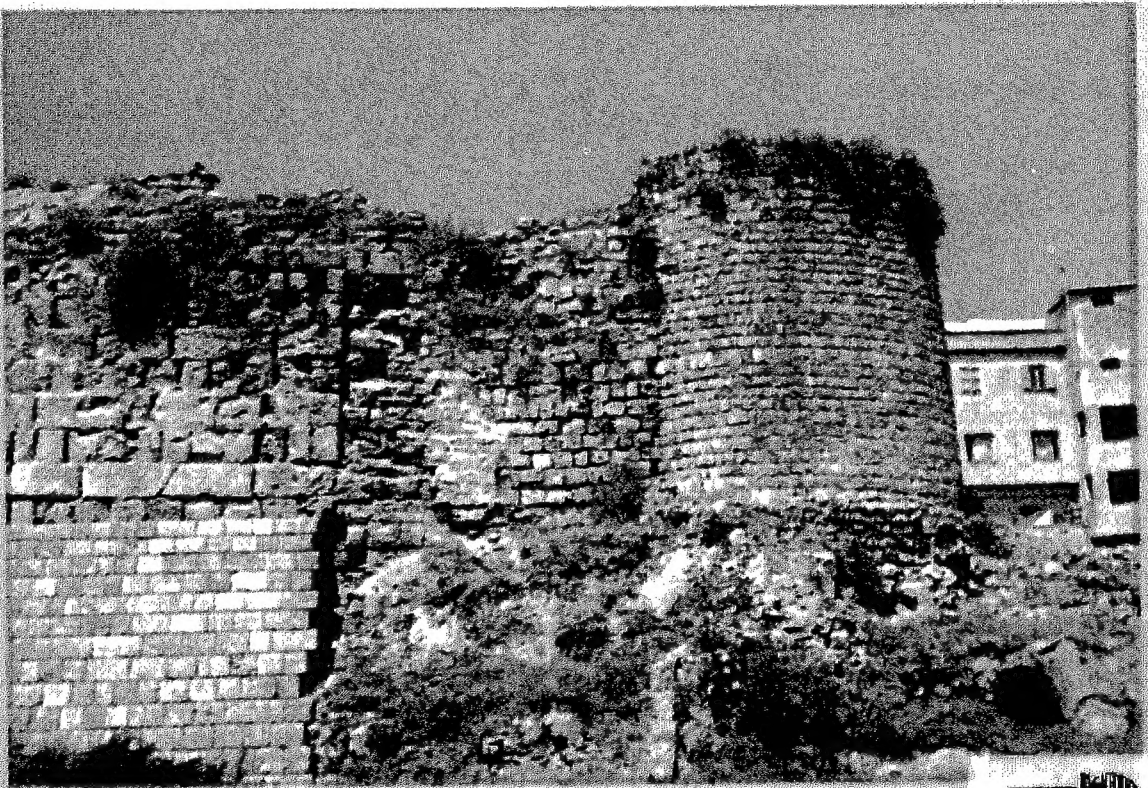


تاريخ مدينة صيدا

في العصر الإسلامي



بإشراف
المضيفة الإسلامية
جامعة الإسكندرية



الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت: ٤٩٣٩٤٧٢ / بكتريفة

١٩٨٦

ثَنَائِحُ مَلِكِنِيَّةٍ صَيِّدَا

فِي الْعَصْرِ الْأَسْلَامِيِّ

الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٦

الناشر

مكتبة المطابع
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ١٩٣٩٤٧٢ (إسكندرية)

إهداء
إلى صبيتي الحبيبة أروى، التي درست في المدرسة...
أهدي هذا الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

منذ سنوات مضت عزمت على دراسة ثلاثة مدن لبنانية لعبت دوراً هاماً في أحداث التاريخ الاسلامي والوسيط ، ولم تلق العناية الجديرة بها من الباحثين هي : طرابلس عاصمة شمال لبنان ، وصيدا عاصمتها الجنوبية ، وبيروت أم مدائنه وحاضرتة الحديثة . وبدأت بدراسة تاريخ مدينة طرابلس الإسلامي الزاخر بالبطولات والأجناد ، ودراسة آثارها الباقية التي قاومت أحداث التاريخ ومعاول التخريب عبر العصور ، وما تزال تنتصب شاحخة حتى اليوم ، وقد وفقت بفضل الله في مهمتي الاولى ، فصدر كتاب « طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي » بالاسكندرية في سنة ١٩٦٧ وأعيد طبع الكتاب مرة ثانية بمؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية في سنة ١٩٨٤ ثم قمت بدراسة تاريخ صيدا الاسلامية ودراسة آثارها القليلة المتبقية من العصر الاسلامي مستهدفاً التعريف بتاريخ هذه المدينة العريقة وحضارتها ، وتلعب تطورها العمراني في العصور الوسطى تمهيداً لبحث أكثر تفصيلاً وشمولاً على نفس مستوى الكتاب المذكور . وقد حاولت في بحثي هذا أن أرسم صورة واضحة المعالم - بقدر المستطاع - عن صيدا الاسلامية ، وهي صورة جاءت إلينا باهتة فيما وصلنا من بحوث حديثة ، واستندت في ذلك على ما زودتنا به المصادر العربية من أخبار تاريخية ووصفية عانيت في التقاطها من بين ألوف الصفحات التي تتناول العديد من الموضوعات .

وعلى الرغم من اهتمامي بالتركيز على المرحلة الإسلامية من تاريخ ،
فإنني لم أستطع أن أتجاهل عصرها القديم ، فأفردت له فصلاً قائماً
إيماناً مني بأن التاريخ القديم هو الركيزة الأساسية للعصور التالية
أن الإمام به يفسر الكثير من مظاهر حضارتها في العصور الوسطى
وفي العصر الحديث .

وبعد فأرجو أن أكون قد أبرزت بهذا البحث المتواضع أهمية
الفترة التاريخية من تاريخ عاصمة جنوب لبنان وأوضحت صورتها الإسلامية
والله الموفق .

السيد عبد العزيز

دراسة تمهيدية الموقع والاسم وطبوغرافية المدينة

- (١) موقع صيدا وأثره في دورها التاريخي .
- (٢) اسم صيدا ومدلوله .
- (٣) طبوغرافية صيدا التاريخية .

دراسة تمهيدية الموقع والإسم وطبوغرافية المدينة

(١)

موقع صيدا وأثره في دورها التاريخي

تقع مدينة صيدا على مسافة تبعد عن بيروت جنوباً بنحو ٤٥ كيلومتراً وعن صور شمالاً بنحو ٤٠ كيلومتراً ، في سهل ساحلي شديد الخصوبة وافر المياه ، ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر ، يصل اتساعه إلى ما يقرب من ميلين^(١) ، وتقوم المدينة الحديثة في نفس الموضع تقريباً الذي كانت تشغله المدينة القديمة ، أي على التل الذي أقيمت فيه قلعة البر الصليبية ، مع ملاحظة أن المدينة الحديثة امتدت في فترة لاحقة للاسترداد الاسلامي نحو الشمال الشرقي بجذء الساحل ، وأصبحت لا تتعمق كثيراً في الداخل^(٢) . وتشغل المدينة بقعة من الأرض على شكل مثلث قاعدته إلى الداخل ورأسه شبه جزيرة أو نتوء بارز في البحر ، يتقدمها عدد من الجزر الصخرية تحمي الخليج الصغير الذي تكونه

(١) - Frederick Carl Eislen, a study in Oriental history, New York, 1907, p. I -

Dictionnaire de la Bible, pub. Vigouroux, t. v, Paris, 1928, p. 1704 -

بطرس عبد الملك ، جوت الكسندر طمسن ، و ابراهيم مطر ، قاموس الكتاب المقدس ،

بيروت ، ١٩٦٤ ص ٥٦٥ منير الحوري ، صيدا عبر حقب التاريخ ، بيروت ،

١٩٦٦ ص ١٨

Donald Harden, The Phœnicians, London, 1963, p. 28 - Schwarz, Sidon, (٢)

Encyclopaedia of Islam, p. 422 .

في الشمال الشرقي من العواصف البحرية^(١) ، وأهم هذه الجزر جزيرة صغيرة تقع قريباً من الطرف الشمالي الشرقي من المدينة تقوم عليها منذ سنة ١٢٢٧ م (٦٢٥ هـ) القلعة الصليبية المعروفة بقلعة البحر . وإلى الشمال الغربي من هذه الجزيرة جزيرة أخرى أكبر حجماً تمتد من الشمال إلى الجنوب تسمى « جزيرة صيدا » يقوم عليها اليوم منار ، وكانت تتصل بهذه الجزيرة فيما مضى أرصفة تشكل ما يسمى بالميناء الخارجي المتصل بالميناء الأمامي الواقع غربي قلعة البحر ، وكانت السفن الأجنبية ترسو في هذين المينائين في العصر القديم^(٢) ، بينما كانت السفن الصيداوية ترسو في الميناء الداخلي الرئيسي . ويعتقد الأب هنري لامانس أن مدينة صيدا القديمة كانت جزيرة^(٣) ، وهو أمر نستبعده اليوم لأن كل الآثار القديمة التي تم العثور عليها كشف عنها في البر .

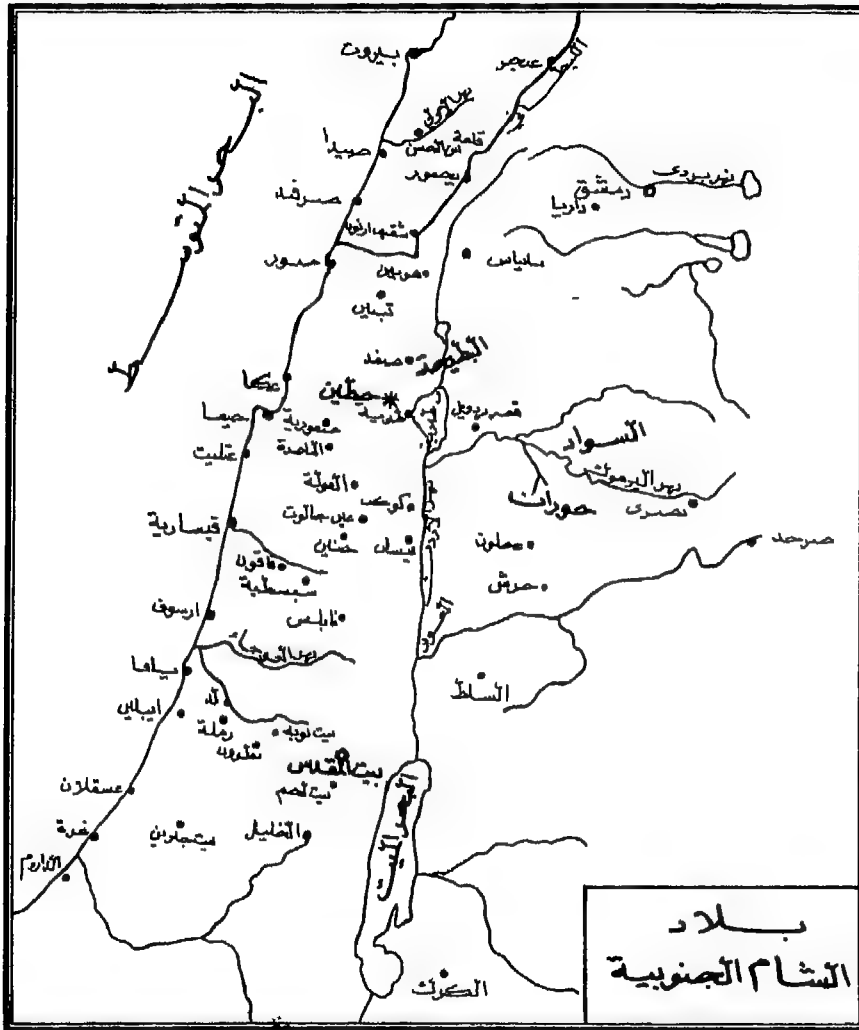
ويحيط بالمدينة من الشرق والجنوب والشمال الشرقي بساتين غنية بالفاكهة ، معظمها من البرتقال والليمون والموز ، وكان يزرع فيها في العصور الوسطى قصب السكر وأشجار النخيل . وتزيد مساحة هذه البساتين أو تقل حسب اتساع السهل الساحلي أو ضيقه ، أو حسب اقتراب المرتفعات الغربية من الساحل أو بعدها عنه ، وتطل على مدينة صيدا وبساتينها مرتفعات أربعة هي : البرامية في الشمال ، يليها الهلالية وتقع إلى الجنوب الشرقي من البرامية ، ثم مار الياس في جنوب الهلالية ، يليها جنوباً مغدوشة . ويحد مدينة صيدا من الشمال نهر الأولي^(٤) ، الذي يصب على بعد نحو أربع كيلومترات إلى شمال صيدا ، ويستمد مياهه من الروافد

(١) محمد غلاب ، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٣٥٩
(٢) Poidebard et Lauffray, Sidon: aménagements antiques du port de Saida, Beyrouth, 1951, p. 84 وراجع المقدمة العربية الواردة في نهاية هذا الكتاب .

(٣) هنري لامانس ، السواحل اللبنانية ، مجلة المشرق ، السنة السابعة ، عدد ٢٠ ص ٩٤٨

(٤) الأولى تسمية حديثة عرف بها هذا النهر عندما أصبحت صيدا قاعدة جنوب لبنان في أوائل القرن السادس عشر ، وكان يعرف في العصر الاسلامي بنهر الفرائيس بسبب الجنائن والبساتين التي تحيط بصيدا (ابراهيم الأسود ، ذخائر لبنان ، بعدا ، ١٨٩٦ ص ٣٧)

العليا الشمالية من نبع الباروك والجنوبية من نبع جزين ، ويصب في رأس الجاجونية . وقد عرف هذا النهر في العصور الوسطى بنهر الفراديس ، وكان يعرف قديماً بنهر بوسترانوس^(١). وعند مرتفع مار الياس بحري



(خريطة رقم ١) موقع صيدا من بلاد الشام الجنوبية

(١) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجة والدكتور نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩ ص ٣٦ - حسن أبوالمينين ، دراسات في جغرافية لبنان ، بيروت ، ١٩٦٨ ص ٢٢٠

جدولان : الشمالي منها يقال له القملة والجنوبي برغوت^(١) ، ولعل لفظة قملة محرفة من الفرنسية « Comme Lait » . ولفظة برغوت محرفة من الفرنسية « Par Goutte »^(٢) . كذلك يحد صيدا من الجنوب نهر سنريك الذي يصب في البحر جنوبي صيدا مباشرة ، ويليه جنوباً نهر الزهراني الذي يجري شمالي الصرند (ساريبتا القديمة) على مسافة تبعد عنها بنحو ميلين ونصف ميل . وينتشر فوق السهل الساحلي لإقليم صيدا ويمتد من جنوب بلدة الدامور في الشمال حيث يضيق السهل الساحلي للغاية حتى رأس الصرند في الجنوب مسافة عشرة أميال كسوة من الرواسب الرملية والحصى مما تحمله الأمواج وبقايا المدرجات البحرية التي تخلفت عن تراجع البحر^(٣) . وتكثر على الساحل الجنوبي من صيدا أكوام من أصداف الموريكس تخلفت من العصور القديمة عندما كان أهل صيدا يستخرجون من هذه الأصداف والقواقع أصباغ الأرجوان^(٤) .

ويتزود سهل صيدا بثلاث نهيرات تنبع من الجبال الواقعة إلى شرقيه مباشرة هي نهر الاولي في الشمال ونهر سنريك ونهر الزهراني في الجنوب ، وقد أشرنا إليها ، بالإضافة إلى مياه العيون مثل عين القنطرة وعين براك بين الصرند ونهر الزهراني . وبفضل توافر المياه أصبح من اليسير ري المناطق التي لا تخرقها مجاري الأنهار والجداول في سهل صيدا ، وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على زيادة خصوبة سهل إقليم صيدا وشهرته عبر التاريخ بأشجاره المثمرة وجناته التي تجري بينها الأنهار ، وقد ترتب على هذا العامل أن أصبحت صيدا من المدن الساحلية الشهيرة بثروتها في

(١) G. Francis Hill, Catalogue of the Greek coins of Phoenicia, London, 1910, p. IXXXVII

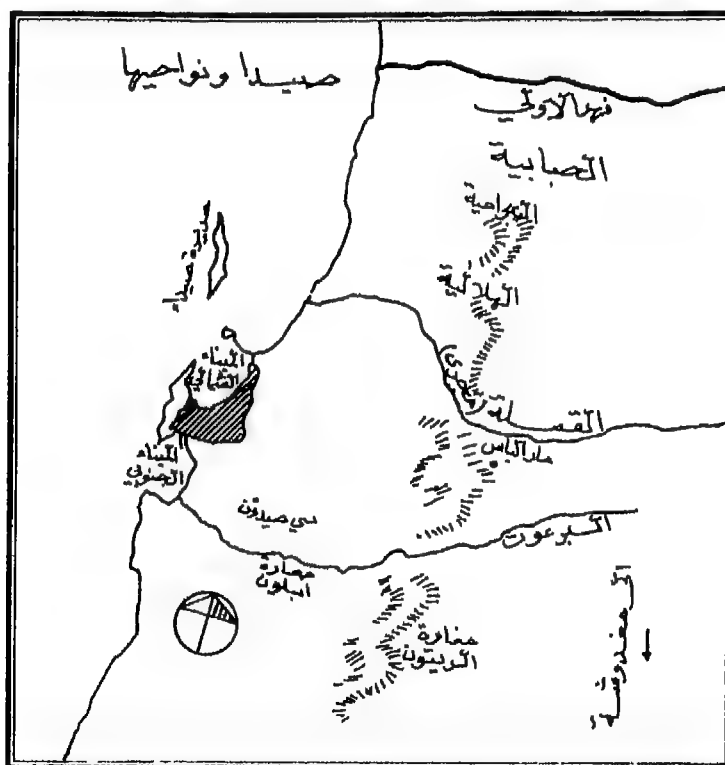
(٢) سليم بسيسو ، صيدا سيدة البحار وسيدة الدنيا ، مجلة العربي ، عدد ٢٨ ، تشرين ثاني ، ١٩٦٢ ص ٧٩

(٣) يوسف مزر ، تاريخ لبنان العام ، ج ١ ص ١١ - حسن أبو العينين ، ص ١٠٥ - Fredrick Carl, op. cit. p. 1

(٤) Dictionnaire de la Bible, p. 1704

الفاكهة والخضروات ، وتشهد بذلك أقوال الجغرافيين القدامى والعرب واللاتين في مراحل التاريخ المختلفة في وصف ثمار صيدا ، وخضرة بقعتها^(١).

وكان لموقع صيدا الجغرافي وقيامها على شبه جزيرة ضاربة في البحر أعظم الأثر في تقرير مصيرها كميناء تجاري هام في حقبة التاريخ المختلفة ، فمما لا شك فيه أن صيدا بفضل تطلعها إلى البحر وعزلتها شبه التامة عن قلب البلاد إلا عبر طرق معدودة وعرة المسالك تدور حول المرتفعات لتربطها



(خريطة رقم ٢) الموقع الجغرافي لمدينة صيدا ونواحيها

Robinson, Biblical Researches in Palestine, 2^d edition, p. 479 - Frederick (١)
Carl Eiselein, op. cit. p. 2

بالمدين الساحلية^(١) أكدت تفوق دورها البحري وانتماء أهلها إلى البحر^(٢) بهدف التجارة وتصريف منتجات البلاد . وقد ساعد على هذا النشاط التجاري وجود ميناءين رئيسيين استخدمهما الصيدانيون في العصر القديم لتصريف التجارة الفينيقية إلى دول حوض البحر المتوسط القديم ، كالتياب الأرجوانية والزجاج ، أولهما ميناء شمالي يحميه صفان من الصخور يشكلان حوضاً مغلقاً محمياً من الرياح ، الصف الأول يمتد من الطرف الشمالي للتوءات الصخرية البارزة أمام رأس المثلث العمراني شرقاً لعدة مئات من الأمتار^(٣) ليقابل قرب نهايته تقريباً صفاً آخر من الحواجز الصخرية يمتد من الجنوب إلى الشمال ، ويكاد يتصل بالصف الأول ولا ينفصل عنه إلا بمسافة ضيقة تتسع لممر واحد للسفن ، هذا الميناء الرئيسي الذي ما زال يقوم بوظيفته حتى اليوم بالنسبة لسفن الصيد والزوارق ، كان مخصصاً لاستقبال السفن الصيدلوية ، وكان مدخله محاطاً بتحصينات من قلاع وأبراج أقيمت على صف من الصخور الطبيعية والتوءات البارزة لحماية السفن من العواصف والأنواء ، وكان المدخل المذكور يغلق بواسطة سلسلة ضخمة تمتد بين برجين متقابلين يتصل الجنوبي منهما بتحصينات مدينة صيدا . وكان هذا الميناء المغلق يتصل بالميناء الجنوبي عن طريق فتحة صناعية نفرت في صخور

(١) مثل طريق الجليل ويصل بين عكا وصفد والقنيطرة ودمشق ، وهو الطبيعي الوحيد الذي يصل بين الساحل والبقاع (راجع محمد غلاب ، ص ٣٥٢ ، ٣٦١) . وقد كانت لعزلة صيدا عن الداخل عن طريق المرتفعات التي تتحكم فيها قلاع أقيمت في المعصور الوسطى ، مثل قلعة شقيف تيروت المرقب الهام لحراسة مدخل صيدا والمنحكم في نقطة التقاء النهرين اللذين يكوّنان نهر الأولي ، أعظم الأثر في تطورها نحو البحر P. Deschamps, La défense du Royaume de Jerusalem, Texte, Paris, 1939, p. 220, 222 . وهناك قلعة أخرى تحمي الوادي الذي تجري فيه مياه نهر الأولي هي قلعة أبي الحسن التي تحمي المدخل المباشر إلى صيدا في الطريق المؤدي إلى دمشق (أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي ، كتاب المشرك وضعاً والمفترق صقماً ، نشره فردناند وستنفلد ، جوتنجن ١٨٤٦ ص ٣٥٧)

(٢) Poidebard, op. cit. P. V - حسن أبو المينين، ص ٣٦٦

(٣) Donald Harden, op. cit. p. 28



جانب من قلعة المعزة (قلعة لوبس التاسع) بصيدا



جانب من البوابة المطلة على صحن خان الافرنج



٥٥. حمامه صيد الكبير



٥٦. بوايه صيدا الفوقا (ناب عكا)

فبعضهم يستند إلى أصل التسمية كما ورد في العهد القديم ، فينسبون صيدا إلى صيدون الابن البكر لكتعان بن حام بن نوح^(١) ، ويربطون بين تأسيسها وبين الكتعانيين الذين عرفوا أيضاً باسم الصيدونيين^(٢) . وقد أخذ مؤرخو العرب وجغرافيوهم بهذا التفسير ، وأجمعوا على نسبتها إلى صيدون بن صدقاء ابن كتعان بن حام بن نوح^(٣) . ويعتقد إيوستاثيوس أن صيدون القديمة من بناء بيلوس ، وأنها سميت باسم ابنته صيد ، ولكن الكتاب الإغريق (ومنهم ملاس) أجروا تعديلاً على هذه الأسطورة ، فأبدلوا صيد بصيدوس ابن ايجيبتوس الذي بنى صيدون وسماها باسم صيدوس . ويعلق المؤرخ فردريك كارل ايسلين بأن هذا التفسير الأخير يشبه إلى حد ما التفسير القديم الوارد في العهد القديم ، وأن هذا التفسير يربط المدينة واسمها باسم صيدون ، ويعترض على الأخذ بهذا التفسير الخيالي^(٤) .

وهناك من يفسر اسم صيدا على أنه مشتق من الجذر السامي « صيد » بمعنى صيد الاسماك^(٥) ، ويعتقد البعض أنها كانت محلة صغيرة لصائدي الأسماك^(٦) ، على النحو الذي كانت عليه قرية راکوتيس التي أقيمت عليها مدينة الاسكندرية^(٧) . وقد أشار هومير إلى أن السمك في صيدون أوفر

(١) الكتاب المقدس ، العهد العتيق ، بيروت ١٩٦٠ : سفر التكوين ١٠ : ١٥ ، سفر أخبار الأيام الاول ١ : ١٣

(٢) Schulim Ochser, The Jewish Ency, article Sidon يوسف مرمر ، ج ١ ص ٢٥

(٣) اس شداد ، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ ، ص ١٨ - ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ص ٤٣٧ - القلقشندي ،

صبح الاعشى مجلد ٤ ص ١١١ - الشيخ طنوس الشدياق ، بيروت ، ١٩٥٤ ج ١ ص ٧

(٤) Frederick p. ١

(٥) أنيس فريجة ، أسماء المدن والقرى اللبنانية ، ص ٢٠٣ - بطرس عبد الملك ، قاموس

الكتاب المقدس ، ص ٥٦٥ - فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص ١٣٢

(٦) محمد غلاب ، ص ٣٥٩ - منير خوري ، ص ٢٤ - The Jewish Enc., p. ١١١٤

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية

١٩٦٩ ص ١٢

من الرمال ، كذلك فسر جستان في القرن الأول اسم صيدون بكثرة أسماكها ، « على أساس أن الفينيقيون كانوا يسمون السمك صيدون »^(١). وقد أشار بعض الكتاب العرب الى شهرة صيدا في نوع من السمك يتوافر في مياهها ، فالإدريسي يذكر أن بصيدا عين ينشأ بها في الربيع سمكات على طول الإصبع منها ذكور وإناث ، وأن لها أيدي وأرجل صفار^(٢). وما زالت صيدا تشتهر في الوقت الحاضر بأسمائها ، وصيد الأسماك في يومنا هذا من أهم حرف سكان صيدا ، ومينائها الحالي لا يعدو أن يكون مرسى لزوارق الصيد .

وقد تكون صيداء من الصيداء في العربية ، وهي حجر أبيض كان يصنع منه البرام^(٣) ، ولعل لهذا التفسير صلة باسم محلة البرامية التي تشرف على صيدا ، واشتهرت بقدرورها وبرامها الفخارية ، وقد تكون صيدا مشتقة من الصيداء بمعنى الأرض التي تتسم تربتها باللون الأحمر والحجارة الغليظة المستوية بالأرض^(٤) ، أو بمعنى الحصى ، ومع ذلك فقد شك ياقوت في التفسير العربي لكلمة صيدا وقال : « وما أظنه إلا لفظة أعجمية إلا أن أصلها في كلام العرب على سبيل الاشتراك »^(٥).

وقد اعترض المؤرخ فردريك كارل ايسلين على التفسيرات السابقة ورجح أن صيدون القديمة سميت باسم اله يحمل هذا الاسم ، ومنه اشتقت التسمية الصليبية ساجيتا أو ساجيت^(٦) ، وإن كان يميل إلى ربط اسم ساجيتا

(١) Frederick Carl Eiselen. p. 11

(٢) الإدريسي، وصف فلسطين والشام من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، لشهره جوافيس

جيلدميستر ، بون ١٨٨٥ ص ١٥ - ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، دمشق ، ١٩٦٢ ص ٩٨

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة صيداء ، جلد ٣ ، ص ٤٣٧ - جمال الدين محمد بن منظور ،

لسان العرب ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ ، مادة الصيداء ، ج ٣ ص ٢٦٢

(٤) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٣ ص ٨٤٨ - محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس

ج ٢ ص ٤٠٣

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ص ٤٣٧

(٦) Frederick Carl, p. 14

باللفظة اللاتينية (Sagitta) بمعنى السهم ، بدليل أن السهم كان شعار مدينة صيدا في العهد الصليبي ، وكانت العملات التي سكّت في صيدا في هذا العهد تحمل هذا الشعار^(١) . ويرجح الاستاذ أنيس فريجة أن يكون صيد ، وهو الجذر الذي اشتقت منه صيدون وصيدا إلهاً سامياً قديماً يمثل الصيد ، ويعمل تسمية أهل صيدا للزار الواقع في الجنوب الشرقي منها والذي يسميه الأهالي بزار النبي صيدون بأنه مكاب هيكّل فينيقي قديم للإله السامي صيد إله الصيد^(٢) . ونعتقد بدورنا أن اسم صيدا مشتق من الجذر السامي صيد ، ويقصد به صيد السمك وهي الحرفة الرئيسية لسكان هذه البلدة منذ نشأتها . ولا نستبعد تمجيد الأهالي لهذه الحرفة فأطلقوها على مدينتهم بحيث أصبح اسم صيدون يعني مدينة صيد الأملاك ، ولعل هذا التمجيد كانت له علاقة بالفكر الديني القديم عند سكان صيدون ، أو لعله كان يرتبط بالطوطمية التي كان من مظاهرها أن يتسمى بها الأفراد تعبيراً عن تفاؤلهم بها كما كان يفعل العرب في العصر الجاهلي عندما كانوا يتفاءلون بالطير كالهامة^(٣) مثلاً . ومن المعروف أن كثيراً من الأسماء السامية القديمة للمواضع أو للقبائل كانت لها صلات وثيقة بأسماء الآلهة . وليس ضرورياً أن تكون حرفة الصيد التي كان يمارسها الصيداويون قاصرة على السمك ، فمن المعروف أن أهل صيدا احترفوا أيضاً صيد نوع من القواقع أو الأصداف كانوا يستخرجون منها الأصماغ الأرجوانية المشهورة ، وكانت هذه الحرفة من أسباب ازدهار التجارة الفينيقية^(٤) .

(٣)

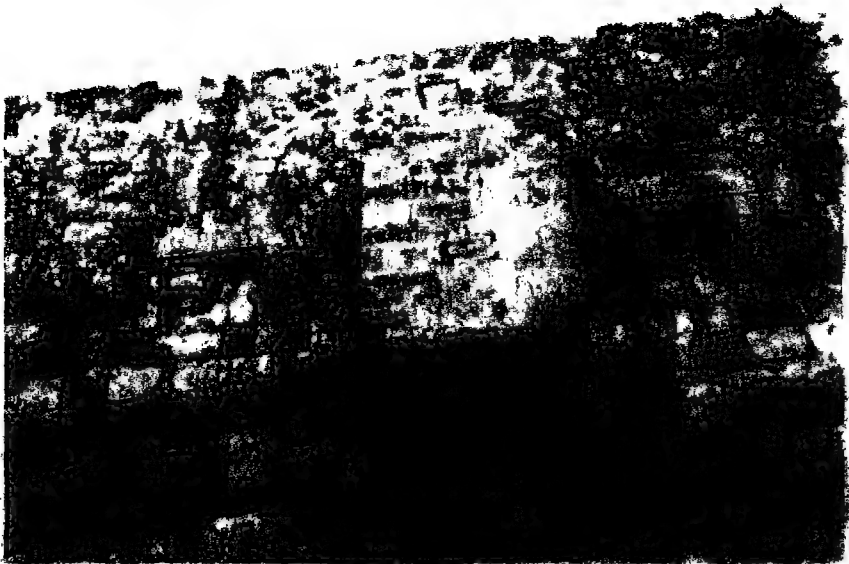
طبوغرافية صيدا التاريخية

رأينا فيما سبق أن مدينة صيدا كانت مزودة بميناءين بالإضافة إلى

(١) Ibid. (٢) أنيس فريجة ، أسماء المدن والقرى اللبنانية ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ١٩٧٠ ، ص ٤٠٨

(٤) محمد غلاب ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩



مسند بارز بقعة صيدا



آثار صليبية في قلعة البحر

ميناء خارجي في الجهة الشمالية كان مخصصاً للسفن الأجنبية ، ومن المحتمل أن يكون الميناء المذكورين قد اتصل في فترة ما بحيث أصبح من السهل على السفن أن تنتقل من الميناء الشمالي إلى الميناء الجنوبي .

ويحد مدينة صيدا من الشمال أطلال قلعة البحر ، وهي بناء أقيم في العصور الوسطى على جزيرة صغيرة قريبة من الساحل الشمالي لصيدا ، في الفترة الواقعة ما بين شتاء سنة ١٢٢٧ إلى سنة ١٢٢٨ ، وشيدت من كتل ضخمة من الحجارة انقزعت من أطلال بناء آخر أكثر قدماً كان مقاماً فيما يظهر في نفس الموضع . وتقع أكثر أحياء المدينة الحديثة ارتفاعاً إلى الجنوب الشرقي حيث تقوم أطلال قلعة البر التي شيدها الملك لويس التاسع في سنة ١٢٥٣ أثناء مقامه بهذه المدينة . وكان ينحدر من هذا النشز إلى البحر سوران : أحدهما يبدأ من باب عكا ثم يتجه شمالاً ، وينتهي بباب بيروت ، والآخر يتجه غرباً . وينتهي عند الميناء الجنوبي .

وتتميز مدينة صيدا بشوارعها الضيقة المتعرجة التي تتداخل فيما بينها على شكل شبكة معتمة من الأزقة والدروب الملتوية تتلاحم المنازل على جوانبها ، وتتقنطر عليها بين الحين والحين ، وتظللها أحياناً قبوات متعارضة وحنايا أو تعترضها أنصاف العقود التي تثبت من دعائم جانبية ثم ترتكز أطرافها على الجدر المقابلة لتدعيمها . ومن الغريب أن معظم هذه الدروب والأزقة تمتد من الجنوب إلى الشمال بحيث تفضي جميعاً إلى الساحل ، وفي بعض الأحيان تتفرع منها أزقة وزنقات جانبية تمتد من الشرق إلى الغرب مؤلفة عند التقاطع ما يشبه الميادين الصغيرة أو الساحات^(١) . وعلى الرغم مما تتسم به هذه الأزقة من الضيق والتعرج والتشعب ، فإن بعض الدور التي تنتظم على جوانبها تتميز بالإتساع ، كما أن الكثير منها مبني من الحجارة ، لاسيما الدور الواقعة بجذاء السور الشرقي بالقرب من باب عكا المعروف اليوم بالبوابة الفوقا ، هذه الدور تتميز عن غيرها بمساحاتها

(١) دليل صيدا الاثري ، ص ٣٤

الكبيرة وارتقاعها الواضح ، وكثير من هذه الدور أقيم على خط السور نفسه ، وأصبحت تشكل جزءاً لا يتجزأ منه (١) .

وإذا نظرنا إلى خريطة صيدا الحديثة أمكننا أن نحدد بوضوح تخطيط المدينة ، على الأقل في العصور الوسطى ، فشارع البوابة الفوقا الذي يبدأ من تل القلعة البرية وينتهي بالقرب من المسجد البراني (٢) الذي سمي كذلك لوقوعه خارج السور القديم ، يحاذي السور الشرقي للمدينة ، وقد تبقت من هذا السور بقية استغلها الأهالي جدراناً لدورهم الممتدة في خط سيرها . ومن قلعة البر يمتد سور سبق أن أشرنا إليه ينتهي عند ساحل البحر . وبيلي هذا السور من الجنوب وعلى رمال الساحل أكوام من أصداف الموريكس المشهورة . وكان يحد صيدا من الجهة الغربية المطلة على البحر سور يتصل بأبراج الميناء الداخلي المعروف بالميناء الشمالي ، ويغلب على الظن أن هذا السور المحاذي للبحر كان يحدد بالمناطق المعمورة قبلي المدينة ، وإن المسجد الجامع وأصله كنيسة . استتارية لفرسان القديس يوحنا كان يدخل في نطاق السور أو على الأقل كان يلتصق بالسور من الجهة الجنوبية الغربية . ولا نشك في أنه كان يفتح في هذا السور المحاذي للميناء من بابان آخران أحدهما يؤدي إلى الميناء الشمالي والآخر يفضي إلى الميناء الجنوبي ، وإن كان ناصر خسرو يشير إلى بوابات ثلاثة فقط كانت تفتح في سور المدينة في زمنه (٣) .

ومن أهم معالم المدينة صيدا الإسلامية الجامع الكبير الذي أشرنا إليه ، ويقع في القسم الغربي من المدينة ، وإلى جنوب هذا الجامع مباشرة يقع قصر الأمير فخر الدين المعني الثاني ، وإلى الشمال الشرقي وعلى بعد مئات الأمتار يقع مسجد أبو فكله الذي كان في الأصل كنيسة سان ميشال ،

(١) Frederick Carl, p. 5

(٢) هذا المسجد من بناء المئتين ، وفيه دفن الأمير ملحم بن معن في سنة ١٠٦٨ هـ

(٣) ناصر خسرو ، سفرنامه ، طبع برلين ١٣٤٠ هـ ص ٢٠



مئذنة الجامع العمري بصيدا



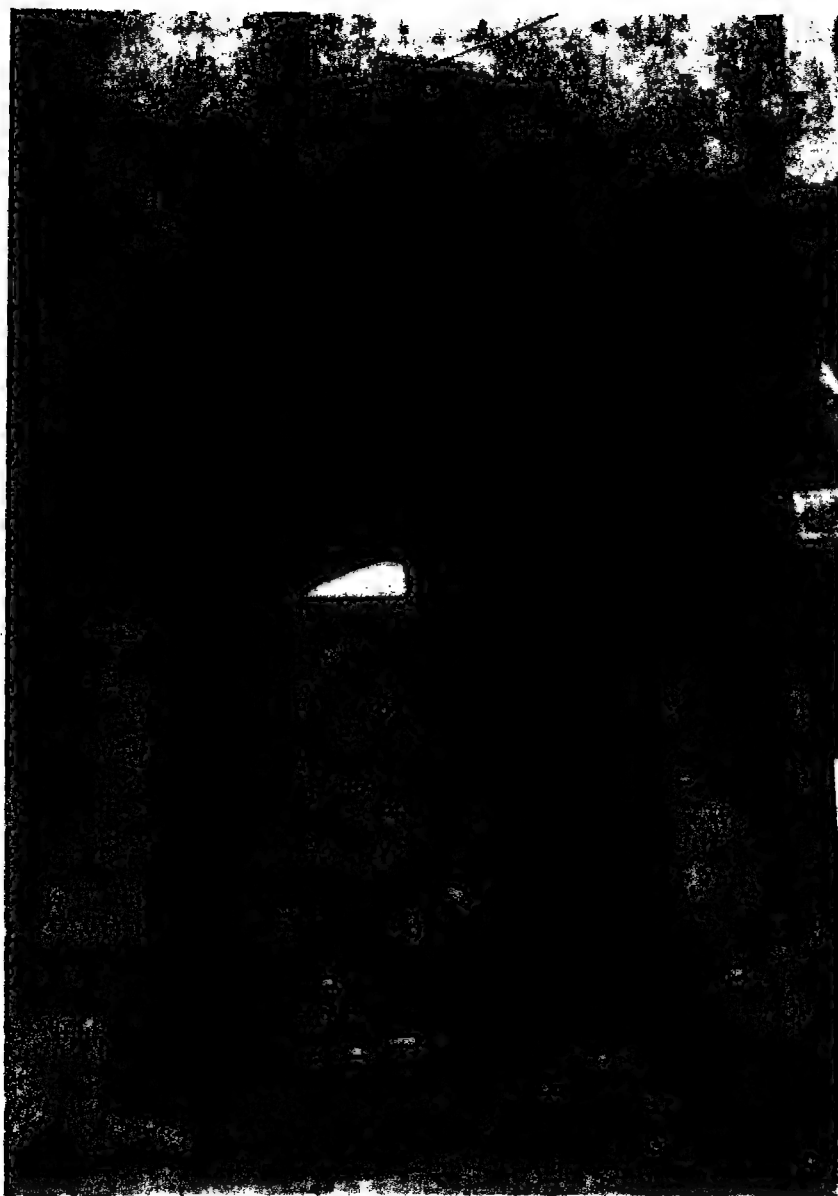
قبا ب مجام فخر الدين

وبالقرب من هذا المسجد ، وفي نفس الاتجاه الشمالي الشرقي يقوم خان الافرنج المشهور الذي شيده الأمير فخر الدين^(١) ، وبالقرب منه من الجهة الغربية يقوم حمام المير . وهناك خان آخر من عصر فخر الدين أقيم إلى الشمال الشرقي من خان الافرنج يعرف باسم خان الرز .

ونلاحظ أن الآثار الفينيقية القديمة تقع في خارج المدينة الحديثة ، فعلى بعد نحو كيلومتر واحد إلى الجنوب الشرقي من باب عكا الواقع في الركن الجنوبي الشرقي من سور المدينة تقع جبانة الملك اشمنعازار الذي عثر على تابوته في يناير سنة ١٨٥٥ بالقرب من مغارة أبلون (أبولو) . وعلى بعد نحو كيلومتر ونصف من ساحل البحر شرقاً كشف عن جبانة ثانية بالقرب من قرية الهلالية ، وعلى بعد نحو سبعمائة متر جنوبي ضريح النبي صيدون مغارة تعرف بمغارة المقدورة تقع قريباً من قرية مغدوشة ، كانت فيما يظهر معبداً لعشتروت ، وإلى جنوب شرقي المدينة تقوم كنيسة مار الياس على نفس الموضع الذي كان يقوم فيه معبد فينيقي لعله كان مخصصاً للاله اشمون .

ويواجه الباحث في طبوغرافية صيدا القديمة عدة عقبات أساسها الحقيقة بأن المدينة الحالية ليست امتداداً لصيدا القديمة ، فمن المعروف أن تاريخ المدينة الحديثة يبدأ منذ نهاية العهد الصليبي ، زد على ذلك أن الحفريات الأثرية لم تزودنا بمادة كافية تعيننا على تحديد طبوغرافية صيدا القديمة . على أنه من المحقق أن المدينة القديمة كانت تزيد في الاتساع عن المدينة الحالية ، فإن معظم الآثار التي أسفر عنها الكشف الأثري تم

(١) بناء الأمير فخر الدين وبنائه للتجار الفرنسيين في صيدا ، وهو بناء من الحجر مربع الشكل كبير المساحة ، يتوسطه صحن مربع الشكل أيضاً في وسطه حوض تحيط به الأشجار ، ويدور بالصحن أربع مجنبات كل منها يتألف من ٧ عقود منكسرة مطولة مكونة واثك تطل على غرف . وتسد ما بين العقود ركائز مستطيلة الشكل تنتهي من أعلى بمسطحات مائلة . ويتقابل في وسط عقد كل من الجانبين الشمالي والجنوبي عقد تتناوب سنجاته على أساس كتل بيضاء وسوداء . والخان من طابقين : الأعلى للنزلاء والأدنى تشغله مخازن وحظائر للخيول ، وللخان باطن أحدهما يطل على المبنى الشمالي والآخر يطل على ساحة السراي .



بوابه خان الافرنج بصيدا

الكشف عنها في البساتين المحيطة بصيدا ، مما يؤكد أن هذه البساتين استحدثت في مواضع كانت معمورة قديماً أو أقيمت على أطلال قديمة . ونستدل من الآثار المكتشفة حول صيدا على أن قلب المدينة كان يشغل منطقة تبعد بنحو ٧٣٠ متراً إلى الشرق من السور الشرقي الحالي ، وأن المدينة القديمة كانت تمتد إلى الشمال مسافة بعيدة تتجاوز نهر الأولي ، فقد تم الكشف عن أطلال معبد أشمون الذي كان يدخل في نطاق المدينة على الضفة القبلية من نهر الأولي ، وموضع هذه الأطلال يبعد بنحو ٢٥٦٠ متراً إلى الشمال الشرقي من البوابة الشمالية لمدينة صيدا في العصر الوسيط .

ويشير النقش الفينيقي الذي عثر عليه بالقرب من ضريح الملك بودعشتارت ، ويرجع عهده إلى القرن الخامس ق.م. إلى وجود مركزين عمرانيين باسم صيدون : أحدهما صيدون يم أي صيدون البحرية ، وصيدون ساد^(١) أي صيدون البرية ، والمقصود بها الأراضي المرتفعة الممتدة إلى الشمال مع اتجاه المدينة نفسها ، تميزاً لحرفتين رئيسيتين لأهل صيدا ، حرفة التجارة البحرية وحرفة الزراعة^(٢). ويشير النقش نفسه إلى ضاحية تسمى رشف كانت تمتد نحو الشمال والشمال الشرقي حتى نهر الأولي^(٣). وكان هذا التمييز واضحاً قبل ذلك في نص سنحريب الذي يتضمن وصفاً لمملته على بيت المقدس في طليعة القرن السابع ق.م. إشارة إلى صيدون الكبيرة وصيدون الصغيرة ، والمقصود بالكبيرة صيدون البرية أما صيدون الصغيرة فهي المدينة البحرية^(٤).

Dussaud, Topographie historique de la Syrie antique et médiévale, Paris, (١) 1927, p. 39

Bruce Condé, See Lebanon, Beirut 1960, p. 245 - Frederick Carl, p. 8 (٢) وقد ذكر الدكتور محمد غلاب (في كتابه الساحل الفينيقي ص ٣٦٠) خطأ أن هذا التمييز جاء ذكره في القرن العاشر قبل الميلاد ، كما تكرر الخطأ أيضاً بالنسبة لملة سنحريب إذ جعلها في طليعة القرن الثامن قبل الميلاد مع أنها حدثت في طليعة القرن السابع ق.م.

Frederick, p. 8 (٣)

(٤) (١) Dussaud, op. cit. - يوسف مزهر ، ج ١ ص ٢٠ - محمد غلاب ص ٣٦٠ منر الحوري ، ص ٢٧

الفضل الأول التاريخ القديم والحضارة

- ١ - عرض عام لتاريخ صيدا القديم
- (أ) أولوية صيدون في الحضارة الفينيقية
 - (ب) خضوع صيدون للأشوريين والبابليين
 - (ج) خضوع صيدون للفرس
 - (د) صيدون من الاسكندر إلى الفتح العربي

- ٢ - المظاهر الحضارية
- (أ) تقدم الفنون الصناعية والحرف
 - (ب) النشاط التجاري
 - (ج) الحركة العلمية والأدبية
 - (د) الآثار الباقية

الفضل الأول التاريخ القديم والحضارة

(١)

عرض عام لتاريخ صيدا القديم

(١) أولية صيدون في الحضارة الفينيقية :

تعتبر صيدون أقدم مدن الكنعانيين^(١) ، وهم فرع من الساميين الغربيين الذين نزحوا من بلاد العرب ونزلوا في سوريا ، وسماهم الإغريق وخاصة المقدونيون الذين تبادلوا معهم التجارة بالفينيقيين^(٢) . وقد ذكرنا فيما سبق أن صيدون ، اسم صيدا القديم ، هو اسم مؤسسها صيدون بكر كنعان بن حام حسبما ورد في التوراة ، وبذلك يصبح الكنعانيون الذين عرفوا عند الإغريق بالفينيقيين ، وفي أسفار العهد القديم^(٣) وفي أشعار الإلياذة بالصيدونيين ، هم الذين أسسوا صيدون ، وتصبح صيدون لهذا السبب أهم المدن الفينيقية جميعاً عما فيها صور^(٤) . وقد احتفظت صيدون بزعامتها على المدن الفينيقية منذ تأسيسها فيما يقرب من سنة ٢٨٠٠ ق.م. بفضل براعة أبنائها في المجال التجاري وتفوقهم على غيرهم فيما يختص بالتجارة البحرية عبر مرفأ البحر المتوسط القديم ، وبفضل احتفاظها باستقلالها عن مصر

(١) Schulim Oshser, The Jewish Encyclopaedia, p. 664

(٢) نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٣ : سوريا ، الاسكندرية ، ١٩٦٤

ص ٤٩ - فيليب حقي ، لبنان في التاريخ ، ص ١١٨ - يوسف مزهر ، ج ١ ص ٣٠

(٣) سفر الملوك الاول ١٦ : ٣١

(٤) سفر أشعيا ٢٣ : ١٢

في كثير من مراحل تاريخها القديم . ثم أخذت صيدون تتنازل تدريجياً عن مكانتها لمدينة صور ، بسبب الضربات التي تعرضت لها منذ أن افتتح يشوع بن نون ، الذي تولى قيادة شعب اليهود ، بلاد الكنعانيين ، وطرد سكانها ، ودمر مدنها الصغيرة التي كانت مصدر ثروة صيدون . وتسجل هجرة قبائل البلست الذين وفدوا إليها من كريت منذ سنة ١٢٠٠ ق. م. ، واحتلالهم لأراضيها عنوة ، وتدميرهم لعمارتها نهاية عصر تفوقها وازدهارها القديم^(١).

ثم ورثت صور عظمة صيدون ورعامتها منذ بداية القرن العاشر قبل الميلاد وفي الوقت الذي شهدت فيه صور عصرها الذهبي في ظل ملكها حيرام الأول (٩٦٩ - ٩٣٦ ق. م.) بن أبي بعل صديق^(٢) الذي أسس سورها العظيم وجعل منها أكثر مدن البحر المتوسط الشرقي جصانة ومناعة^(٣) ، كانت صيدون تناضل من أجل الوقوف في وجه الاضمحلال المحتوم وتعمل على النهوض من عثرتها ، فقد شاركت في تزويد سليمان بن داود ملك اليهود بما يلزمه من أخشاب الأرز وصناع لبناء هيكله وأسطوله^(٤) ، وسرى فيما بعد أنها كانت تباع أخشاب الأرز لليهود لبناء الهيكل الذي شيده زروبابل والى يهوذا في زمن كورش ملك فارس^(٥).

(١) أمين خليفة ، تاريخ سوريا قبل الفتح الاسلامي ، بيروت ١٩٣ ص ١٠٧ لساب في التاريخ ، ص ١٢٠ يوسف مرمر ، ج ١ ص ١٠ محمد غلاب ، الساحل الفينيقي ، ص ٣٠٠

(٢) تصادق حيرام مع الملك سليمان وتعاون معه تعاوناً وثيقاً (Robin Fedden, Syria, London, 1956 p. 43)

(٣) يعتبرها استرابو أكبر وأقدم مدن الفينيقيين ، وانها تنافس صيدون في الاتساع والشهرة وكثرة الآثار (Strabo, The geography of Strabo, trans. Horace Leonard Jones, London, 1961, t. VII, p. 267)

(٤) نجيب ميخائيل ، سوريا ص ٢٥١ - منير الحوري - ص ٥٩

(٥) قاموس الكتاب المقدس ، ص ٦٦

(ب) خضوع صيدون للأشوريين والبابليين :

ظلت صور تحتفظ لنفسها بالزعامة على سائر المدن الفينيقية إلى أن تعرضت سواحل فينيقيا لغزوات الأشوريين منذ أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان ذلك إيذانا بأفول نجم صور وزوال عظمتها ، وقدر لصيدون أخيراً أن تسترجع تفوقها على المدن الفينيقية منذ سنة ٦٠٠ ق. م ، وأن تصبح من جديد على رأس المدن الفينيقية ، لا سيما بعد أن دمر نبوخذ نصر قوة صور في سنة ٥٧٤^(١) ق. م .

وتبدأ غزوات الأشوريين على السواحل الفينيقية منذ سنة ١٠٩٤ ق. م عندما تمكن تجلات بلاسر الأول من احتلال أرواد وفرض الجزية على جبيل وصيدون^(٢) ، ولكن غزوته تلك لم تتخذ الطابع العسكري العنيف الذي اتخذته حملة آشور نصر بال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق. م) الذي أخضع المدن الفينيقية صور وصيدا وجبيل في سنة ٨٧٦ ق. م وأرغمها على أن تدفع له الجزية وأن يقدم له سكانها الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد والمنسوجات الملونة وكميات من خشب الأبنوس والأرز والصندل ، بالإضافة إلى كميات من العاج^(٣) ، وأقام بهذه المناسبة لوحة تذكارية عند نهر الكلب^(٤) .

ثم أعاد الآشوريون الكرة على المدن الفينيقية مرة أخرى في عصر شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق. م) الذي أرغم أهالي صور وصيدا في سنة ٨٤٢ ق. م على دفع الجزية^(٥) . واستمرت صيدا وصور تدفعان

(١) Donald Harden, p. 51 - لبنان في التاريخ ، ص ١٢١

(٢) لبنان في التاريخ ، ص ١٧٣

(٣) Frederick, p. 43 - Dimitri Baramki, Phoenicia and Phoenicians, Beirut,

1961, p. 28 - لبنان في التاريخ ص ١٧٤ - يوسف مزهر ، ج ١ ص ٤٦

(٤) نجيب ميخائيل ، ص ٧٥

(٥) لبنان في التاريخ ، ص ١٧٥ - يوسف مزهر ، ص ٤٧

الجزية للأشوريين في عهد أددنيراري الثالث الذي قدم إلى فينيقيا مرتين في سنة ٨٠٤ ، ٨٠٣ ق.م^(١) ، وتجلات بلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) وشلمنصر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م) الذي ألزم صور البرية صيدا وعكا بوضع أسطول من ٨٠٠ نوتي تحت تصرفه بقصد إحكام الحصار من البحر حول صور البحرية في سنة ٧٢٢ ق.م . وفي عهد سنحريب (٧٠٥ - ٦٨٠ ق.م) حملت صور راية الثورة على الأشوريين ، فبادر سنحريب بإعادة فتح المدن الفينيقية والسورية ومدن الساحل الفلسطيني ، وخرب صور ، وتمكن في سنة ٧٠٠ ق.م من إخماد الحركة ونصب أثوبعل الثاني الموالي للأشوريين ملكاً على صيدا والمدن الفينيقية^(٢) ، بدلاً من ملكها السوري ، وبذلك انهار سلطان صور .

ثم ثار عبد ملكوت ملك صيدا على أسرحدون الأشوري الذي خلف أباه شلمنصر الخامس ، وأعلن عبد ملكوت استقلال بلاده في سنة ٦٧٨ ق.م ، فأسرع أسرحدون بمهاجمة صيدا ، وافتتحها قهراً ، ففر عبد ملكوت بجزاً ، ولكنه اقتيد أسيراً « وصيد كالسمكة من البحر » ثم أعدم ، وانتقم أسرحدون من أهل صيدا أبشع انتقام لتجرئهم على مناهضته ، ودمر عمران صيدون ، ودك بيوتها ، وأطاح بتحصيناتها وأسوارها ، وقذف بأحجارها في مياه البحر . وكانت هذه الكارثة أول الكوارث التي توالى على صيدا العظيمة عبر التاريخ . ثم أمر أسرحدون سكان صيدا بالانتقال عنها إلى بلاده ، وأحل محلهم أقواماً من الخليج العربي (خليج فارس قديماً) أو من شرق الأمبراطورية الآشورية^(٣) ، وأمر بتعمير مدينة جديدة في موضع صيدون سماها كار أسرحدون أي مدينة

(١) بحيب ميخائيل ص ١١٢ .

(٢) نفس المرجع ص ١١٤ . منير الحوري ص ٦١ .

(٣) Baramki, Phoenicia, p. 29 . سيقده معاريف ر أي سميان بعد ذلك عندما افتتح صيدا وملك .





الظر عام لقلعة البحر والجسر



البرج الاسلامي الكبير بقلعة البحر

أسرحدون^(١). ثم عقدت مدن فينيقيا بزعامة صور حلفاً مع ملك مصر ومملكة يهوذا ضد البابليين ، فقدم نبوخذنصر (٦٠٤ - ٥٦١ ق. م) على رأس حشود هائلة في سنة ٥٩٠ ق. م وفتح أورشليم وهدم هيكلها ، ثم هاجم صيدون وحاصرها حتى مات عدد كبير من أهلها بسبب الجوع والوباء فاستسلمت له ، أما صور فقد تحدى بمقاومتها الباسلة ، واستطاعت هذه المدينة أن تصمد أمامه زهاء ١٣ سنة تحطمت مقاومتها بعدها ، فاستسلم ملكها اثبعل الثالث . وعندئذ دخلتها جيوش الكلدانيين ودمرت مبانيها ، وسوتها بالأرض ، ومنذ ذلك الحين تخلت صور عن مكانتها السامية ، وفقدت استقلالها هي وصيدون^(٢) ، ولكن صيدون حلت محلها ، واستعادت زعامتها على المدن الفينيقية من جديد^(٣) .

(ج) خضوع صيدون للفرس :

سقطت الدولة البابلية الثانية على أيدي الفرس في سنة ٥٣٨ ق. م ، وورث قبيز بن كورش ملك فارس تركة البابليين ، فتحولت سورية إلى ولاية فارسية ، ودخلت صيدون في فلك الإمبراطورية الفارسية في سنة ٥٢٦ ق. م ، كما دانت لها صور وغيرها من المدن الفينيقية ، فمنحها قبيز كثيراً من الامتيازات ، واتخذ صيدون حاضرة لمدن الساحل الفينيقي ، وأسس فيها الفرس قصراً ملكياً تحيط به المتنزهات والجنان لنزوله^(٤) ، كما أقام والي صيدون الفارسي قصراً لنفسه ، وأبقى قبيز على النظام

(١) نجيب ميخائيل ، ص ١١٥ - فيليب حتي ، ص ١٧٨ - يوسف مزهر ج ١ ، ص ٥٠ .

(٢) نفس المرجع ص ١١٩ - Donald Harden, p. 54 - يوسف مزهر ، صفحة ٥٢ .

(٣) Baramki, op. cit. p. 30 .

(٤) عثر في جبانة عين حلوة في صيدا على بعض تيجان أعمدة تلسب إلى القصر المذكور مصنوعة على الطراز السومري الفارسي على شكل رؤس ثيران . (راجع : Donald Harden, p 55)
موريس شهاب ، الاسكندر الأكبر في صيدا ، مجلة المشرق ، السنة ٢٧ ، بيروت ١٩٢٩
ص ٣٣٩ - Helga Seeden, Coastal Lebanon: The ancient sea - ports of
(. Phoenicia, in cultural Resources in Lebanon, Beirut, 1969, p. 64.)

الملك في صيدون في ظل الحكم الفارسي ، ونصب ملكها قائداً عاماً للأسطول الفينيقي ، وقد قام هذا الملك بمساعدة قمباز في فتح مصر في سنة ٥٢٥ ق. م . وتمتعت المدن الفينيقية في عهد قمباز بنوع من الاستقلال ، وكان ملوكها يضربون العملات المحلية بأسمائهم ، وأذن لها أن تعقد اجتماعات سنوية في طرابلس للبحث في شؤونها^(١) .

وعلى هذا النحو أصبحت صيدون في العصر الفارسي تحتل المكانة الأولى بين المدن الفينيقية ، ويتجلى ذلك في العملات الصيدونية التي ترجع الى أيام ستراتون وتلس ، فعلى وجه العملات تظهر صور سفن صيدونية نستدل منها على أن سفن صيدا كانت دعامة البحرية الفارسية ، أما ظهر العملة فتبدو فيه صورة ملك فارس في عربته الحربية يرمي سهماً أو يذبح أسداً^(٢) . وفي ظل هذا العهد السلمي استعادت صيدون ازدهارها وعظمتها ، وفي عهد قمباز باع الصيدونيون كميات كبيرة من أخشاب الأرز لليهود لبناء الهيكل الذي أقامه زروبابل بإذن من ملك الفرس نفسه ، فأعطى اليهود « فضة للنحاتين والنجارين » ، وطعاماً وشراباً وزيتاً للصيدونيين والصوريين ليأتوا بخشب الأرز من لبنان إلى بحر يافا بموجب إذن كورش ملك فارس لهم^(٣) .

وفي عهد ابنه وخليفته أخشوريش أشراك الصيدونيون في الحرب الفارسية اليونانية ، وزودوا الأسطول الفارسي بعدد من سفنهم^(٤) ، وخاضوا مع الفرس معركتين بحريتين هما معركة ميلاتس ومعركة سلاميس التي برز من أبطالها البحريين شخصيتا تيرام ، إستوس بن أنديسوس الصيدوني^(٥) ،

(١) فيليبس ، ص ١٨٥ - برنس موزر ، ص ٥٠ .

(٢) Hill, Catalogue of the Greek coins of Phoenicia, B. C. - Haden, p. 467 .

(٣) العهد القديم ، سفر عزرا ، الفصل ٤ .

(٤) Frederick Carl, p. 61 .

(٥) Ibid. (٥)

ولعب الاسطول الصيدوني دوراً هاماً في حروب الفرس مع الإغريق في عهد الملك الفارسي ارتخششتا الاول في سنة ٤٦٥ ق.م. وفي سنة ٣٩٦ ق.م. قاد ملك صيدون جيشاً في ثمانين سفينة حربية ضد الاسبرطيين الذين كان يدهم ملك مصر بالمؤن^(١).

ثم ستم أهل صيدا حكم الفرس الغاشم وضاقوا ذرعاً بتبعيتهم لهم ، وتمنوا الخلاص من نيريم ، ففي سنة ٣٥١ ق.م. انعقد مجلس المدن الفينيقية في طرابلس ، وأفصح ستراتون الاول ملك صيدا عن عزمه في التحرر من الفرس ، مستغلاً اضمحلال الامبراطورية الفارسية بعد وفاة داريوس الابن الاكبر لارتخششتا الثاني وقولية ابنه الاصغر ارتخششتا الثالث اوخوس ، فلقبت هذه الرغبة استجابة لجمعية من الحاضرين ، وعندئذ جهز ستراتون جيشاً شاركت اسبرطة في إعداداته بالمال والسلاح والرجال . وبدأت الثورة الفينيقية على الفرس في الحي الصيدوني بطرابلس ، ولم تلبث أن امتدت نيرانها الى صيدون في ظل ملكها الجديد تنس ، فهاجم الثوار القصر الملكي ، ودمروا بساتينه وجناته ، وأضرموا النيران في مخازن العشب اليابس المخصص لخيول الفرس ، وجهزوا أسطولاً مؤلفاً من مائة سفينة حربية ذوات مجاذيف متعددة الطوابق ، ونظموا الدفاع عن مدينتهم استعداداً لحوض المعركة التي يتقرر فيها مصير بلادهم . وما إن علم أوخوس بذلك حتى استشاره الغضب فزحف في جيش كثيف^(٢) من الخيالة والمشاة متجهاً نحو الساحل الفينيقي في سنة ٣٥١ ق.م. ، وعندما بلغ تنس ضخامة الحشود الفارسية استنجد بمصر ، فأرسل إليه ملكها قوة صغيرة من المطوعة اليونان بقيادة منتور قدمت من رودس^(٣). وإذ أدرك تنس أمام قلة عسكره النتيجة المحتومة ، خاف على نفسه ، فسمى الى التقرب إلى

(١) Hill, Catalogue of the Greek coins of Phoenicia, London 1910, p. XCIV

(٢) بلغ عدد الرجال ٢٠٠ ألف مقاتل ، والخيالة ٣٠ ألفاً ، وعدد السفن التي سيرها الى صيدا

٣٠٠ سفينة حربية ، وخمسمائة تجارية (فيليب حتي ، ص ١٩٠ - مزهر ، ج ١ ص ٥٧)

(٣) نجيب ميخائيل ، ص ١٢٧

الملك الفارسي بأن أرسل تساليون أحد نوابه الى معسكر الفرس ، ليعد ملكهم ببذل العون له في اقتحام صيدا عن طريق الحديدية ، وبالإشتراك في الحملة التي يجهزها ملك الفرس ضد مصر . ولم يلبث ملك مصر ان تظاهر بعزمه على التوجه الى طرابلس في طائفة من رجاله بحجة التشاور مع ممثلي المدن الاخرى ، واصطحب معه مائة من خيرة شباب المدينة ، وبدلاً من أن يمضي الى طرابلس كما أعلن من قبل اتجه الى معسكر الفرس ، وسلمهم من كان بصحبته من شباب صيدا ، فقتلهم الفرس باعتبارهم المحرضين على الثورة . ثم زحف أوخوس بعد ذلك نحو المدينة ، فخرج اليه خمسمائة من ممثلي المدينة يحملون الاغصان التماساً لطلب السلم والإبقاء على أرواح أهل صيدا ، ولكن أوخوس بادر بالحكم عليهم بالموت ، وقضى بذلك على الأمل في التفاوض مع أهل صيدا الذين أدركوا ما ينتظرهم على أيدي الفرس من سوء المصير ، ولما لم يكن في مقدورهم مقاومة الغزاة لاسيما بعد ان خانهم تنس ملك صيدا ، وغدر بهم عند ملك فارس ، فقد عزموا على تدمير المدينة وحرقها حتى لا يتركوا للفرس فرصة يشبعون فيها انتقامهم منهم . وبدأوا بإحراق الاسطول الصيدائي الراسي بمرقا صيدا حتى لا يفكر أحد منهم في النجاة بنفسه ، ثم أغلقوا أبواب بيوتهم عليهم وأشعلوا النيران في أثاث بيوتهم ، فاحتدمت النيران وارتفعت ألسنتها في عنان السماء ، وأتت النار على دورهم بما تحتويه من أثاث ورياش وتحف واثروات وأنفس ، واحترقت دور الكتب بما فيها من مخطوطات نفيسة وديوان المحفوظات بوثائقه^(١) ، وهلك في هذا الحريق البشع العدد الاعظم من أهل المدينة المنتحرة ، وصل عددهم إلى ما يقرب من الاربعين ألف شخص ، تفحمت جثثهم بين الانقاض والرماد . أما الخائن تنس فقد أمر ملك الفرس بقتله ، فحاول الانتحار ولكنه جبن وأحجم ، وعندئذ أجهزت عليه زوجته وقتلت نفسها فوق جثته^(٢) . وهكذا أتت النيران على معظم

(١) Baramki, op. cit. p. 31

(٢) Frederick, p. 65,66 - أمين خليفة ، ص ١٩٧ - فيليب حتي ، ص ١٩٠ - نجيب ميخائيل ، ص ١٢٩ - منير الحوري ، ص ٧٣

عمران صيدون القديمة وخربت دورها للمرة الثانية في تاريخها القديم وأمست أطلالاً دارسة^(١).

أما الناجون من أهل صيدا فقد عكفوا على تضييد جراح مدينتهم التعبة ، فرموا بنيانها^(٢) ، ولكن حصون المدينة وأسوارها لم تب من جديد الا في العصر الوسيط ، وأخذوا يتربصون السوء بالفرس منتظرين فرصة موالية يثبون فيها عليهم فيشبعون انتقامهم . وجاءت اللحظة التي تخلص فيها الصيدانيون من حكم الفرس البغيض ، فبعد أن انتصر الاسكندر الأكبر على داريوس الفارسي في معركة إيسوس في اكتوبر سنة ٣٣٣ ق.م زحف بجذء الساحل نحو الجنوب ، وكانت صورة ضحايا أوخوس ما تزال ماثلة في أذهان الفينيقيين جميعاً ، ولذلك رحبوا بدخول الاسكندر في البلاد ، وكانت مدينة أرواد أول مدينة فينيقية تعلن ولاءها للاسكندر ، وابتهاجها بالتخلص من نير الفرس . وتبعها طرابلس ومدن الساحل : البترون وجبيل وبيروت ، الحاقدة على الفرس ، وأرسلت صيدا رسلاً للترحيب بالاسكندر الفاتح والمخلص ، ودعوته للدخول فيها ، وفتحت أبوابها لجيوشه ودانت له بالطاعة في نفس العام . فعزل الاسكندر ستراتون الثاني ملك صيدا الموالي للفرس ، وأقام مكانه أحد أقرباء هذا الملك وهو عبدولونيم ، كان يعمل بستانياً في القصر الملكي ، وأعاد إليها الاسكندر ممتلكاتها ودستورها الخاص^(٣) . وهكذا استسلمت المدن الفينيقية للاسكندر باستثناء مدينة صور التي حملت وحدها لواء المقاومة وتحذته في عناد ، معتزة بمناعتها وحصانة أسوارها ، كما ان ملكها كان متحالفاً مع الفرس ، فأحكم الاسكندر عليها الحصار زهاء سبعة أشهر ، وساعده الصيدانيون في هذا الحصار ، واشتركوا مع المدن

(١) تعرضت صيدا للتدمير لأول مرة في زمن أمروحين عندما هدم بيوتها حتى أسسها ودمر سورها في سنة ٦٧٥ ق.م.

(٢) أحمد عارف الزين ، تاريخ صيدا ، ص ٤٤ .

(٣) Baramki, p. 33 - أسد وستم ، تاريخ اليونان ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٧ .

الفينيقية الشمالية في تزويده بثانين سفينة لتطويق صور من البحر^(١) .
ويبدو أن أهالي هذه المدن وقفوا هذا الموقف من صور بسبب تقاعس
أهلها عن نصره صيدا عندما دهمتها جيوش الفرس . ومع ذلك فعندما
سقطت صور في يد الاسكندر ، وتعرض أهلها للقتل والتعذيب ،
أشفق الصيداويون على إخوتهم السوريين من بطش الاسكندر وتنكيهه
هم ، فساعدوا الكثير منهم على الفرار الى صيدا . وبينما جعل
الاسكندر صور حصناً مقدونيا وانتزع من حاكمها صفة الملك ، وجعله
مجرد محافظ عليها ، نراه يبقى على الملكية في صيدا ويؤكد زعامتها على
مدن فينيقيا .

(د) صيدون من الاسكندر الى الفتح العربي :

في الوقت الذي آلت فيه سورية والمدن الفينيقية بعد وفاة الاسكندر
الى القائد اليوناني لاوميدون كان يحكم المدن الفينيقية حكام وطنيون ،
ولكن بطليموس بن لاجوس المعروف بسوتر - وكان قد ظفر بحكم مصر -
لم يلبث أن طمع في امتلاك الساحل الفينيقي بعد أن ضم اليه برقة في
سنة ٣٢٢ ق.م ، اذ كان يسعى الى السيطرة على غاباته الغنية بأشجار
الأرز والصنوبر لاستخدام أخشابها في بناء أسطوله ، تهديداً لاصطناع
سياسة بحرية^(٢) . ولم يلبث أن استولى على الساحل الفينيقي وسهل
البقاع في سنة ٣١٩ ق.م ، وهكذا دخلت صيدا في فلك دولة
بطليموس . غير أن هذا الوضع كان قصير الأمد ، فلم تكد تمضي خمس
سنوات على ذلك حتى تمكن أنتيجوناس حاكم آسيا الصغرى من انتزاع
فينيقيا من بطليموس ، واتخذ صيدا مركزاً له . ولم يكتف بذلك بل
حاصر مدينة صور ، وتمكن من الاستيلاء عليها في سنة ٣١١ ق.م ،
كما ارسل أسطوله الى قبرص واسترجعها من بطليموس . ثم عاود بطليموس

(١) Frederick, p. 69 - يوسف مزهر ، ج ١ ص ١١٩ - فيليب حتي ، ص ١٩٨ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، ص ١٩ .

الكرة ، فاستولى على المدن الفينيقية باستثناء صيدا التي ظلت موالية لأنتيجوناس ، ولكنها آلت بعد وفاته الى أملاك بطليموس ، وظلت تابعة للبطالة زهاء ٨٨ سنة على الرغم من الصراع القائم بين هؤلاء والسلوقيين حول السيطرة على فينيقيا^(١) . ومع أن صيدا لم تنعم إبان هذه المرحلة من الصراع بين البطالة والسلوقيين بشيء من الاستقرار ، فإنها كانت تحتل المركز الأول بين المدن الفينيقية ، وكانت تضرب العملات باسمها ، ويتولى حكمها افراد من ابنائها^(٢) . وظل الأمر كذلك إلى أن تمكن السلوقيون من السيطرة عليها في عهد أنطيوخوس الثالث الذي انتصر على البطالة في موقعة بانياس سنة ١٩٨ ق.م ، وبادر بحاصرتها ، وأرغمها على الاستسلام بعد أن عجزت عن مقاومته^(٣) .

وعندما بدأ الإغيا والاضمحلال يسري في كيان الدولة السلوقية اخذت صيدا وغيرها من المدن الفينيقية تسعى الى الاستقلال عنها ، منذ سنة ١٢٥ ق.م حتى سنة ٦٧ ق.م ، ويسجل هذا التاريخ الأخير عودتها من جديد إلى الحكم السلوقي لأمد قصير . ونستدل من العملات الصيداوية التي وصلت إلينا أن صيدا تحررت من سيطرة السلوقيين في سنة ١١١ ق.م^(٤) .

ثم ظهر الرومان على المسرح السياسي في سورية ، فيما يقرب من سنة ٦٥ ق.م ، ولم تلبث سورية أن تحولت منذ سنة ٦٤ ق.م الى إقليم من أقاليم الامبراطورية الرومانية عاصمته أنطاكية^(٥) . واحتفظت صيدا باستقلال جزئي في ظل حاكم عام يمثل الامبراطورية . وفي عهد يوليوس

(١) Frederick, p. 72 - فيليب حتي ، ص ٢٠٢ - منير الحوري ، ص ٨٢ .

(٢) فيليب حتي ، ص ٢٠٤ .

(٣) أسد رستم ، تاريخ اليونان ، ص ٩٦ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٢٤ .

(٥) نجيب ميخائيل ، ص ٧٧ .

قيصر نعمت صيدا بالاستقرار وازدهرت من جديد . غير أنها لم تلبث أن فقدت أهميتها السياسية منذ أن حرم الامبراطور أغسطس صيدا وصور من حريتهما في سنة ٢٠ ق.م ، ومع ذلك فقد واصلت المدينتان العريقتان نشاطهما التجاري والصناعي ، وكانت السفن الصيداوية والصورية تجوب البحر بلا خوف وتملأ مخازن التجار بما كانت توسق به من السلع والمتاجر^(١) . وفي سنة ٢٠٣ م منح الامبراطور سبتيموس سفروس مدينة صيدا لقب مستعمرة ، ودخلت منذ سنة ٢٦٨ م في أملاك دولة تدمر العربية التي كان يحكمها وهب اللات بن أذينة عن طريق أمه زينوبيا ، ومن المعروف أن زينوبيا استغلت فرصة اضطراب أحوال الرومان ، بعد أن وقع الامبراطور فالريان أسيراً في قبضة شاور الأول بن أردشير الساساني في سنة ٢٦٠ ، وبعد مصرع الامبراطور جالينوس في سنة ٢٦٨ ، وانتقال العرش الامبراطوري الى أوريليوس كلوديوس ، وارتباك الاحوال السياسية في روما بسبب غزو البرابرة للقسم الغربي من الامبراطورية الرومانية ، واخذت تطبق سياسة توسعية في آسيا الصغرى والشام ومصر^(٢) ، ولكن تبعية صيدا لتدمر كانت موقوتة ، فلم تلبث أن عادت الى سلطان الرومان بعد أن انهزمت جيوش تدمر على أيدي جيوش الامبراطور أورليان في سنة ٢٧١ وسقوط تدمر في أيدي الرومان في سنة ٢٧٣ م .

وكانت المسيحية إذ ذاك قد انتشرت في البلاد السورية ورسخت قواعدها ، وأقبل الكثير من سكان الشام على اعتناقها ، ومن المعروف أن صيدا كانت من أولى المدن الفينيقية التي استجابت لتعاليم السيد المسيح ، يدل على ذلك أن قوماً من مسيحيي صيدا تكلفوا مشقة السير الى الجليل لسماع بشارة يسوع ومشاهدة معجزاته ، « فانصرف يسوع الى البحر ليصحبه تلاميذه ، فتبعه جمع كبير من الجليل وجمع كبير من اليهودية

(١) Frederik, p. 77 — نجيب ميخائيل ، ص ٧٧ .

(٢) سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ص ١٨٣ .

ومن أورشليم وأدوم وعبر الأردن ونواحي صور وصيدا^(١) . وورد في الكتاب المقدس ما يشير الى أن السيد المسيح جاء الى نواحي صور وصيدا^(٢) ، كما ورد أن العذراء قدمت الى مشارف صيدا واقامت في موضع قريب منها في انتظار وصول السيد المسيح الى صيدا ، وفي هذا الموضع أقيمت كنيسة للروم الكاثوليك سميت بكنيسة سيدة المنطرة ، وتقع على بعد خمس ك.م جنوب شرقي صيدا في قرية مغدوشة^(٣) . وفي سنة ٥٨ مر بصيدا القديس بولس الرسول وهو في طريقه الى ايطاليا^(٤) .

ثم أصبحت صيدا في بداية القرن الرابع الميلادي مقراً أسقياً ، واشترك أسقفها ثيودوروس في المجمع المسكوني الأول الذي انعقد في نيقية في سنة ٣٢٥ م^(٥) . وفي سنة ٣٢٨ زارها الامبراطور قنسطنطين الأول ، وشاهد المغارة التي اقيمت عليها كنيسة سيدة المنطرة^(٦) . وفي عهد الامبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني (٤٠١ - ٤٥٥) انفصلت المناطق الشرقية المرتفعة من فينيقيا عن المناطق الساحلية لتسهيل عملية ضبطها ، وسميت المنطقة الساحلية بفينيقيا الأولى وعاصمتها صور ، ومن مدنها عكا وصيدا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وعرة وأرواد . أما فينيقيا الداخلية ، فقد سميت بفينيقيا الثانية أو فينيقيا اللبنانية وعاصمتها حمص ، ومن أهم مدنها بعلبك ودمشق وتدمر^(٧) .

(١) الكتاب المقدس : الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل ، بيروت ١٩٦٧ ، انجيل لوقا ، فصل

٦ : ١٧ ، ١٨ .

(٢) الكتاب المقدس : انجيل متى ، فصل ١٥ : ٢١ - ٢٨ ، انجيل مرقس ، فصل ٧ :

٢٤ - ٣١ .

(٣) فيليب حتي ، ص ٢٥٤ - منير الخوري ، ص ٩٢ .

(٤) الكتاب المقدس ، أعمال الرسل ، فصل ٢٧ : ٣ .

(٥) Frederick , p. 79 - فيليب حتي ، ص ٢٥٦ .

(٦) منير الخوري ، ص ١٠٣ .

(٧) فيليب حتي ، ص ٢٣٤ - يوسف مزهر ، ص ١٦٤ .

ولم نعد نطالع اسم صيدا بعد ذلك إلا فيما يختص بأساقفتها الذين كانوا يشتركون في 'المجامع الكنسية المسكونية' ، وهكذا أخذت صيدا التي طحنتها النوائب والاحداث التاريخية تتأذى في ظلام النسيان ، وبدأت سارييتا (الصرفند) التي تقع الى جنوبها تزدهر وتتألق . ثم تعرضت صيدا في سنة ٥٥١ لزلزال عنيف سبب لها بعض الاضرار ، ولكنه لم يؤثر فيها كما أثر على بيروت التي دمرتها الزلازل تدميراً تاماً بحيث انتقلت إلى صيدا مدرسة الحقوق البيروتية لفترة عشرين عاماً . ويذكر أنطونيوس مارتير في رحلته إلى الاراضي المقدسة في سنتي ٥٦٠ ، ٥٧٠ أن صيدا كانت مخربة في أجزاء منها^(١) . ثم تعرضت صيدا في سنة ٥٧٣ م من جديد لزلزال أشد عنفاً دمرها وقضى على البقية الباقية من عمرانها الزاهر ، ولم يمض على هذا الزلزال ما يقرب من اثنتين وأربعين سنة حتى دخلتها الجيوش الفارسية بقيادة شهربراز في طريقها إلى بيت المقدس في سنة ٦١٤ ، وظل الفرس يحتلوها حتى سنة ٦٢٨ عندما حررها الامبراطور هرقل ، ولكنها لم تبق طويلاً في أيدي البيزنطيين ، إذ افتتحها العرب في سنة ٦٣٧ م .

(٢)

المظاهر الحضارية

ذكر بومبونيوس ميلا في القرن الاول الميلادي أن الفينيقيين « كانوا جلساً حاذقاً ، نجحوا في الحرب والسلم ، ونبغوا في الكتابة والأدب وبعض الفنون الأخرى كقيادة السفن والحروب البحرية وفن حكم امبراطورية » ، ولا تتجلى شجاعتهم في الحروب في صراع القرطاجنيين الطويل مع روما فحسب بل في المقاومة الضارية التي بذلتها كل من صور وصيدا ضد البابليين والفرس واليونان ، وفيما بذله البحريون الفينيقيون

(١) Frederick, p. 79

الذين استخدمهم الفرس لمحاربة اليونان^(١) من براعة في القتال البحري وما أبدوه من ضروب البسالة والإقدام .

أما الصيدانيون (أو الصيدونيون) فقد طبقت شهرتهم الآفاق في المجالين الصناعي والتجاري في كل من المصريين اليوناني والروماني ، كما ذاعت شهرتهم في العلوم والمعارف ، ونافسوا اليونان والرومان ، فظهر منهم الشعراء والأدباء والفلاسفة وعلماء الرياضة والفلك .

(أ) تقدم الفنون الصناعية والحرف :

تذهب الأسطورة الشعبية في تفسير اسم صيدا إلى القول بأنها مدينة الصيد ، على أساس أن أهلها اشتهروا عبر التاريخ بصيد السمك ، وما زالت هذه الحرفة من الحرف الرئيسية عندهم في الوقت الحاضر . والحقيقة أن أهل صيدا عرفوا حرفاً أخرى صناعية هامة ، وعلى الأخص ثلاث صناعات كان لها مكانة هامة بين صناعاتهم : صناعة النسيج ، وصناعة التحف المعدنية ، وأخيراً صناعة الزجاج^(٢) . ونضيف إلى هذه الصناعات الثلاث صناعة أخرى اقترنت باسم الفينيقيين هي استخراج الأصباغ الأرجوانية من محارات الموريكس التي كانت تتوفر على الساحل قريباً من المدينة حيث ما تزال توجد على ساحلها الجنوبي اكوام منها . أما صناعة النسيج فقد ازدهرت في صيدا في الألف الأول قبل الميلاد ، بل استمرت في المصريين الروماني والبيزنطي والعصر الإسلامي . لقد برع الصيدونيون في إنتاج المنسوجات الصوفية التي كانوا يستوردون ماديها الخام من إقليم البقاع والأسواق العربية ، والمنسوجات الكتانية التي كانوا يستوردون أليافها من مصر . كذلك حذقوا صناعة الحلل الحريرية التي امتدحها هوميروس ، فقد ورد في الإلياذة الكثير من العبارات التي تشير

(١) Donald Harden, pp. 19, 20

(٢) Frederick, pp. 121 - 122

الى القماش المطرز بالخليات والمصبوغ باللون الأرجواني الذي كانت تنتجه صيدا، منها أن «مكتور يدخل في قصر أبيه قادماً من ساحة المعركة فيخبر أمه هيكوبا بأن تقدم أجل ثيائها الى الالهة أثينا حتى ترحم مدينة طروادة وترحم نساءها واطفالها الأبرياء وتتقدم من الإيحيين. فنزلت هيكوبا في المخزن المعطر الذي تودع فيه الحلل الجاهزة عمل نساء صيدون، وهي الثياب التي احضرها الكسندروس بنفسه الى طروادة من ارض صيدون عابراً بها البحر الفسيح... فالتقطت هيكوبا حلة منها وأهدتها الى الالهة أثينا، وكانت أجل الحلل رسماً واكثرها اتساعاً بحيث كانت تتألق كالنجم الساطع»^(١). كذلك نوه هوميروس بشهرة صيدا في عمل الحرير وتزيينه بالنقوش وتصديره بعد ذلك عبر البحار^(٢). وظلت المنسوجات الحريرية من السلع الرائجة في مدن الساحل السوري في العصر البيزنطي، واشتغل ورثة الفينيقيين بتصديره الى دول أوروبا: ففي القرن الخامس اشار سان جيروم الى أنهم كانوا تجاراً شجعاناً، طافوا العالم، ولم تحد من نشاطاتهم الأخطار التي كانوا يواجهونها بسبب الغزوات البربرية، وعندما شاع الترف في الغرب الأوروبي في الكنيسة وفي البلاط الميروفنجي (٤٤٥ - ٧٥١ م) سيجت الرجال والنساء عن المنسوجات الحريرية المصبوغة باللون الأرجواني لارتدائها، ووجد سكان سوريا في ذلك مجالاً مناسباً ليجنوا أرباحاً طائلة، ولم يكتفوا بمجرد الطواف في البلاد، وإنما استقروا في مدن الجنوب مثل بوردو وأربونة ومدن الشمال مثل أورليان وتور، واختلطوا بالسكان، واعتبروا هناك من أهل البلاد، وفتحت نشاطاتهم أسواقاً جديدة لتجارة المنسوجات الحريرية^(٣). وكانت صيدا الى جانب ذلك تزود القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية

(١) Helga Seeden, Coastal Lebanon, p. 62

(٢) Homère, Iliade, t. IV, trad. Paul Mazon, Paris, 1938, ch. XXIII, p. 127

(٣) Maurice Chehab, Rôle du Liban dans l'histoire de la Soie, Beyrouth, 1967, pp. 17 — 18.

في زمن جستنيان بالمصنوعات المختلفة كالنسيج^(١) ، لا سيما المنسوجات الحريرية المصنوعة في الصين والهند والتي كانت تصبغ باللون الأرجواني ، فيقبل عليها الأباطرة انفسهم ورجال الكنيسة^(٢) . ثم عرف البيزنطيون سر صناعة الحرير الطبيعي ، وأقاموا مصانع لتحويل شرائق الحرير الى نسيج حريري في سوريا وسواحل فينيقيا . وعندما فتح العرب الشام وجدوا دور طراز لصناعة المنسوجات الحريرية في بيروت وصيدا وأرواد^(٣) .

كذلك يمتدح هوميروس ذوق الصيدونيين ومهارتهم في الأعمال اليدوية الدقيقة خاصة في صناعة الأقداح الفضية التي لا نظير لمجالها في العالم^(٤) . ومن المعروف أن الفضة والذهب كانا يردان من الحبشة واليمن عن طريق المعينين والسبئين . وذاعت شهرة الصيدونيين في استخراج الأصباغ الأرجوانية والقرمزية والحمراء والبنفسجية من محارات الموريكس والباكسينيوم المشهورة التي تكثر على سواحل صور وصيدا وساربتا ، فأسسوا المعامل لتصنيعه واستخدامه في صباغة المنسوجات الصوفية والحريرية والكتانية ، وما زالت بقايا اصداف الموريكس متراكمة في أكوام على طول الساحل الجنوبي من صيدا . وكانت تقع الى شمال صيدا مدينة تسمى فورفيريون أي مدينة الأرجوان تخصص اهلها في تصنيع الأصباغ الأرجوانية^(٥) . ولم تكن عملية صيد القواقع واستخراج الاصباغ منها وتثبيت ألوانها بالمواد الكيميائية أمراً هيناً ، ومن هنا ارتبط اسم الصيدونيين بالفينيقيين في العصر القديم ، بل إن كلمة فينكس Phoenix وهي المقطع الأول من لفظة فينيقيا تعني اللون الأحمر ، كما أن كلمة

(١) E. Gibbon, The history of the decline and fall of the Roman empire, London, 1903, vol. V, p. 56.

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ص ٣٠٦ .

(٣) جستون دو كوسو ، تاريخ الحرير في بلاد الشام ، مجلة المشرق، السنة ١٥ ، بيروت ١٩١٢ ص ٢٨٥ .

(٤) Dictionnaire de la Bible, p. 1705

كينع في الفينيقية. وكنعان في العبرية وكناجي في الحورية تعني الحمرة الارجوانية^(١). وكانت هذه الصناعة من الاهمية بحيث كانت سبباً في اشتها صيدون بصناعة المنسوجات^(٢). ومن المعروف أن الثياب الارجوانية كانت من افخر ما يلبسه عليه القوم والكهنة والقادة في العصر الروماني والبيزنطي.

كذلك برع الصيدونيون في صناعة الزجاج الشفاف غير الملون ، والملون ، والقائم الذي يشبه الخزف ويسمح بنفاذ الضوء ، والزجاج الذي لا يخترقه الضوء^(٣). وكان زجاج صيدا في معظمه من النوع المصبوب صباً لأن طريقة النفخ لم تكن قد عرفت عندهم بعد ، وعندما شاعت طريقة النفخ ظلت الطريقة التقليدية الاولى تسير جنباً الى جنب مع الطريقة الجديدة^(٤). ويؤكد بلنيوس سيجندوس هذه الشهرة التي حظيت بها صيدا في صناعة الزجاج بل إنه ينسب إليهم ابتكار الزجاج والمرايا الزجاجية^(٥). ولكن ما أسفرت عنه الحفريات الأثرية في مصر تدل على أن المصريين القدامى عرفوا هذه الصناعة قبل الفينيقيين بعهود طويلة^(٦). ويعتقد الدكتور محمد غلاب أن مادة النطرون التي تدخل في صناعة الزجاج كانت متوفرة في مصر ولم تكن تتوفر في فينيقيا ، ويرجح أن الفينيقيين تعلموها من مصر وأنهم كانوا يستوردون هذه المادة من مصر ثم توسعوا في صناعة الزجاج على نطاق واسع حتى أصبحت صيدا والصرفند وصور اكبر مراكز صناعة في حوض البحر المتوسط^(٦). ويعلق الاستاذ رينيه

(١) نجيب ميخائيل ، ص ٤٧ - محمد غلاب ، الساحل الفيئقي ، ص ١٧

(٢) Joseph Michel Chami, De la Phénicie, 1967, p. 74

(٣) فيليب حتي ، ص ٢١٥

(٤) Pliny, Natural history, vol. X, libri XXXVI, éd. E. Eichholz, London,

1962, p. 153

(٥) Frederick, p. 122

(٦) محمد غلاب ، ص ٤٤٢

ديسو على ما ذكره بلنيوس من ابتكار صيدا للزجاج بقوله : « إذا كان المصريون قد ابتكروا عجينة الزجاج القاتمة ، فإن الزجاج الرقيق الشفاف من ابتكار الفينيقيين » ، ويضيف أن أهل صيدا ابتكروا الزجاج المنفوخ الذي يزودنا بتحف زجاجية رقيقة وشفافة ، ويشير إلى أن الصانع الصيداويين في العصر الروماني سجلوا أسماءهم على تحفهم ، ومن هذه التوقيعات عرفنا أسماء صيداويين أمثال أريستون وأرتاس وإيرانيوس واينيون وميجيس ونيكون وتريفون وجازون^(١) . وقد أشار استرابو إلى أنه « يوجد بين عكا وصور ساحل رملي يتوفر فيه رمل من نوع معين يستخدم لصناعة الزجاج ، وكانت هذه الرمال تحمل إلى صيدا وتصر هناك . ويقال إن الصيدونيون تتوفر لديهم الرمال المخصصة لصناعة الزجاج وإن كان هناك من يقول بأن الرمال في أي مكان تصلح لهذه الصناعة »^(٢) . وكانت مصانع الزجاج الصيدوني يكثر وجودها في ساربيتا ، وقد عثر فيها على كميات كبيرة من قطع الزجاج الملون ، ومن المعتقد أن كثرة هذه القطع في هذا الموضع يؤكد أنها كانت بقايا مصنع للزجاج أقيم في تلك البلدة^(٣) .

وعرف أهل صيدا أيضاً صناعة التحف الخزفية ، ولكنهم لم يصلوا في إجادة صناعتها إلى ما وصلت إليه الشعوب الأخرى التي اشتهرت بهذا النوع من الصناعة كالصينيين واليونان والمصريين ، وذلك لعدم توافر مواد صلصالية جيدة في متناول أيديهم^(٤) .

وإلى جانب هذه الفنون الصناعية برع الصيدونيون في فن الملاحة البحرية ، وزودتهم غابات الأرز والشربين في سفوح جبال لبنان بما كانوا

René Dussaud, un nom nouveau de verrier sidonien, dans Syria, t. I, Paris, (١) 1920 p. 230

Strabo, VII, p. 273 (٢)

Frederick, p. 122 (٣) - محمد غلاب ، ص ٤٤٢

(٤) محمد غلاب ص ٤٤٣ - منير الخوري ، ص ٣٢

يحتاجون إليه من أخشاب لصناعة السفن^(١). وكانوا يقطعون أخشاب الأرز من أعالي الجبال ، ويلقون بها إلى مجاري الأنهار ، فتجرفها السيول أمامها في موسم الشتاء لتصل إلى مصاب الأنهار ، فيستخدمونها لصناعة مراكبهم^(٢). ويشير هيرودوت إلى شهرة صيدا قديماً في فن الملاحة ، فيذكر أنه اشتهر من بينهم القائد تترامنستوس الصيداوي بن أنيسوس^(٣)، وفي موضع آخر يذكر أن الملك الفارسي أحشويرش انتقل من عربته إلى سفينة صيداوية وجلس تحت خيمة مذهبة^(٤).

(ب) النشاط التجاري :

ساعد موقع صيدا البحري وكثرة مرافئها على أن تصبح في التاريخ مركزاً هاماً للتجارة البحرية ، كما ساعد توفر أخشاب الأرز والصنوبر والشربين أهل صيدا على احتراف الملاحة البحرية ، وهي ضرورة لازمة للشعوب التجارية وكان لذلك نتائج هامة في توجيه أهل صيدا إلى الطواف في مرافئ البحر المتوسط واحتكاكهم بالشعوب المجاورة واتصالهم بالجزر البحرية الهامة مثل كريت وقبرص وصقلية . وكانت التجارة هي الحرفة الرئيسية للفينيقيين وعلى الأخص الصيداويين والصوريين ، فمن المعروف أن تجار صيدا وصور كانوا وسطاء عالميين للتجارة ، انتشروا في العالم القديم شرقاً وغرباً ، وحملوا معهم إلى الأسواق الأوروبية سلع الشرق كالعطور العربية اليمنية والتوابل الهندية والمنسوجات الحريرية الصيلية والمنسوجات الصيداوية الصوفية والكتانية المصبوغة باللون الأرجواني والقرمزي ، والتحف المصنوعة من الزجاج والتحف المعدنية المصنوعة من الفضة والذهب والنحاس ، والتحف العاجية . وقد عثر على بعض التحف الزجاجية تحمل توقيعاً

(١) يوسف مزهر ، ج ١ ، ص ٢١

(٢) فيلب حتي ، ص ١٣٦

(٣) Herodotus, t. III, Book VII, trans. Godley, London, 1963, p. 98

(٤) Ibid. p. 400

للصانع الصيداوي ايليون في مواضع مختلفة مثل مصر وقبرص وشمال إيطاليا بل في جنوبي روسيا^(١).

ويشير هوميروس في أشعاره الى أهمية صيدا كمدينة تجارية ، ويمتدح تجارتها في المنسوجات والنحاس والرقيق ويذكر أنها من اختصاص مدينة صيدا^(٢) . كذلك تشير أشعار هوميروس الى الصلات التجارية التي تربط فينيقيا باليونان ، فيذكر أن سفن صيدا كانت تعبر البحر المتوسط في كل اتجاه . أما ديودور الصقلي فينوه بثروات أهل صيدا الفاحشة التي جنوها من الاشتغال بالتجارة^(٣) .

وظلت صيدا تزداد أهمية في الأسواق العالمية بزجاجها الذي حاز شهرة تجاوزت كل تقدير ، ومنسوجاتها الحريرية والصوفية ، وفي نفس الوقت واصل أهل صيدا ممارسة حرفتهم الرئيسية كوسطاء للتجارة بين الشرق والغرب ، فكانوا هم والصوريون والأرواديون وغيرهم من أهالي الساحل الفينيقي يحملون السلع القادمة من اليمن عبر الطريق التجاري البري الذي يربط اليمن بالشام ومصر ماراً بتياء ومدن وديدن ومعون كالطيوب واللبان والذهب الأثيوبي والجزع اليمني والمقيق والعاج والأبنوس والتوابل والآل^(٤) . وكانوا يحملون هذه السلع الى بلاد غالة وإيطاليا ودلماسيا وأوستيا وغيرها ، وقد عثر على كتابات يونانية ولاينية تؤكد وجود تجار من صور وصيدا وببيروت في هذه المناطق في العصر الروماني^(٥) .

(ج) الحركة العلمية والأدبية :

والى جانب شهرة صيدا في الفنون والصناعات وما ناله أهلها من

(١) فيليب حتي ، ص ٢٤٣

(٢) فيليب حتي ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) Frederick, p. 116

(٤) عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ص ٨٧ وما يليها .

(٥) يوسف مزهر ، ج ١ ص ١٤٦ .

شهرة في التجارة ، كانت مركزاً علمياً زاهراً خاصة في العصرين اليوناني والروماني ، ففيها تقدمت الآداب ، وتألفت الحياة العقلية ، وبرع من أبنائها شخصيات بارزة في علوم الفلك والرياضيات واللاهوت والفلسفة .

أما فيما يختص بالآداب فقد نبغ فيها الشاعر انتيباتر الصيداوي الذي عاش في اواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، وكان في نفس الوقت فيلسوفاً أبيقوريا^(١) . ومن شعراء صيدا وفلاسفتها البارزين في القرن الأول قبل الميلاد بوثيوس الذي تلقى ستراون على يديه فلسفة أرسطو^(٢) . وفي مجال الفلسفة ظهر في القرن الثاني الفيلسوف بوثيوس الصيداوي الذي أسهم في نشر الأفكار الرواقية ، ورييوس الصيداوي في اواخر القرن الثاني ، وكان من اشد أنصار المدرسة الأبيقورية في أثينا ، وبوثيريوس الصيداوي الشاعر الفيلسوف وكان من أتباع المدرسة الأرسطوطالية^(٣) . وفي ميدان الفلك والرياضيات يمتدح استرابو مهارتهم التي ساعدتهم فيما نالوه من شهرة في مجال الملاحة البحرية والتجارة^(٤) ، وفي العلوم الدينية ظهرت شخصية القديس زوبويوس أسقف صيدا الذي صنف كتاباً عن سورية المقدسة^(٥) .

وعندما دمر زلزال سنة ٥٥١ م مدينة بيروت وخرب معهد الحقوق المشهور الذي اسسه الامبراطور ستميوس سفروس انتقلت الدراسات القانونية الى صيدا حيث قام اساتذة القانون البيروتيون بتدريسها فيها فترة من الوقت^(٦) . أما في الطب ، فالظاهر أنه كان متقدماً بصيدا ، بحيث اتخذت مركزاً لعبادة الإله أشمون إله الطب والشفاء ، وقد رمر له شعبانين يلتفان حول عصا ، والثعبان يرمز الى الحياة الطويلة والصحة ،

(١) فيليب حتي ، ص ٢٢٣

(٢) Strabo, VII, p.271

(٣) فيليب حتي ، ص ٢٢٢

(٤) Strabo, VII, p. 269

(٥) منير الخوري ، ص ١٠١

(٦) فيليب حتي ، ص ٢٨٤

وقد اقتزن اسم أشمون بالإله اسكليوس ، بل إن اسم اسكليوس من الاسماء التي عرف بها نهر الأولي ، حيث اقيم في جنوب هذا النهر قرب مصبه معبد لأشمون يرجع تاريخه الى القرن الخامس ق. م ، عثر على بقاياها في سنة ١٩٠٠ ، واكتشفت في هذا المعبد عدة تماثيل غاية في الروعة والجمال تمثل أطفالاً تم شفاؤهم في صيدا^(١) .

(د) الآثار الباقية :

اكتشفت في منطقة صيدا ولواحيها آثار عديدة ذات طابع ديني وجنائزي وأخرى مدنية أن نحدددها في ثلاثة مواضع رئيسية هي : الجبانة الجنوبية ، والجبانة الشرقية ، وموقع معبد أشمون . أما الجبانة الجنوبية فقد تم الكشف عنها في يناير سنة ١٨٥٥ بمحض الصدفة ، فبينما كان بعض الوطنيين يقومون بالحفر بالقرب من مغارة أبلون الواقعة في عين الحلوة جنوب غربي المدينة ، عثروا على تابوت نقشت على غطاءه كتابات فينيقية تتألف من ٢٢ سطراً ، تتضمن اعمال أشمونعزار الثاني ملك صيدا فيما بين عامي ٤٢١ - ٣٩٦ ق. م^(٢) الهامة مثل تشييد معبد عشتروت ومعبد بعل . وقد اهتم علماء الآثار وقتئذ بهذا الاكتشاف ، وقدم العالم الفرنسي رينان الى صيدا في سنة ١٨٦٠ ، وأجرى في الموضع الأثري حفريات اسفرت عن كشف عدد من التوابيت . ثم تابعت الحفريات بعد ذلك بإشراف مكريدي بك والعالم الفرنسي كونتينو .

أما الجبانة الشرقية فقد تم الكشف عنها في حملة قباغة الواقعة الى الشرق من صيدا ، واستخرج منها في سنة ١٨٨٧ عدد كبير من التوابيت القيمة من بينها تابوت الملك تبنيث بن أشمونعزار الأول (٤٥٧ - ٤٢١ ق. م) واربعة توابيت يونانية من الرخام اروعها جميعاً تابوت يسمى

(١) Joseph Michel Chami, de la phénicie, p. 81

(٢) Frederick, p. 138 - منير الحوري ، ص ٦٧

بتابوت الاسكندر^(١) ، وسمي كذلك لأن النقوش التي تزدان بها جوانب التابوت تمثل حروب الاسكندر ، والتابوت الثاني يعرف بتابوت المرزبان ، والثالث بالتابوت الليقي والرابع بتابوت النائح^(٢) .

أما معبد أشمون فقد أسسه أشمونعزار للإله أشمون إله الشفاء ، وقد كشف عنه في سنة ١٩٠٠ على الضفة الجنوبية من نهر الأولي بالقرب من مصبه ، في بستان يسمى بستان الشيخ^(٣) . وفي هذا المعبد عثر على ١٣ تمثالاً من المرمر الوردي لأطفال قدموا إلى معبد أشمون وهم مرضى وتم شفاؤهم هناك . ويتألف المعبد من جدار مستطيل الشكل مبني من كتل حجرية ضخمة ، ولكنها مصقولة ، يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٦٠ متراً ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٤٤ متراً . وفي وسط البقعة التي يضمها السور كان يقوم هيكل الإله أشمون ، ومن المعروف أن الملك بدعشترت أضاف إلى معبد أشمون إضافة إلى أعمال جده^(٤) . وقد تعرض هذا المعبد للتخريب في عهد الملك الفارسي ارتخششتا الثالث أوخوس الذي تسبب في إحراق أهل صيدا لمدينتهم .

وبالإضافة إلى الآثار السابقة كشف في صيدا أيضاً عن آثار فورم روماني وبازيليكية ، كما كشف كذلك عن مبنى للمجلس البلدي^(٥) .

(١) موريس شهاب ، الاسكندر الكبير في صيدا ، مجلة المشرق ، السنة ٢٧ ، بيروت ١٩٢٩

(٢) غالب الترك ، ص ٨٨ - دليل صيدا الاثري ، ص ٦١ .

(٣) Baramki p. 109

(٤) مزهر ، ج ١ ص ٨٤

(٥) Bruce Condé, See Lebanon, p. 245 .

الفضل الثاني العصر الإسلامي الأول ١٦-٥٠٤هـ / ٦٢٨-١١١٠م

١ - صيدا من الفتح العربي حتى الفتح الفاطمي

- (أ) الفتح العربي وتحصين صيدا بالقلاع .
- (ب) صيدا في العصرين الأموي والعباسي الأول .
- (ج) صيدا في العصرين الطولوني والإخشيدي .

٢ - العصر الفاطمي : أزهى عصور صيدا الإسلامية

- (أ) موقف صيدا من الأحداث السياسية في الشام بعد الفتح الفاطمي .
- (ب) صيدا بين شقي رحي .
- (ج) استقرار الأوضاع في صيدا في عصر العزيز بالله والحاكم بأمر الله .
- (د) اضطراب الأحوال في صيدا من ٤١٥ هـ إلى ٥٠٤ هـ .
- (هـ) ازدهار صيدا في العصر الفاطمي .

الفصل الثاني العصر الإسلامي الأول ١٦-٥٠٤هـ / ٦٣٨-١١١٠م

(١)

صيدا من الفتح العربي حتى الفتح الفاطمي

(أ) الفتح العربي وتحصين صيدا بالقلاع :

تعتبر مدينة صيدا في مقدمة مدن الساحل الشامي التي افتتحها يزيد ابن أبي سفيان بعد أن استخلفه أبو عبيدة بن الجراح على دمشق. وكادت صيدا من أعمال دمشق ولذلك عهد إليه أبو عبيدة بفتحها مع غيرها من المدن الساحلية التي تتبع إقليم دمشق مثل عرقه وجبيل وبيروت ثم طرابلس التي افتتحت فيما بعد في خلافة عثمان بن عفان^(١). أما سواحل الأردن فقد تعاون في فتحها كل من يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ، واشترك معها معاوية ، وأبلى في ذلك بلاء حسناً^(٢). وتشير المصادر العربية إلى

(١) استعصت طرابلس على المسلمين في ولاية يزيد بن أبي سفيان لمناعتها ووثاقة تحصيناتها ، فأرجأ يزيد فتحها إلى فرصة أخرى موأنية . فلما توفي يزيد في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ وخلفه أخوه معاوية على ولاية دمشق والساحل ، وجه معاوية لفتح طرابلس القائد سفيان بن حبيب الأزدي في خلافة عثمان بن عفان ، فافتتحها فيما يقرب من سنة ٢٥ هـ (راجع : السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الإسكندرية ١٩٦٧ ص ٣٦ ، ٣٥)

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٧ ج ١ ص ١٣٩

أن معاوية بن أبي سفيان اشترك في فتح صيدا وسواحل دمشق ، وأنه كان في مقدمة الجيش العربي الاسلامي الذي وجه لفتح الساحل ؛ فالبلاذري يذكر أن « يزيد أتى بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعرقه وجبيل وبيروت وهي سواحل ، وعلى مقدمته أخوه معاوية ، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثير من أهلها » (١) . ويورد ابن الأثير نفس النص مع بعض التغيير الطفيف ، فيشير فقط الى مضي أبي عبيدة إلى فحل وقيام يزيد بغزو صيدا وصور وسواحل دمشق الاخرى (٢) . ويؤكد البلاذري أن يزيد ابن أبي سفيان وجه معاوية إلى سواحل دمشق ، باستثناء طرابلس التي لم يكن يطمع فيها وقتذاك ، ففتح معاوية هذه السواحل فتحاً يسيراً ، « فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة ، فرمى قوتل قتالاً غير شديد ، وربما رمى ، ففتحها » (٣) .

ويختلف المؤرخون في تحديد تاريخ فتح صيدا ، فابن الأثير يذكر هذا الحدث في جملة حوادث سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) والبلاذري لا يذكر تاريخ قيام يزيد بن أبي سفيان بهذا الفتح ، وإنما يشير إلى أن ذلك تم بعد فتح دمشق . ومن المعروف أن فتح دمشق تم في رجب سنة ١٤ هـ (٤) (٦٣٥ م) . أما فيما عدا ذلك فليس لدينا من النصوص ما يشير الى تأريخ محدد لهذا الفتح . ومن الثابت أن فتح سواحل دمشق باستثناء طرابلس ، تم الفراغ منه في آخر سنة ١٦ هـ (٥) ، أو أوائل سنة ١٧ هـ ، لأن عام

(١) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ج ١ ص ١٥٠

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ مجلد ٢ ص ٤٣١

(٣) البلاذري ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٢

(٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ ، ج ٢ ص ١٤٠ . وذكر الطبري نقلاً عن ابن اسحق والواقدي أن دمشق فتحت في سنة ١٤ هـ (تاريخ الامم والملوك ، طبعة دار القماموس الحديث ، ج ٤ ، بيروت ، ص ٥٩)

(٥) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، تحقيق فرانسيس هورن اليسوعي وكال سليمان الصليبي ، دار المشرق ، بيروت ١٩٦٨ ص ١٢

١٨ هـ (٦٣٩ م) شهد طاعون عمواس الذي توفي به نحو خمس وعشرين ألفاً من المسلمين ، ولذلك لا نستبعد أن يكون يزيد قد فرغ من فتح صيدا في سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م)^(١) .

ولم يلبث البيزنطيون في عهد قنسطانز الثاني أن تغلبوا على بعض سواحل الشام في بداية خلافة عثمان بن عفان (سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م) ، ولكن معاوية ، تصدى لهم واستردها ، ثم رمم قلاعها ، وشحنها بالمقاتلة ، ووزع عليهم القطائع^(٢) . وليس لدينا ما يؤكد أن صيدا كانت في جملة هذه المدن الساحلية التي تغلب عليها البيزنطيون ، ثم استردها معاوية ، على أننا لا نشك في أن صيدا حظيت باهتمام معاوية ، فعني بتحصينها في خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، لما إن توفي أخوه يزيد في عام عمواس حتى أسند اليه الخليفة الراشد عمر ولاية دمشق بسواحلها بالإضافة الى فلسطين ، ولكن عمر فصل القضاء عن السلطة الادارية ، فولي مع معاوية ابا الدرداء الصحابي قضاء دمشق والاردن وصلاتها ، وعبادة بن الصامت قضاء حمص وقنسرين وصلاتها^(٣) . وكانت معظم سواحل دمشق قد تخربت قلاعها ودثرت تحصيناتها ، فكتب معاوية الى عمر بعد أن اسندت اليه ولاية الشام بطبيعة الحال في سنة ١٨ هـ يصف له حال السواحل ، وما تحتاج اليه حصونها وقلاعها من مرمة وتجديد ، فأمره عمر بترميم حصونها « وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها »^(٤) . ويبدو ايضاً أن معاوية تباطأ في ترميم هذه القلاع ، وأنه لم يكن قد فرغ من هذه المهمة عندما دمه

(١) يخصص السيد منير الخوري في كتابه « صيدا عبر حقب التاريخ » صيدا بالذات عند تعرضه لذكر تغلب الروم على السواحل ، كما يخصصها بالذكر عند حديثه عن استرداد المسلمين لها (ص ١٢٦) . ولا ادري من أي مصدر استقى المؤلف هذه الاخبار عن صيدا .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٠ - ان الاثير ، ج ٢ ص ٤٣١ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٦٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٥٢ .

البيزنطيون بغزوم هذه السواحل في بداية خلافة عثمان بن عفان . فلما تمكن معاوية من إجلائهم عنها كتب اليه عثمان بن عفان يأمره « بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياه القطائع ففعل »^(١) . ومنذ ذلك الحين كثر وفود المسلمين الى السواحل الشامية للرباط .

وهكذا التزم معاوية بأدىء ذي بدء بتطبيق سياسة دفاعية عن السواحل لمواجهة الخطر البيزنطي على الثغور الشامية تمهيداً لتطبيق سياسة بحرية هجومية دعائها الأساطيل ، فاهتم بتحصين السواحل متوسلاً في ذلك بوسائل برية ، عن طريق مرمة حصونها واسوارها وترتيب المقاتلة فيها ، وتنظيم الحراس على مناظرها^(٢) ، وإقامة الاربطة او المسالحي او المناظر وشحنها بالمرابطة لمراقبة النواحي التي يقبل منها البيزنطيون في البحر والانداز باقتراب العدو ليلاً عن طريق ايقاد النار في مواقيد بأعلاها ، تنبيهاً للمرابطة والحراس بالخطر الوشيك^(٣) .

وليس لدينا من النصوص التاريخية ما يشير الى قيامه بترميم تحصينات صيدا بوجه خاص ، ولكننا نفهم ضمناً أن صيدا كانت من بين المدن الساحلية التي حظيت باهتمامه ، فقد كانت على الأقل من أهم ثغور دمشق ، على أن البلاذري عندما يعدد اسماء المدن التي ربما معاوية لا يذكر صيدا من بينها ، وإنما يذكر مدينتين رئيسيتين هما عكا وصور^(٤) اهتم بترميم قلاعها قبيل ركوبه البحر غازياً الى قبرص . ولعل إغفاله لذكر صيدا يرجع الى أنها لم تكن على مستوى مدينتي عكا وصور من حيث الأهمية الدفاعية ومن حيث الاتساع العمراني ، وإن كان يعمم نزول جند العرب في جميع سواحل الشام .

(١) البلاذري ، نفس المصدر ، ص ١٠٥٢ .

(٢) Cheira, la lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandria, 1947, p 85

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، ص ٦٤ .

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠ .

ونستخلص من كل ما سبق أن صيدا - شأنها في ذلك شأن غيرها من مدن الساحل الفينيقي القديم - لقيت اهتماماً خاصاً من الخليفتين الراشدين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان بترميم قلاعها وإبراجها ، وأن ذلك تم بنظر معاوية وهو بعد عامل على الشام . ولا ينبغي أن ننسى أن صيدا بالذات تعرضت للتخريب والتدمير في كثير من مراحل تاريخها القديم ، وأنها ظلت بدون أسوار تحميها فترة طويلة من الزمن منذ أن أحرقها أهلها في سنة ٣٤٦ ق.م . أما صور فقد تركها الاسكندر الأكبر في سنة ٣٣٢ ق.م اطلائاً دارسة بعد أن خرب بليانها ودمر تحصيناتها . ثم إن الصراع طويل الأمد الذي نشب بين خلفائه في مصر وسورية من أجل التنافس في السيطرة على الساحل الفينيقي واستمر حتى قدوم الرومان في سنة ٦٤ ق.م ، وتعرض صيدا للغزو من قبل السلوقيين حيناً وبالطامة حيناً آخر لم يفسح المجال أمام ولايتها ليرموا ما خربته الحروب ويعيدوا بناء المدينة التعمسة التي نزلت في العصر الروماني من عداد المدن الكبرى إلى مصاف المدن الصغرى ، وفقدت أهميتها ، وذابت شخصيتها حتى الفتح العربي عندما ألحقت بكورة دمشق واصبحت من الثغور الهامة في العصر الاسلامي . ولا يمكننا أن نقبل بأي حال من الأحوال مزاعم بعض الباحثين الذين يجردون من العرب كل فضل في إعادة تحصينها ، ومن بينهم الأستاذ فيليب حتي الذي يؤكد أن حصونها لم تكن ثانية منذ استحالة المدينة إلى ركام من رماح في عهد ارتخششتا الثالث أوخوس حتى زمن الصليبيين^(١) ، وروبن فيدين الذي يذهب إلى القول بأن صيدا الفينيقية « في رقعة أرضها بنيت وأعيد بناؤها قرناً بعد قرن وتخربت مراراً ، ولكن درجات تخريبها ووسائل ذلك تغيرت عبر التاريخ ، فالأشوريون سووها بالأرض ، والفرس أحرقوها بالنار والعرب في حالتين أزالوا أسوارها »^(٢) . وليس لدينا ما نرد به على هذه الافتراءات

(١) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص ٦٤ .

(٢) Robin Fedden, Syria, London, 1954, p. 48

والأقوال الظالمة سوى أن نذكر نصاً كتابياً هاماً عثر عليه في صيدا يشير الى بناء برج بأمر من الوزير الأفضل شاهنشاه وزير الخليفة الفاطمي المستعلي بالله على يد الأمير سعد الدولة ابو منصور اشتكين الافضلي في سنة ٤٩١هـ^(١) (١٠٩٧ م) أي قبل وصول الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام بعام واحد ، او الرجوع الى نص المقدسي البشاري الذي يؤكد أنها مدينة حصينة على الساحل في زمنه^(٢) (ت ٣٨٧ هـ) ، او الى نص ورد في سفر نامه للرحالة الفارسي ناصر خسرو في النصف الأول من القرن الخامس الهجري أي قبل وصول الحملة الصليبية الأولى بنحو نصف قرن يذكر فيه أن لصيدا سور حجري محكم^(٣) ، او الى ما ذكره الجغرافي المغربي الإدريسي (ت ٥٦٠) الذي شاهد على صيدا سوراً من الحجارة^(٤) .

(ب) صيدا في العصرين الاموي والعباسي الاول :

دخلت صيدا منذ أن افتتحها المسلمون حتى نهاية عصر المماليك في نطاق إقليم دمشق ، واصبحت كورة من إقليم دمشق الذي كان يضم إقليم سنير وكورة جليل ويبروت وصيدا وبثنية حوران وجولان وظاهر البلقاء وجبرين ، الغور ، وكورة مأب وكورة جبال وكورة الشراة وبصرى عمان والجابية والقريتان والحولة والبقاع^(٥) ، كما أن ساحلها كان من بين

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe, t. 8, p. 40

(٢) المقدمي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة ليدن ، ١٩٠٦ ص ١٦٠ - Le Strange, Palestine under the Moslems, Beirut, 1065, p. 32 . وراجع ايضاً ما ذكره الدمشقي الذي كتب في سنة ١٣٠٠ م اذ يذكر أن مملكة دمشق كانت تضم تسعين إقليماً من بينها صيدا (الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، تحقيق مهران ، ليدن ١٩٢٨ ص ٢٠١)

(٣) ناصر خسرو علوي ، سفرنامه « النص الفارسي » طبع برلين ١٣٤٠ هـ ، ص ٢٠ .

(٤) Idrisi, Palaestina and Syria. p. 15

(٥) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩٦ ص ١٠٥ - ابن الفقيه ، الحمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ ص ١٠٥

سواحل المدن الست التي تتبع دمشق وهي صيدا وبيروت وطرابلس وعرة وصور^(١). وذكر المقدسي من مدنها بانياس وصيدا وبيروت وطرابلس وعرة وناحية البقاع ومدينتها بعلبك^(٢).

نزل صيدا منذ الفتح جماعة من قريش ومن اليمن^(٣)، وهو أمر كان يحدث في معظم المدن التي افتتحها المسلمون عندما كانت تختلط فيها القبائل العربية التي أسهمت في الفتح. أما البلديون من أهل صيدا القدامى فقد حرص معاوية على إجلائهم عن المدينة إلى مواضع أخرى عيّن لها، على أن يحل محلهم قوم من الفرس استقدمهم معاوية من فارس، وفي ذلك يقول اليعقوبي: «إن جبيل وصيدا وبيروت وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان»^(٤). والظاهر أن صيدا لم تكن وحدها التي طبق فيها هذا التبديل السكاني، لأن البلاذري يشير إلى حركة تبديل سكاني أخرى حدثت وهو خليفة، إذ نقل «قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها سنة اثنتين وأربعين، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة، فكان من قواد الفرس مسلم بن عبدالله، جد عبدالله بن حبيب بن النعمان ابن مسلم الانطاكي»^(٥). ولستنتج من هذا النص أن بعلبك وحمص استوطنتهما قبل سنة ٤٢ هـ أقوام من الفرس. والظاهر أيضاً أن معاوية حذا في سياسته السكانية، إذ أحل عناصر فارسية وعراقية محل عناصر وطنية، حذو

(١) اليعقوبي، كتاب البلدان ص ١٠٥

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٤

(٣) اليعقوبي، كتاب البلدان ص ٣٢٧ - Marmardji, Textes géographiques arabes sur la Palestine, Paris 1951, p. 125

(٤) اليعقوبي، ص ٣٢٧ - Marmardji, op. cit. p. 125 - صلاح الدين النجد، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين، بيروت، ١٩٦٧، ص ٣٢٧

(٥) البلاذري، ج ١، ص ١٣٩

أسرحدون الآشوري عندما افتتح صيدا بالسيف في سنة ٦٧٨ ق. م ودمر منازلها ، ونقل قسماً كبيراً من أهلها الى بلاده ، وأحل محلهم قوماً من الفرس استقدمهم من شرقي الامبراطورية الآشورية^(١) . ولعل معاوية كان يهدف من وراء هذه الحركة إلى تيسيع الشعور القومي عند سكان هذه السواحل الموالين للبيزنطيين حتى لا ينتقضوا مجدداً على المسلمين كما حدث في الاسكندرية في سنة ٢٥ هـ^(٢) (٦٤٥ م) ، وكما حدث في طرابلس في أول خلافة معاوية^(٣) . مما اضطره الى اصطناع سياسته السكانية التي أشرنا إليها ، أو لعله كان يسعى الى تمكين الدفاع البري عن السواحل أو لحراسة هذه السواحل من غزوات المردة الذين دفعهم أباطرة بيزنطة على غزو إقليم البقاع والتنغيص على المسلمين في بلاد الشام ، ولهذا السبب استقدم جماعات الفرس والأساورة المذكورة وأنزلهم في السواحل ، ومنهم الأمراء الارسلانيون والتنوخيون الذين حكموا بيروت والساحل^(٤) ، وإن كان هناك من ينسب أعيان التنوخيين والأرسلانيين^(٥) الى النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمي ، ويرجعون تاريخ قدومهم من العراق في صحبة خالد بن الوليد الى سنة ١٣ هـ التي قدم فيها الى بصرى لنجدة أبي عبيدة بن الجراح^(٦) . وقد

(١) Frederiek p. 81 - بحيب ميخائيل ، ص ١١٥ - يوسف مزهر ، ج ١ ص ٥٠

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٦٣

(٣) طرابلس الشام ص ٣٧

(٤) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٤١

(٥) ينسب التنوخيون الى تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مدحج بن سعد بن طي ابن تميم بن النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، والارسلانيون الى أرسلان بن مالك بن بركات ابن المنذر التنوخي بن مسعود بن عون بن المنذر المغرور آخر ملوك الحيرة (الشدياق ، أخبار الاعيان في جبل لبنان ، بيروت ١٩٥٤ ج ١ ص ١٣٣) وقد أسهم التنوخيون والارسلانيون ومن قدم معهم من الجذاميين واللخمين في المعارك التي خاضها العرب في الشام ، واشتركوا في فتح دمشق سنة ١٤ هـ (٦٣٥) وفي فتوح قيسارية ومصر (الشدياق ،

ج ١ ص ١٤١)

(٦) الشدياق ، ج ١ ص ١٤٠ ، ٢٦٦ - محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة من القرن الثالث

حتى القرن الرابع عشر الهجري ، دمشق ١٩٥٩ ، ج ١ ص ١٥٤

يكون هدف معاوية من إنزال هؤلاء الفرس على السواحل مجرد الرغبة في إعادة تعمير هذه السواحل بسكان جدد بعد ان جلا عنها سكانها الأصليون عقب هزائم البيزنطيين في الشام ، فأقطعهم الأخاند التي خلت من سكانها ، او مجرد التشجيع على انتقال المسلمين الى السواحل من كل ناحية بهدف الرباط ومدافعة البيزنطيين .

وليس هناك في المصادر العربية ما يؤكد أن معاوية اقام داراً لصناعة الاسطول في صيدا^(١) ، على الرغم من أن صيدا كانت لها دار صناعتها البحرية في العصر القديم . وتشير النصوص العربية الى أن معاوية عندما اضطر الى اصطناع سياسة بحرية بحارة للبيزنطيين عمل على إنشاء اسطول في دار الصناعة بعكا^(٢) ، وهي دار صناعة قديمة كانت قائمة منذ العصر السابق على الفتوحات العربية الاسلامية . ولا نشك في أنه استعان بلاحين من اهل صيدا وصور^(٣) في تسيير السفن الاسلامية لسابق خبرتهم ودربتهم في ممارسة البحر ، ولم تكن صناعة عكا وحدها كافية لانتاج اسطول بحري يناهض القوى البحرية البيزنطية التي كان لها التفوق حتى ذلك الحين على المسلمين ، ولذلك نراه يرسل اخشاب الأرز من لبنان في السفن الى الاسكندرية لتصنيعها هناك سفناً . وظلت دار الصناعة في عكا المركز الوحيد في الشام لصناعة السفن الى أن نقلها الخليفة هشام بن عبد الملك الى صور ، واتخذ بصور فندقاً ومستغلاً^(٤) . ونخرج من ذلك بأن صيدا لم تكن دار صناعة في العصر الأموي ، وإن كنا لا نستبعد قيامها بإنشاء سفن صغيرة وزوارق للصيد .

وعلى الرغم من ان ذكر صيدا لم يرد كثيراً خلال احداث تاريخ الدولة

(١) ذكر السيد منير خوري أنه ابتنى أسطولاً في صيدا وصور ، وهو قول لا يستند على أي سند أو دليل تاريخي .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠ - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عكا .

(٣) غالب الترك ، ص ٩١ .

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠ .

الأموية الا انه يمكننا ان نستنتج من بعض الأخبار الثانوية التي وردت صدفة في المصادر العربية ان صيدا ازدهرت في العصر الأموي ، وكانت مركزاً علمياً هاماً في بلاد الشام ، فقد نسب اليها الفقيه العالم المحدث هشام بن الغاز بن ربيعة الجرشي الصيداوي المتوفي سنة ١٥٦ هـ (٧٧٢ م) وقد روي عن مكحول ونافع وابن المبارك ووكيعة^(١) ، والعالم المطران بولس الأنطاكي الذي توفي في صيدا في سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م)^(٢) . ونستدل ايضاً من نقش كتابي اثري كشف عنه في صيدا ان الخليفة الأموي مروان بن محمد امر بإصلاح ميناء صيدا وترميمه في سنة ١٣٢ هـ ، وان ذلك تم على يدي زياد بن ابي الورد^(٣) . وهذا النص له اهميته الخاصة لأنه يشير الى ان ميناء صيدا اصبح محل اهتمام الخلفاء باعتباره قاعدة بحرية هامة للسفن التجارية والغزوانية على السواء . وقد ازداد اهتمام الخلفاء العباسيين بسواحل الشام : فقد اهتم ابو جعفر المنصور بتحصين سواحل الشام كلها بالحصون والمراقب وترميم ما يحتاج منها الى المرمية ، واتم المهدي مالم يستكمل في ايام المنصور منها وزاد في شحنها بالجند^(٤) . وفي سنة ٢٤٧ هـ (٨٦٢ م) امر المتوكل على الله بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل^(٥) وشحنها بالمقاتلة ومن جعلتها صيدا بطبيعة الحال ، وذلك كإجراء وقائي بعد الغارات البحرية المدمرة التي وجهها البيزنطيون على دمياط في سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) عندما هاجمها اسطول من ٣٠٠ من الشلنديات في غيبة واليهما بالفسطاط ، فدخلوا المدينة ونهبوها ، وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها ، واحرقوا جامع دمياط وعدة كنائس^(٦) . ومنذ هذه الغارة ازداد اهتمام المتوكل بأمر الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر^(٧) .

- (١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة صيدا ، ص ٤٣٨ . (٢) منير الخوري ، ص ١٣٥ .
(٣) Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe, t. I, p. 211 .
(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٣ . (٥) نفس المصدر ، ص ١٤٠ .
(٦) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، حوادث سنة ٢٣٨ - الشيال ، المجلد في تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩ ، ص ١٠ - السيد عبد العزيز سالم وبختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٨٧ .
(٧) المقرئ ، الخطط القرطبية ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ١ ص ٣٧٨ .

ويبدو ان الدولة العباسية كانت تسند ولاية صيدا الى افراد من البيت الأرسلائي او التنوخي امراء الغرب استمراراً للسياسة التي جرى عليها الأمويون ، ففي سنة ٢٥٧هـ (٨٧١ م) تولى الأمير النعمان بن عامر الأرسلائي الذي يرتفع نسبه الى المنذر بن النعمان من ملوك الحيرة مدينة بيروت بالإضافة الى صيدا وجبلها بأمر أماجور التركي عامل دمشق واعمالها من قبل الخليفة العباسي^(١) المعتمد على الله ، ولقبه أماجور بأمر الدولة . وظل الأمير النعمان يتولاها الى ان توفي أماجور في سنة ٢٦٤هـ (٨٧٩ م) ، فآلت الى احمد بن طولون والي مصر . والظاهر أن ابن طولون اقر الأمير النعمان على صيدا وبيروت لما اشتهر به من شجاعة وكياسة وفصاحة وعلم حتى وفاته في ٣٢٥هـ (٩٣٦ م) فخلفه عليها ابنه الأمير المنذر^(٢) .

(ج) صيدا في العصرين الطولوني والاختشيدي :

خضعت صيدا ومدن الساحل للطولونيين بحكم تبعيتها لدمشق ، ومن المعروف أن ابن طولون اهتم بتحسين المدن الساحلية ، وتشير المصادر العربية الى أنه حوط عكا بسور منيع وشد مينائها سلسلة لمنع السفن من اجتيازه^(٣) على مثال السلسلة التي اشتهرت بها المهدي^(٤) وصور^(٥) ، والسلسلة التي اقامها صلاح الدين خليل بن عرام والي الاسكندرية في سنة ٧٧١هـ (١٣٦٩ م) بعد غزوة القبارصة^(٦) .

(١) الشدياق ، أخبار الاعيان ، ج ٢ ص ٢٨٣ - داود خليل كنعان ، بيروت في التاريخ ،

ج ١ ، بيروت ١٩٦٣ ص ٢١

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٨٦

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عكا

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ، المغرب الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٦

ص ٦٠٦

(٥) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٧٤

(٦) تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٣٧٦

وفي متحف بيروت قطعة من الحجر نقش عليها بالخط الكوفي نص تاريخي مؤرخ سنة ٢٨٤ هـ يسجل إنشاء بناء لم نستطع تحديد نوعه بسبب الفراغات غير المقروءة في النص ، ونطالع في النص المذكور ما يلي : (أمير المؤمنين اطال الله بقاءه ... كيم الله و... لا... بناء وانفقه ... سنة اربع وثمانين ومائتين ... وأر ...) . وفي متحف بيروت ايضا نقشان كتابيان على قطعتين من الحجر من مدينة صيدا يرجع تاريخها الى عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله^(١) (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) ، ولكن ما تبقى عليها من الكلمات لا يدل على عمل إنشائي بصيدا . ومن الملاحظ أن اسم الأمير الطولوني ابو العساكر جيش لم يذكر في النقش الكتابي الأول ، كما أن اسم الأمير الطولوني هارون بن خمارويه لم يذكر في النصين الآخرين ، ويرجع السبب في ذلك الى خروج الشام عليها .

ثم اصبحت بلاد الشام الجنوبية بما فيها دمشق وبعلبك ومدين الساحل : صور وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة للبيت التركي الإخشيدي في مصر^(٢) بعد أن حصل محمد بن طنج بن جف الإخشيد على تقليد من الخليفة المتقي بالله في سنة ٣٣٣ هـ بولاية مصر والشام وتوريث إمارتها لأبنائه من بعده^(٣) ، واستقر الوضع على هذا النحو في عصر الأسرة الإخشيدية ، على الرغم من المشاكل التي أثارها الحمدانيون ، والتي اقتضت من الإخشيديين أن يدفعوا لهم جزية سنوية^(٤) .

وقد ازدهرت صيدا في هذا العصر في المجال العلمي والأدبي ، فظهر من علماءها أبو طاهر بن ذكوان البعلبكي المؤدب نزيل صيدا ومحدثها

(١) Répertoire Chronologique d'Épigraphie arabe, t. II , p. 270, 271

(٢) Grousset, Histoire des Croisades, Paris 1934, t. I, p. VIII.

(٣) محمد جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١١ .

(٤) أبوالمحسن بن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب

المصرية ، القاهرة ١٩٣٨ ج ٣ ص ٢٧٨ ، ٢٨٢ .

(ت ٣٦٠ هـ) ^(١) ، والحافظ الصيداوي أبو الحسن محمد بن أحمد بن يحيى ابن جميع الغساني (٣٠٥ - ٤٠٦ هـ / ٩١٧ - ١٠١١ م) وكان قد رحل في طلب الحديث إلى مصر والعراق والجزيرة وفارس ، وسمع فأكثر السماع ، وجمع لنفسه معجماً لشيوخه سماه المسند ^(٢) ، وأبو نصر علي بن الحسين ابن أحمد بن أبي سلمة الوراق الصيداوي ، وعبد الغني بن سعيد الحافظ ، وقد روى عن ابن جميع ^(٣) ، وأبو عبدالله المحسن بن علي بن كوجك من أهل الأدب (ت فيما يقرب من ٣٩٤ هـ) ، الذي أملى بصيدا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه ، وكان يعقد الاجتماعات في محرس « غرق » بصيدا ويجلس في قبة نقشت عليها أشعار وأسماء من يحضر جلسته من أصحابه ^(٤) .

ولم تزودنا المصادر العربية بأي مادة تعيننا على تصور الحالة الاقتصادية والعمرانية في صيدا في هذه المرحلة من تاريخها الإسلامي ، ولكننا نستنتج من وصف المقدسي البشاري (ت ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م) أنها كانت مدينة عامرة حصينة ^(٥) وان لم تكن تصل في الحصانة والمنعة إلى ما وصلت إليه مدينة صور التي وصفها ابن حوقل بقوله أنها من « أحصن الحصون التي على شط البحر عامرة خصبة » ^(٦) ، كما نستنتج مما أورده المقدسي عن اقتصاديات صور التي كانت تشترك مع صيدا في الإنتاج الزراعي والصناعي بحكم التاريخ المشترك وبحكم الجوار إلى حد أن اسمها اقتزن كثيراً باسم صيدا ، أن الصناعات التي عددها المقدسي كانت لها نظائر في صيدا ،

(١) الذهبي ، المعبر في خبر من غير ، تحقيق الاستاذ فؤاد سيد ، الكويت ١٩٦١ ج ٢ ص ٣١٨

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة صيداء ص ٤٣٧ محمد مرتضى الزبيدي ، تاج

العروس ، ج ٢ ص ٤٠٣

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٣٨

(٤) ياقوت ، معجم الادباء ، طبعة دار المأمون ، ج ١٧ ص ٩٠

(٥) المقدسي ، ص ١٦٠ - Marmardji , op. cit. p. 125

(٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ، ص ١٦٠ ، ويشير المقدسي إلى أنها « مدينة حصينة على البحر بل فيه ، يدخل إليها من باب واحد على جسر واحد ، قد أحاط البحر بها ، ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض تدخل فيه المراكب كل ليلة ، ثم تجر السلسلة »

كالسكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات^(١) . أما السكر فلأن ناصر خسرو الذي زار صيدا في سنة ١٠٤٧ م يؤكد توافر قصب السكر بها^(٢) ، وأما الزجاج فلأن صناعته من التقاليد الشعبية المحلية التي ارتبطت باسم صيدا في التاريخ القديم والوسيط .

(٢)

العصر الفاطمي : أزهى عصور صيدا الإسلامية

(أ) موقف صيدا من الاحداث السياسية في الشام بعد الفتح الفاطمي :

لم يمض عام واحد على دخول القائد جوهر مصر فاتحاً حتى سير حملة الى بلاد الشام في اواخر سنة ٣٥٩ هـ بقيادة القائد البربري جعفر بن فلاح الكتامي لانتزاعها من سلطان الخلافة العباسية ، وتأمين حدود مصر من ناحية الشام . وتمكن جعفر بن فلاح من الاستيلاء على دمشق ودخولها في المحرم سنة ٣٦٠ هـ (٩٦٨ م) بعد موقعتين حاسمتين : الأولى في الرملة ، والثانية في طبرية ، تغلب في الأولى على الحسن بن عبد الله بن طنج^(٣) وأسرهم وبعض قواده وسيرهم الى المعز الفاطمي بأفريقية^(٤) ، وفي الثانية على فائق غلام^(٥) . وقد أقر جعفر بعد دخوله دمشق على إقليم الغرب بما فيه طرابلس وبيروت وصيدا الأمير سيف الدولة المنذر ابن أمير الدولة النعمان بن عامر التنوخي الذي قدم ولاءه للفاطمين^(٦) .

(١) المقدسي ، ص ١٨٠

(٢) ناصر خسرو ، ص ٢٠ - Le Strange, op. cit. p. 3/46

(٣) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ص ٩١

(٥) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي ، ص ١٨

(٦) الشدياق ، أخبار الاعيان ، ج ٢ ص ٢٨٦

ولكن سيف الدولة المنذر لم يطل به العهد أميراً على صيدا من قبل الفاطميين ، إذ لم يلبث أن توفي في سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٠ م) بعد عامين فقط من توليه الإمارة ، فخلفه ابنه تميم الملقب بعمز الدولة .

وكان أهل دمشق قد ثاروا على عسكر جعفر بن فلاح لمبشهم بالنظام وانتهاكهم حرمة بيوتهم بالإضافة الى مشاعر الكرامية التي كان يحفظها لهم أهل دمشق باعتبارهم سنيين ، ثم تمكن أبو محمد بن عصودا وظالم بن موهوب العقيلي والى حوران من قبل الإخشيديين من الفرار من دمشق ومضيا الى القرامطة في الأحساء يدعونهم لنصرتهم^(١) . ولم يتردد القرامطة في إجابتهما خاصة وقد انقطعت الإتاوة التي كان يدفعها الإخشيديون لهم ، وبأدر زعيم القرامطة بالاتصال بعمز الدولة بختيار طالبا منه المساعدة بالمال والسلاح ، فأجابته الى طلبه ، ومضى الى دمشق في حشد كبير من القرامطة ، وتضامن أهل دمشق مع بني عقيل وبني طيء والقرامطة ضد الفاطميين ، ونجح المتحالفون في إيقاع الهزيمة بهم في وقعة الدكة التي لقي فيها جعفر بن فلاح مصرعه^(٢) ، وتولى على دمشق ظالم بن موهوب^(٣) . ثم زحف القرامطة الى الرملة . فاستولوا عليها ، كما استولوا على المناطق الواقعة بينها وبين دمشق^(٤) ، وبعد ان حقق ابو محمد الحسن القرمطي ما حققه من انتصارات عاد الى بلاد هجر . وعلى الرغم من انحسار نفوذ الفاطميين عن الشام نتيجة للهزيمة التي اوقعها القرامطة بهم فقد ظلت صيدا على ولائها للفاطميين لانعزالها عن مدن الداخل ، وكان يتولاها وقتئذ من قبل المعز الفاطمي وال يقال له ابو الفتح بن

(١) المقرئزي ، اعطاء الحنفيا بذكر الائمة الفاطميين الخلفاء ، ج ١ نشر الدكتور الشيال ،

١٩٤٨ ص ١٧٦

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٧٤

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٥٨

(٤) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦١٥

الشيخ لعله من سلالة عيسى بن شيخ الربيعي^(١) ، ثم تمكن الجيش الفاطمي بقيادة ابي محمود بن ابراهيم بن جعفر بن فلاح من استرجاع دمشق واعمالها في سنة ٣٦٣ هـ واقام عليها القائد ظالم بن موهوب العقيلي والياً^(٢) .

ثم تغير الموقف في الشام بعد ظهور ابي منصور التركي المعروف بأفتكين^(٣) على مسرح الاحداث في سنة ٣٦٤ هـ ، فاستولى على دمشق بفضل ما بذله أهلها له من عون ، وذلك في سنة ٣٦٤ هـ ، وأعاد الدعوة العباسية الى دمشق ، ولم يكتف أفتكين بذلك بل عزم على أن يبسط نفوذه على سهل البقاع ومدن الساحل ، فزحف نحو بعلبك لمحاربة ظالم ابن موهوب ، ونجح في إنزال الهزيمة به ، وفر ظالم واختبأ عند الأمين تميم بن المنذر بن النعمان الارسلاني ، وكتب الى المعز يخبره بحيلة الأمر ، فأمره المعز بالإقامة في صيدا^(٤) التي كانت ما تزال تابعة للفاطميين ، أما

(١) لعله يتنسب الى عيسى بن شيخ بن الشليل الربيعي عامل فلسطين من قبل الخليفة العباسي المستعين ، ثم خرج على المعتز وحاربه أماجور التركي عامل دمشق ، فهزمه أماجور ، فانتقل ابن شيخ الى صور في سنة ٢٥٥ هـ ، ثم تغلب ابن شيخ على فلسطين ، واضطر الخليفة المعتمد العباسي الى الصلح عما سلف منه وولاه أرميلية في سنة ٢٥٧ هـ . بعد أن سلم ما بيده في فلسطين الى أماجور التركي (اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة صادر ج ٢ ص ٥٠٠ - ٥٠٨) .

(٢) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦٤٠ .

(٣) هو أفتكين او هفتكين او الفتكين ابو منصور التركي المزمي (ت ٣٦٨ هـ) وكان غلاماً لمع الدولة الحمداني بن بويه وترقى في الخدمة حتى غلب على بغداد عند عز الدولة بختيار بن معز الدولة ، ثم خرج من بغداد قاصداً الشام مع فرقة من جنده عدتها ٣٠٠ فارس عقب انهزامه في معركة وقعت بين الاتراك والديلم ، وأمدده سعد الدولة ابو المعالي بن سيف الدولة الحمداني صاحب حلب بفرقة من العسكر ، وعزم على دخول دمشق ، فاضطر ظالم بن موهوب الى الخروج الى بعلبك لمصادمته ومنعه من التقدم . وفي هذه الاثناء شغل عسكر دمشق الفاطميون بلقاء البيزنطيين الذين قدموا الى طرابلس ، فتمكن أفتكين من دخول دمشق من غير حرب في شعبان سنة ٣٦٤ هـ (المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ٤١٣ - جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي ، ص ٣٨ - ٤٠) .

(٤) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٨٧ .

أفتكين فتمكن من دخول بعلبك . وحدث أن استغل الامبراطور البيزنطي حنا تزيمنسكس (ابن الشمشيق) فرصة النزاع القائم في الشام بين الفاطميين وبين الاتراك والقرامطة للشروع في غزوة صليبية واسعة النطاق ضد المسلمين في الشام هدفها فتح بيت المقدس ، فخرج في ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) الى الثغور فاستولى على أكثرها ، ثم زحف من انطاكية الى حمص فافتتحها ثم استولى على بعلبك وانتهبها ، وانتشر جيشه في إقليم البقاع ينهب ويأسر ويحرق ، واتجه بعد ذلك الى دمشق ، فاضطر أفتكين الى الدخول في طاعته وأعلن له الولاء ، وجي من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار قهراً حملها الى الامبراطور البيزنطي^(١) ، وتمهد له بدفع مائة ألف درهم . ولكن تزيمنسكس - وقد أعجبه منه إخلاصه وولاءه - أعفاه من هذا المال^(٢) . وزحف الامبراطور البيزنطي الى الجنوب ماراً بطبرية حيث قدم إليه أهلها الهدايا ومبلغاً من المال ، ثم مضى الى الناصرة فبيسان فعكا وقيسارية ، ثم ارتد منها الى الشمال نحو بيروت بعد ان عدل عن التوجه الى بيت المقدس لسبب لا نعرفه ، وعاد فأنحدر جنوباً الى صيدا^(٣) . وقد أتاح تزيمنسكس بهذه التحركات الفرصة لأفتكين في دمشق لكي يقيم بها الدعوة للخليفة العباسي الطائع أبي عبد الكريم بن المطيع . أما تزيمنسكس فقد بدأ بنزلة صيدا ومحاصرتها ، فخرج إليه أبو الفتح بن الشيخ في وفد من شيوخ البلد لطلب الصلح ، فهاداه ابن الشيخ وهادنه على مال ، ويعبر ابن القلانسي عن ذلك بقوله : « وسار ابن الشمشيق على طريق الساحل فنزل على صيدا ، وخرج إليه أبو الفتح بن الشيخ ، وكانت رجلاً جليل

(١) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ١٣٤

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ص ١٢

(٣) ذكر تزيمنسكس في رسالته التي اوردتها المؤرخ الارمني متى الرهوي الى الملك أشوط الثالث ملك أرمينية أنه ... أي تزيمنسكس - رحل بعد صيدا الى جبيل وطرابلس وجبة وبلنيس وصهيون وبرزويه (راجع : عمر كمال توفيق ، مقدمات المدبران الصليبي على الشرق العربي : الامبراطور حنا تزيمنسكس وسياسته الشرقية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ، ملحق ١ ص ١٨٣) .

القدر ، ومعه شيوخ البلد ولقوه ، وقرروا معه أمرهم على مال أعطوه إياه ، وهديت حملوها إليه ، وانصرف عنهم على سلم وموادعة وانتقل إلى ثغر بيروت ^(١) . وورد في كتاب حنا تزييسكس إلى آشوط الثالث ملك أرمينية السبب الذي دعاه إلى موادعة أهل صيدا فيقول : « إن هؤلاء الشيوخ أقبلوا متوسلين لجلالتنا وملتجئين أن يصيروا رعايانا وعبيدنا الخاضعين على الدوام ، وإزاء هذه التأكيدات ارتضينا الاستجابة لرجائهم وتحقيق رغباتهم ، وحثنا عليهم دفع جزية ، وفرضنا عليهم حكماً » ^(٢) .

(ب) صيدا بين شقي رحى :

بعد أن تمكن أفتكين من السيطرة على دمشق ، وأقام بها الدعوة للخليفة العباسي الطائع بن المطيع العباسي خاف أن يدخل في حرب سافرة مع الفاطميين في مصر ، إذ لم تكن لديه طاقة بمحاربتهم ، دون أن يعتمد على قوة تنصره ودعم يقويه ويحقق أغراضه ومراميه . فكتب القرامطة في الاحساء يستدعيهم لنجدته والانضمام إليه عند قيامه بمحاربة عسكر المعز ، فاستجاب له القرامطة ، ووافاه منهم اسحق وكسرى وجعفر ^(٣) من كبار قادتهم ، فنزلوا على ظاهر دمشق ، ووافى معهم عدد كبير من المعجم ، وطائفة من أنصار أفتكين كانوا قد تشرّدوا في البلاد وتشتتوا فتقوى بهم ، وأكرمهم ، وأحسن وفادتهم . فأقاموا بدمشق أياماً ، ثم زحفوا نحو الرملة حيث كانت تمسك قوات أبي محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح أمير دمشق السابق ، ولكن أبا محمود عجل بالانسحاب

(١) ابن القلائسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤ - محمد جمال الدين سرور ، دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٣١ - عمر كمال ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ - طرابلس الشام ، ص ٥٦ ، ٥٥ .

(٢) Grousset, H. des croisades, t. I, p. XIX - عمر كمال ، المدوان الصليبي ، ملحق رقم ١ ص ١٨٣ .

(٣) ابن القلائسي ، ص ١٥ .

الى يافا ، وتحصن في اسوارها عندما بلغه نبأ مسيرهم نحوه وقصدهم لمحاربته . وعلى اثر ذلك نزلت قوات القرامطة في الرملة ، وتأهبوا لمقاتلة الفاطميين المتحصنين في يافا^(١) . وعندئذ واثت افتكين الفرصة لتحقيق هدفه في السيطرة على مدن الساحل وفي مقدمتها مدينة صيدا ، وذلك بعد أن أمن على نفسه من ناحية مصر ، بسبب وفاة الخليفة المعز واستخلاف ولده العزيز بالله من بعده ، ومن ناحية الرملة بسبب جلاء قوات الفاطميين عنها والسحابهم الى يافا . فخرج في حشد من أتباعه ومن انضم اليه ونزل على صيدا ، وكان يتولاهم وقتئذ « ابن الشيخ »^(٢) ومعه رؤوس من المغاربة وفيهم ظالم بن موهوب العقيلي الذي كان قد صرف من ولاية دمشق بعد انهزامه على ايدي القرامطة في سنة ٣٦٣ هـ ، فخرج اليه (أي الى افتكين) الوالي ابن الشيخ وحامية صيدا ، وكان عسكرها يفوقون عسكر افتكين من حيث الكثرة العددية ، فطمعوا في التغلب على افتكين وقواته ، فتظاهر افتكين بالانهزام ، واستدريجهم لمطاردته حتى نزل على نهر ، وخرجت جوع كثيفة من أهل صيدا وراء حامية المدينة ، فأمر افتكين قواته الأتراك بالتخاذ طريق بانياس ، فقتلهم أهل صيدا والحامية الفاطمية ، وعندئذ كر عليهم الأتراك ، وأقبلوا عليهم بالتلوت^(٣) « وداسوم بالخيول عليها التجافيف »^(٤) ، فانهمزم أهل صيدا والحامية الفاطمية ، وأخذتهم سيوف الأتراك ففتكت بهم ، وفر ظالم بن

(١) ابن القلاسي ، ص ١٥ - المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤١٣

(٢) نفس المصدر .

(٣) اللتوت أي الدبابيس أو الاعددة ذات الرؤوس المستطيلة المضرة (عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، ص ٦٥) .

(٤) ابن القلاسي ، ص ١٥ - المقرئزي ، المصدر السابق . والتجافيف مفردتها تجفاف وهي كسوات من النسيج مشوة تبطن بها جواشن الفرسان والخيول (Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, t. I, Beirut, 1908, p. 200) ار دروع توضع على اجسام الخيل (عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ ، صفحة ٦٧) .

موهوب الى الأمير تميم وقيل الى بلدة صور^(١) ، واحصي عدد القتلى من أهل صيدا وعسكر الفاطميين فبلغ اربعة آلاف قتيل^(٢) ، ثم أمر افتكين بقطع أيدي القتلى من عسكر الفاطميين وسيرها الى دمشق حيث طيف بها .

ثم ترك أفتكين صيدا ورحل الى عكا بقصد الاستيلاء عليها ، وأغار على طبرية وقتل من أهلها ونهب مثلما فعل في صيدا^(٣) . وعندئذ سير العزيز بالله القائد جوهر في عسكر كثيف لقتال افتكين والقرامطة ، فعندما بلغ القرامطة وهم في الرملة نبأ وصول جوهر ومسيره إلى أفتكين وهو يحاصر عكا ، انسحبوا من الرملة ، فنزلها جوهر . أما القرامطة فقد رحل معظمهم الى الأحساء بينما رفع افتكين الحصار وارتد الى طبرية حيث عسكر وأقام متأهباً للقاء جوهر ، واخذ في نفس الوقت يجمع الأقوات من بلاد حوران والثنية ويدخلها الى دمشق استعداداً لحصار طويل ، ثم ما لبث أن تراجع الى دمشق بعد أن زودها بجميع ما تحتاج اليه أثناء الحصار المرتقب ، وتحصن بها . فنزل جوهر على ظاهر دمشق في ٨ ذي القعدة سنة ٣٦٥ هـ ، ولم تلبث قوات جوهر أن اشتبكت مع قوات افتكين ، وجرت معارك امتدت نحو شهرين الى ١١ من ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ ، استنجد خلالها بالقرامطة ، وبدت له ملامح الهزيمة ، فهم بالفرار في الوقت الذي وردت اليه الأنباء بقدوم الحسن بن احمد القرمطي ، زعيم القرامطة ، الى دمشق . وبوصول القرامطة تبدل الوضع وانقلب رأساً على عقب ، وأصبح جوهر وقواته محصورين بين الأتراك والقرامطة ، فطلب الصلح على أساس أن يرسل من دمشق دون أن يقوم القرامطة بطاردته ، إذ أدرك صعوبة المواجهة بسبب قلة أمواله ، وهلاك عدد كبير من عسكره في المعارك التي خاضها ضد افتكين . فمضى جوهر الى طبرية ، ثم اضطر

(١) كان الأمير تميم الارسلاني موالياً للفاطميين في مصر .

(٢) ابن الغلاسي ، ص ١٥ - ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦٥٧ . ويذكر المقرئزي أن هذا العدد يشمل قتلى الفريقين (الخطط ، ج ٢ ص ٢١٣) .

(٣) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦٥٧ .

الى الرحيل عنها الى الرملة عندما بلغه قدوم القرامطة وأفتكين في أثره في خمسين الف فارس وراجل^(١)، ثم تراجع جوهر من الرملة الى عسقلان، حيث تحصن داخل اسوارها، وتبعته حشود القرامطة والأتراك وأحككت عليه الحصار. ولما قلت لديه الميرة وعدمت الأقوات واشتد عليه الأمر كتب الى أفتكين يفأوضه في الصلح وحقق الدماء واتفق معه على أن يرحل من هناك الى مصر، وفي نفس الوقت أبحر الأمير تميم الارسلاني متولي الغرب ومعه ظالم بن موهوب من بيروت الى مصر.

ورأى العزيز بالله بعد عودة جوهر أن يخرج بنفسه على رأس جيش ضخم لاستعادة النفوذ الفاطمي على الشام، فأعد جيشاً ضخماً زحف به إلى الشام، فنزل بظاهر الرملة، واشتبك مع أفتكين والقرامطة في معركة عنيفة وقعت في المحرم سنة ٣٦٧^(٢) (٩٧٧ م)، وانتهت بانتصار الفاطميين ووقوع أفتكين في أسرهم، واشترك في هذه الواقعة المشهورة الأمير تميم الارسلاني مع الجيوش الفاطمية وأبدى من الشجاعة وضروب البسالة والاقدام ما جعل العزيز بالله يكافأه بإسناد إمارة الغرب وبيروت وجبلها اليه^(٣)، وهكذا استعاد الفاطميون دمشق ومدنها الساحلية.

(ج) استقرار الاوضاع في صيدا في عصر العزيز بالله والحاكم بأمر الله :

أصبحت صيدا تابعة للخلافة الفاطمية في مصر، وتولاها من قبل الخليفة العزيز وال لم يرد اليها اسمه في المصادر العربية، ولكننا نرجح أن يكون من الأمراء الارسلانيين الذين اشتركوا مع العزيز بالله في إنزال الهزيمة بجيش أفتكين في موقعة الرملة، فقد ذكر الشيخ طنوس الشدياق

(١) ابن الاثير، ج ٨ ص ٦٥٨

(٢) ابن القلاسي، ص ١٩ - ابن الاثير، ج ٨ ص ٦٦٠ - المعري، الخطط، ج ٢

ص ٤١٤

(٣) الشدياق، ج ٢ ص ٢٨٨

أن الخليفة العزيز أعجب بشجاعته ، فلما عزم الخليفة على الإياب الى مصر منحه توقيعاً بإمارة الغرب وبيروت^(١) .

وحاول العزيز بالله منذ سنة ٣٧٣ هـ انتزاع حلب من صاحبها سعد الدولة الحمداني عن طريق بكجور التركي غلام سعيد الدولة في مقابل توليه إمارة دمشق ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل بسبب هزيمة بكجور ومصرعه في سنة ٣٨١ هـ . وفي عهد سعيد الدولة أبي الفضائل الذي خلف أباه سعد الدولة الحمداني في سنة ٣٨١ ، عاود الفاطميون محاولتهم فتح حلب ، فأسند الخليفة العزيز بالله ولاية الشام إلى منجوتكين التركي ، وأمره بمحاربة الحمدانيين^(٢) ، فكتب منجوتكين الى الامير تيم الأرسلافي يدعوه الى الانضمام إليه ، فتقاعس تيم عن نصرته ، في حين بادر الامير ناصر الدولة منصور بن الامير فخر الدولة درويش الارسلاني بالاشتراك مع إخوته في حملة منجوتكين ، فكافأه هذا الاخير بأن ولاه جبل الغرب وبيروت ، وأسند ولاية صيدا الى اخيه الامير مذحج ، وولاية صور الى ابن عمه الامير هارون^(٣) . فأتاب الامير منصور أخاه مذحجاً على ولاية الغرب وبيروت بالإضافة الى صيدا ، وهكذا آلت ولاية صيدا الى الامير مذحج الارسلاني في الفترة ما بين عامي ٣٨٣ ، ٣٨٦ هـ (٩٩٣ - ٩٩٦ م) . ثم أسندت ولاية صيدا من بعده الى الامير غالب بن مسعود بن المنذر الارسلاني من قبل منجوتكين^(٤) ، ويبدو انه لم يرض عنه بعد ذلك ، فصرفه عن ولايتها في العام التالي ، وأسندها الى أبي الفتح بن الشيخ والي صيدا السابق ، وذلك في سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) .

واتفق ان ثار أهالي صور في هذه السنة على الحاكم بأمر الله وولوا عليهم ملاحاً من البحريين يعرف بالعلاقة ، فوثب العلاقة ورفاقه على

(١) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٨٨

(٢) راجع التفاصيل في ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ١١٧ وما يليها .

(٣) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٨٨ - ابراهيم الاسود ، ذخائر لبنان ، ص ١٧٣

(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٢٨٩

الحامية الفاطمية في صور وقتلهم ، ثم استقل بالمدينة ، فندب برجوات الخادم القائد أبا عبدالله الحسين بن ناصر الدولة الحمداني ، وياقوت الخادم ، وطائفة من عبيد الشرا في جيش لمهاجمة صور من البر ، واستنزال الثوار ، وسيّر في البحر عشرين مركباً حربية مشحونة بالرجال والمعدن الى ثغر صيدا لمحاصرته بجزراً ، كما كتب الى علي بن حيدر والي طرابلس وابن شيخ والي صيدا بالمسير الى صور في أسطوليهما ، واحتشدت قوات كثيفة من قوى الفاطميين على باب صور ، وحاصرتها الاساطيل من البحر فاستنجد العلاقة بالامبراطور البيزنطي بسيل الثاني ، فأنفذ إليه بسيل أسطولاً مشحوناً بالمقاتلة ، واشتبك هذا الاسطول مع الاسطول الفاطمي في معركة بحرية عنيفة دارت في مياه صور ، وانتهت بهزيمة الاسطول البيزنطي ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على إحدى سفنه ، وقتلوا ملاحيهما وعدتهم ١٥٠ رجلاً ، وانهزمت سائر السفن البيزنطية . ثم افتتح الفاطميون المدينة عنوة ، وقبضوا على العلاقة وجماعة من انصاره ، فحملوا الى مصر ، حيث سلخ حياً ، وصلب ، وقتل أصحابه صبراً^(١) . ولستنتج من ذلك أن الأوضاع في صيدا استقرت تماماً منذ خلافة العزيز بالله بدليل أن واليهما لم يتردد في إطاعة الاوامر الصادرة إليه من دار الخلافة بالقاهرة ، بالاشتراك مع القوى الفاطمية البحرية والبرية في استنزال العلاقة ، كما لستنتج أن صيدا كان لها أسطولها الخاص ، بدليل اشتراكه في الحصار البحري الذي فرضه الفاطميون على صور .

وتصمت المصادر العربية عن إمدادنا بأي مادة تاريخية عن صيدا في الفترة الواقعة ما بين حركة العلاقة التي حدثت سنة ٣٨٧ هـ وقيام الحاكم بأمر الله بإقطاع صور وصيدا وبيروت للفتح القلمي^(٢) ، مولى مرتضى

(١) ابن القلاسي ، ص ٥٠ ، ٥١ - ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق الدكتور سامي الدمان ، دمشق ١٩٦٢ ج ٢ ص ١٦٤ ، ١٦٦ - طرابلس الشام ، ص ٥٩

(٢) ابن الاثير ، ج ٩ ص ٢٣٠ - صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ١٥

الدولة أبي نصر منصور بن لؤلؤ صاحب حلب عوضاً عن حلب في سنة ٤٠٥ هـ ، ونمى الى الاعتقاد بأن ابن شيخ ظل يتولى إمارتها في هذه المرحلة .

ثم اسند الفتح القلمي الذي لقبه الحاكم بأمر الله بلقب مبارك الدولة وسعدها ولاية صيدا وصور وبيروت في سنة ٤٠٦ هـ لمرتضى الدولة بعد أن أخرجه من حلب ، وسلمها لسيد الدولة أبي الحسن علي في رجب سنة ٤٠٦ هـ . وظل مرتضى الدولة يقوم بشؤون صيدا الى أن توفي في مصر في سنة ٤٠٨ هـ^(١) . غير ان ابن العديم الحلبي يذكر ان مرهف الدولة يحكم التركي كان والياً على صيدا في سنة ٤٠٧ هـ^(٢) ، الامر الذي يدعونا الى الاعتقاد بأن مرتضى الدولة لم يستمر في ولايتها اكثر من عام واحد ثم رحل الى مصر حيث توفي في سنة ٤٠٨ هـ .

(د) اضطراب الاحوال في صيدا من ٤١٥ الى ٥٠٤ هـ :

ظلت صيدا تنعم باستقرار نسبي فترة قصيرة الأمد استمرت حتى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) ، وفي هذه السنة اضطربت احوال الشام على أثر وفاة الحاكم بأمر الله (ت ٤١١ هـ) ، وقامت فيها الحركات الانفصالية في شمال البلاد وجنوبها ، وتآمر المنزّون لإزالة النفوذ الفاطمي كله من بلاد الشام : فبنو الجراح الطائيين بفلسطين ، الذين كانوا قد فقدوا سلطانهم على هذا الاقليم في سنة ٤٠٤ هـ حاولوا استرداد نفوذهم القديم في ظل زعيمهم حسان بن مفرج بن الجراح وذلك في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي ، وتمكنوا من الاستيلاء على الرملة وعلى اكثر فلسطين ، وبنو مرداس الكلبيين نجحوا في إمارة زعيمهم أسد الدولة صالح بن مرداس في التغلب على حلب في سنة ٤١٤ هـ وانتزعوها من واليها ابن

(١) ابن شداد ، المصدر السابق ، ج ٢ قسم ٢ ص ١٠١ ، ١٠٢
(٢) ابن العديم الحلبي ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، ج ١ دمشق ، ١٩٥١ ، ص ٢١٥

ثعبان الذي كان يتولاها من قبل الظاهر الفاطمي^(١). ثم عقد ابن مرداس في سنة ٤١٤ هـ اتفاقاً مع حسان بن الجراح ، وسان بن عليان أمير الكليبيين ، بمقتضاه يتضامن الحلفاء الثلاثة فيما بينهم ويتمسكوا لإخراج الفاطميين من الشام^(٢) ، واقتسامها فيما بينهم^(٣). وذكر ابن العديم الحلبي أن صالح استولى على حصص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار بناحية طرابلس في سنة ٤١٦ هـ^(٤) بالإضافة إلى الرحبة ومنبج وبالس ورفنية^(٥) ، وفي العام التالي توجه صالح إلى صيدا^(٦). وفي سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) استولى صالح بن مرداس وحسان بن الجراح على أعمال الشام ، وانتهيا إلى غزة ، فجهز الظاهر لحربها جيشاً بقيادة أمير الجيوش أوشتكين الدزبري التركي^(٧) ، فالتقى معها في معركة دارت بالأقحوانة قريباً من

(١) ابن الاثير ، ج ٩ ص ٢٣٠ - النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٢٤٨ - محمد جمال الدين مرور ، النفوذ الفاطمي ، ص ٤٤ - ٥٨ .

(٢) يحيى بن سعيد الانطاكي ، صلة كتاب سعيد بن بطريق ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٩ ، ج ٢ ص ٢٤٤ - ابن الاثير ، ج ٩ ص ٢٣٠ .

(٣) ابن القلاسي ، ص ٧٣ - النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٥) يحيى بن سعيد ، ص ٢٤٨ - ابن العديم ، ص ٢٣٠ .

(٦) ابن العديم ، ج ١ ص ٢٣٣ .

(٧) هو الامير المظفر امير الجيوش ابو منصور اوشتكين السزبري او الدزبري التركي ، ولد في بلاد ما وراء النهر في بلدة تحتل ، وسي منه وحمل إلى كاشغر ، ثم هرب إلى بخارى ، واشتراه احد الاعيان ، ثم حمل إلى بغداد ، ومنها نقل إلى دمشق في سنة ٤٠٠ هـ ، فاشتراه القائد تزر بن اونيم الديلمي . وندبه تزر لحماية املاكه والدفاع عنها ، فأدى عمله على خير وجه ، وعرف بصرامته ، وشاع ذكره ، وسئل مولاه ان يهديه إلى الخليفة الحاكم ، وقيل بل امر بحمله إلى الخليفة ، فحمل في جملة غلثائه في سنة ٤٠٣ هـ . ولكنه اصطدم مع الفغان الآخرين وقهرهم ، فأخرج من الحجرة في سنة ٤٠٥ هـ ولزم الخدمة ، فعطلي برضى الحاكم ، ففجده مع سيد الدولة الضيف في الحملة التي سيرها الحاكم إلى الشام في سنة ٤٠٦ هـ ودخل دمشق . ثم عاد إلى مصر ، ثم نصب والياً على بعلبك ، فذاع امره ، وصادق ولادة الاطراف ، واتصل بوالى حلب وهاداه ، ولقب بلقب منتخب الدولة ، ثم نقل إلى ولاية قيسارية ، ثم اسندت إليه ولاية فلسطين كلها في سنة ٤١٤ هـ ، واختاره الوزير الجرجاني ليقود حملة إلى الشام للقضاء على الفتن التي سببها انتزاع بني جراح وبني مرداس ، ولقب بالامير المظفر منتخب =

طبرية ، انهزم فيها عسكر المتحالفين واخذتهم السيوف ، ولقي صالح وابنه الأصغر مصرعها ، في حين اقلت نصر الابن الأكبر لصالح الى حلب ، بينما فر حسان بن المفرج بن الجراح الى الأراضي البيزنطية ، واسترد الفاطميون بعض المواقع مثل بعلبك وحمص وصيدا ورفنية وحصن ابن عكار^(١) ، ونزل الدزبري على دمشق^(٢) . أما جثة صالح فقد ارسلت الى صيدا حيث صلبت على بابها بينما سيق رأسه الى القاهرة^(٣) .

وظلت صيدا تابعة للفاطميين فترة طويلة دامت حتى سنة ٤٣٣ هـ التي توفي فيها أنوشتكين الدزبري ، فلما توفي فسد النظام في بلاد الشام ، واضطربت احوال البلاد ، وعاد العرب الى العيث في نواحيها بقصد استرجاع نفوذهم ، فظهر معز الدولة ثمال أخو شبل الدولة صالح ، وكان مقيماً في الرحبة منذ هزيمة اخيه ومقتله ، وحاصر حلب وتمكن من الاستيلاء عليها^(٤) ، كما ظهر حسان بن المفرج بن الجراح بفلسطين واعلن فيها الثورة على الفاطميين ، وظل معز الدولة ثمال المرداسي يحكم حلب حتى سنة ٤٤٣ هـ عندما سئم من مدافعة الفاطميين المرة بعد الأخرى ، فتنازل عنها في هذه السنة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وفي مقابل ذلك اقامه المستنصر والياً على بيروت وجبيل وعكا . أما صيدا فقد كانت بمنأى عن هذه الفتن ، وكانت تتبع إمارة دمشق التي تناوب الحكم فيها

= الدولة . ولما انتصر على صالح بن مرداس في الاقحوانة وهي الموقعة التي قتل فيها صالح وولده الأصغر نزل بدمشق . أما نصر بن صالح فقد نجح في السيطرة على حلب وتلقب بشبل الدولة ، وظل يحكم حلب حتى خلافة المستنصر . ثم زحف أنوشتكين على حلب في سنة ٤٢٩ والتقى بنصر بن صالح عند حماة ، فانهزم نصر وقتل ، وتقلد أنوشتكين ولاية حلب ، وظل يتولاها حتى توفي في سنة ٤٣٣ (ابن القلانسي ، ص ٧١ - ٧٩ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣١) .

(١) الباز العريبي ، الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٧٧٧ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٧٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٩ ص ٥٠٢ .

عدد كبير من الأمراء والقواد يصل الى ١٤ والياً من سنة ٤٣٣ هـ الى ٤٦٢ هـ لم تشهد خلالها البلاد أي نوع من الاستقرار ، وفي هذه المرحلة استجد النزاع بين الفاطميين وبين محمود بن نصر بن صالح المرداسي المعروف بابن الروقلىة الذي تملك حلب بعد أن انتصر على عسكر ناصر الدولة بن حمدان في موقعة الفنيدق في سنة ٤٥٢ هـ^(١) ، واستقل بنو عمار بطرابلس في سنة ٤٦٢ هـ^(٢) ، واستقل القاضي عين الدولة ابو الحسن محمد بن عبد الله بن ابي عقيل بصور في سنة ٤٦١ هـ^(٣) ، وابن حمدان بالرملة والساحل^(٤) . واضطربت الأحوال في دمشق منذ سنة ٤٥٥ هـ ، واستولى عليها القفي مختص بن ابي الحن اخو حيدرة بن منزو في سنة ٤٦٢ هـ ، وطرد نواب امير الجيوش بدر الجمالي واعلن استقلاله بها^(٥) .

وهكذا تقلص ظل الخلافة الفاطمية في الشام ، ولم يبق لأمير الجيوش بدر الجمالي الوفي للفاطميين^(٦) سوى عكا وصيدا^(٧) . أما صيدا فلم تسلم من هذه الفتن والاضطرابات ، حقيقي أنها ظلت وفية للدولة الفاطمية ، مرتبطة بولائها لها ، ولكن العواصف والأنواء لم تلبث أن عصفت بها وهزتها هزاً شديداً . وكان بدر الجمالي قد ارسل ثقله واهله الى صيدا

--

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ١٢ . وذكر ابن القلاسي انه تغلب عليها بعد محاولات ثلاث في سنة ٤٥٧ (ص ٩٣٧) .

(٢) ابن القلاسي ، ص ١١٢ طرابلس الشام ، ص ٦٦

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٨ ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٦٠

(٤) نفس المصدر ، ص ٩٦ ، حاشية ١

(٥) نفسه ، ص ٩٦ طرابلس الشام ، ص ٦٦

(٦) هو ابو البجم بدر الجمالي ، كان مملوكاً ارمينياً لجمال الدولة بن عمار ، فعرف لذلك بالجمالي ، واحذ يتنقل في الخدمة حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر في ١٣ ربيع الآخر سنة

٤٥٥ هـ ، ثم فر منها في ١٤ رجب سنة ٤٥٦ هـ ، ثم وليها ثانية في ٦ شعبان سنة ٤٥٨ هـ ، وخرج منها بعد ان بلغه مقتل ابنه في عسقلان في سنة ٤٦٠ هـ ، وتقلد ولاية عكا . (راجع

المقرزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٠٨) .

(٧) ابن القلاسي ، ص ٩٧

واستقر بها^(١)، وسعى الى انتزاع صور من قاضيه عين الدولة بن ابي عقيل المتغلب عليها، فسار في العساكر المصرية وحاصرها، وضايق اهلها وأضر بهم، فكتب القاضي ابن ابي عقيل « الأمير قزلو مقدم الأتراك بالشام مسترخياً له ومستنجداً به، فأجابه الى طلبه، واسعفه بأربه، وسار بعسكره منجداً له ومساعداً، ووصل الى ثغر صيدا، ونزل عليه في ستة آلاف فارس فحصره وضيق عليه وعلى من فيه، وكان في جملة ولاية أمير الجيوش المذكور^(٢)، ويبعدو أن قزلو كان يهدف من وراء حصاره لصيدا أن يرغم بدر الجمالي على رفع الحصار عن صور، ونجح في خطته؛ فعندما علم بدر الجمالي قدوم قزلو الى صيد وشروعه في حصارها، رغم على الرحيل عن صور مؤقتاً، وهو سوي العوده اليها بعد — يرحل قزلو عن صيدا، مما كاد قزلو يعود ادراجه هو وقواته الأتراك حتى عاد بدر الى صور وأحكم الحصار حولها برأ وبحراً لمدة عام حتى غلت فيها الاسعار لنفاذ الاقوات، ووصل ثمن رطل الخبز الى نصف دينار، ولكنها صمدت كما كانت تصمد دائماً في كل مرة يحاصرها الغزاة والفاطميون، فاضطر بدر الى رفع الحصار عنها^(٣).

وفي هذه الفترة الحرجة في تاريخ صيدا ظهر الأتراك السلاجقة على مسرح أحداث الشام، وشجع على تدخلهم الفوصى المستحكة في البلاد الشامية وضعف الدولة الفاطمية بسبب استبداد ناصر الدولة الحسين بن الحسين بن حمدان بأمور المستنصر، وبراعه مع اسد الدولة الذكر مقدم الأتراك وشيخهم، ونشوب معارك في القاهرة بين العرب والأتراك، كل ذلك مع عظم الغلاء، وقلة الاقوات، وانتشار المجاعة في البلاد، وانقطاع الطرقات في البر والبحر الا بالحراسة الشديدة. وانفسح المجال أمام

(١) ابن القلانسي، ص ٩٦، حاشية ١

(٢) ابن القلانسي، ص ٩٨. وذكر ابن الاثير ان قزلو قدم في ١٢ الفا.

(٣) نفسه ص ٩٨. ابن الاثير، ج ١٠، ص ٦٠.

السلاجقة للتدخل السافر عندما استدعي الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٦٦ (١٠٧٤ م) بعد أن اقدم الدكرز على قتل ابن حمدان في سنة ٤٦٥ وتتبع اقاربه وذويه بالقتل واستبد بدوره^(١). وبينما شغل بدر الجمالي في مصر بإصلاح ما أفسدته الفتن في البلاد ، فيقبض على الدكرز ويقتله في سنة ٤٦٧ هـ ، ويحاصر الاسكندرية ويفتحها عنوة ، ويقتل طائفة العسكر الملحين الثائرين فيها^(٢) ، ويوقع بلواته البربرية ، ويستصفي ما كان لرؤسائها في الوجه البحري ، ويسرف في قتلهم ، ويستعيد دمياط من الثوار^(٣) ، كاب السلاجقة يكتنون نفوذهم في بلاد الشام : ففي سنة ٤٦٣ أعلن محمود بن صالح المرداسي أمير حلب ولاءه للسلاجقة واستجاب لطلب السلطان السلجوقي ألب أرسلان فأقام الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي ، واستولى أئسز التركاني^(٤) مقدم الاتراك لحسابه الخاص على الرملة وبيت المقدس ، وشن الغارات على دمشق وأعمالها وقطع عنها الميرة ، ومنع عنها غلاتها عدة سنين حتى اضطرب امرها ، وقلت الأقوات فيها ، وجلا اكثر اهلها عنها ، واضطر من بقي فيها من اهلها الى تسليمها بالأمان لأئسز في ذي القعدة سنة ٤٦٨ هـ^(٥) ، وخضعت له صيدا وعكا ، وتغلب على اكثر بلاد الشام . ثم سمت همته الى فتح مصر ، فزحف نحوها في سنة ٥٦٩ في حشود ضخمة ، فتصدى له بدر الجمالي في ظاهر القاهرة ، وأنزل به هزيمة نكراء أقلت بعدها في نفر يسير من أصحابه الى الرملة ، ثم رحل من هناك الى دمشق . وفي سنة ٤٧٠ هـ وصل تاج الدولة أبي سعيد تتش بن السلطان السلجوقي ألب أرسلان الى

- (١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٨٧ - المقرئزي ، اتعاظ الحنفا (مخطوطة) ورقة ١٠١ أ ، ١٠٦ ب المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٠٨ - النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٠
(٢) الذهبي ، المعبر في خبر من غير ، ج ٣ ص ٢٦٣ - المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٤٨
(٣) المقرئزي ، اتعاظ الحنفا (مخطوطة) ورقة ١٠٧ ب
(٤) هو القائد أئسز بن أوق مقدم الاتراك الغز في الشام ، وقيل أئسز بن أبى ، أحد أتباع السلطان ألب أرسلان .
(٥) ابن القلاسي ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ - ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٠٠

الشام لفتحها لحسابه ، فنزل في حلب وحاصرها بمساعدة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل . وكان بدر الجمالي قد سير الى دمشق جيشاً ضخماً بقيادة نصر الدولة الجيوشي ، فحاصرها واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين ، فاضطر أئسز الى الاستنصار بتاج الدولة تتش ، ووعدته أن يسلمه دمشق ويكون في خدمته ، فقدم تتش لنجدته ، فانسحب الجيش الفاطمي الى الساحل (نحو صيدا) ، وكان ثغرا صور وطرابلس ما زال مستقلين في أيدي قاضيهما قد تغلبا عليها . على أن تتش ما كاد يدخل دمشق حتى غدر بأئسز فقتله في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٩ م) وقتل أخاه واستأثر بدمشق^(١) . وأخذ تتش يستولي على سواحل الشام ، فافتتح صيدا في سنة ٤٧١ هـ وانتزعها من نواب المستنصر^(٢) ، كما افتتح انطربوس وبعض الحصون في سنة ٤٧٤ هـ^(٣) .

ولكن بدر الجمالي لم يرض عن هذا الوضع ، وعز عليه أن ينتزع السلاجقة مدينة صيدا ، فسير إليها جيشاً بقيادة نصير الدولة الجيوشي في سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) ، وحاصرها ، ونجح في استرجاعها ، وأخرج منها نواب تاج الدولة تتش ، وولى عليها نائباً من قبله ، وظفر فيها بذخائر وأموال تتش^(٤) . كذلك استرجع بدر الجمالي ثغر صور ، وكان بها اولاد القاضي عين الدولة بن أبي عقيل بعد وفاته ، ولم تكن لديهم قوة يدفعونه بها ، فسلموها إليه ، وبالإضافة الى هاتين المدينتين تمكن بدر من افتتاح ثغري حبييل وعكا^(٥) .

وظلت صيدا موالية لمصر من سنة ٤٨٢ هـ حتى ٣ ربيع الآخر سنة

(١) ابن القلاسي ، ص ١١٢ ، ١١٣ - ان الاثير ، ج ١٠ ص ١١١

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ٩٨

(٣) ان الاثير ، ج ١٠ ص ١٢١

(٤) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٢٨

(٥) ابن القلاسي ، ص ١٢٠ - ان الاثير ، ج ١٠ ص ١٧٦ . ولكن ابن شداد يذكر أن

بدر الجمالي استرجع صيدا في سنة ٤٧٢ هـ (ان شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ٩٩)

٥٠٤ عندما استولى عليها بلدوين ملك بيت المقدس . أما صور فقد استقل بها واليها من قبل المستنصر وهو منير الدولة الجيوشي في سنة ٤٨٦هـ^(١) ، فسير إليه بدر الجمالي جيشاً استنزله واسترجع المدينة ، وتولى عليها وال يسمى الكتيلة لم يلبث أن أعلن استقلاله بها عن الفاطميين في سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٦ م) ، فارسل إليه الأفضل شاهنشاه وزير الخليفة المستعلي بالله الفاطمي جيشاً لاستنزاله ، وتمكن هذا الجيش من دخولها والقبض على واليها الثائر^(٢) . ويذكر الشيخ طنوس الشدياق أن شمس الملوك دقاق بن السلطان تاج الدين تنكش^(٣) ، الذي تولى دمشق في سنة ٤٨٨هـ ولى الأمير عضد الدولة شمس المعالي أبا المحاسن الارسلاني على صيدا وببروت في سنة ٤٩٤هـ (١١٠٠ م) مكافأة له لتصديه لجيش ريمون الصنجيلي عند نهر الكلب ، وأمره بتحسينهما ، فأتاب عضد الدولة عنه في ولاية صيدا الأمير مجد الدولة محمد بن عدي بن سليمان من بني عبدالله ، الذي تولى تحسين صيدا^(٤) .

(هـ) ازدهار صيدا في العصر الفاطمي :

على الرغم من قصر أمد فترة الاستقرار التي نعمت بها صيدا في العصر الفاطمي ، وشمول الفوضى والقلق والفتن في ربوع البلاد الشامية بسبب تصارع القوى الاسلامية المختلفة ، وتنازع الولاة على السلطان ، فإن مدينة

(١) ابن القلانسي ، ص ١٢٤

(٢) نفسه ، ص ١٣٤ . وبهذه المناسبة ينبغي أن نشير هنا إلى أن الاستاذ منير الحوري مصنف كتاب « صيدا عبر حقب التاريخ » كثيراً ما يربط أحداث صور بصيدا ويخلط بين المدينتين فيذكر أن القاضي عين الدولة بن أبي عقيل استقل بصور وصيدا ، ويذكر أيضاً أن بدر الجمالي اسند ولاية صور وصيدا الى منير الدولة ، وهو قول غير صحيح ولا يستند على أساس تاريخي (راجع منير الحوري ، ص ١٤٩)

(٣) استشهد تاج الدولة في سنة ٤٨٧ هـ

(٤) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٤ - ذخائر لبنان ، ص ١٧٨

صيدا شهدت في هذا العصر الفاطمي ذروة ازدهارها ، ونستدل من وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو لصيدا في سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٧ م) على أن صيدا كانت تعتمد في ثروتها الاقتصادية على زراعة قصب السكر بالإضافة الى زراعة اشجار الفاكهة ، كما نستدل ايضاً من وصفه لسوق صيدا ، وبهائه وحسن منظره على ازدهار التجارة في صيدا ، وهو امر طبيعي باعتبارها ثغراً بحرياً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموانئ الشام الاخرى وموانئ مصر . كذلك نستدل من وصفه لها على أن المدينة كانت مسورة بسور حصين تفتح فيه ثلاثة ابواب ، وأنها كانت حصينة مزودة بقلعة قوية من الحجر لعلها كانت مقامة في نفس الموضع الذي تقوم عليه اليوم قلعة البر ، وأنها كانت مزودة ايضاً بمسجد جامع نعتقد أنه كان يقوم في نفس البقعة التي اقيمت فيها الكنيسة الاسبتارية في عهد الاحتلال الصليبي ، ثم تحولت هذه الكنيسة فيما بعد الى مسجد جامع بعد أن استرد الأشرف خليل مدينة صيدا في سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ، يقول ناصر خسرو : « وبعد ذلك وصلنا الى مدينة صيدا وهي ايضاً على ساحل البحر ، وفيها يزرع القصب بكثرة ، ولها سور حجري محكم ، وثلاث بوابات ، ومسجد رائع تقام فيه صلاة الجمعة بخشوع تام وروح عالية ، وقد فرش الجامع كله بالحصير المنقوش . وللمدينة سوق جميلة مزينة ، بحيث أنني ظننت حين رأيته أن المدينة قد زينت لاستقبال السلطان ، أو للاحتفال بإحدى المناسبات ، فلما سألت عن السبب قيل لي : التقليد في هذه المدينة أن تكون دائماً على هذا النحو . وفيها بساتين ذات اشجار منسقة حتى لتقول إن ملكاً له ولع بالبساتين قد غرسها . وفي هذه البساتين جوسق ، واكثر الاشجار هناك مثمرة » (١) .

ولم تتغير صورة صيدا التي وصفها ناصر خسرو في سنة ٤٣٨ هـ

(١) ناصر خسرو علوي ، سمرقانة ، طبعة برلين (بالفارسية) ص ٢٠

(١٠٤٧ م) كثيراً عنها في زمن الشريف الإدريسي الجغرافي الذي زارها في سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٤ م) بعد أن دخلها الصليبيون ، فمن المعروف أن التطور العمراني والفني يستأزم زمناً أطول بكثير من التطور التاريخي ، ولذلك فإن وصف الإدريسي لصيدا يمكن أن ينطبق على المدينة في العصر الفاطمي المتأخر . يصف الإدريسي صيدا بقوله : « وأما مدينة صيدا فهي على ساحل البحر الملح ، وعليها سور حجارة ينسب الى امرأة كانت في الجاهلية ^(١) ، وهي مدينة كبيرة عامرة الأسواق رخيصة الاسعار ، محدة بالبساتين والأشجار ، غزيرة المياه ، واسعة الكور ، لها أربعة اقاليم ، وهي متصلة بجبل لبنان ^(٢) » .

ولقد عني ولاية صيدا من قبل الخليفة الفاطمي بتحسينها ، وقد رأينا أن الأمير عضد الدولة شمس المعالي أبا المحاسن الارسلاني عهد بتحسينها الى نائبه عليها مجد الدولة فتم ذلك في سنة ٤٩٤ هـ . ويبدو أن اعمال التحسين بدأت قبل هذا التاريخ بثلاث سنوات واستكملت في سنة ٤٩٤ هـ . بدليل أننا عثرنا على نص كتابي محفوظ بمتحف اللوفر يسجل تاريخ إنشاء برج حربي في مدينة صيدا على يد الامير سعد الدولة ابي منصور استكين الافضلي ، الذي نعتقد أنه كان يتولى هذه المدينة في التاريخ المذكور . والنص يتألف من عشرة اسطر من الكتابة الكوفية المزهرة ، نطالع فيه ما يلي : « بسمه لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله ، علي ولي الله ، صلوات الله عليها وعلى آلهما ، أمر بعمارة هذا البرج فتأ مولانا وسيدنا احمد ابي القاسم الإمام المستعلي بالله امير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الاكرمين ، السيد الاجل الافضل ، شرف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين

(١) لعل فيما ذكره الحيري في الروض المطار في خبر الاقطار في قوله إن صيدا تحمل اسم امرأة (القلقشندي ، ج ٤ ص ١١١) علاقة بما ذكره الادريسي قبله .

(٢) Idrisi, Palaestina et Syria, p. 15

وهادي دعاة المؤمنين ابي القاسم شاهنشاه المستعلي بن السيد الاجل امير
الجيش عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقاءه أمير المؤمنين ، على يد
مملوكه الامير ... سعد الدولة ابو منصور استكين الافضلي ... سنة
احد وتسعين واربع مائة « ١١ » .

الفصل الثالث

صَيْدَا فِي عَصْرِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ

١ - الفترة الاولى من الاحتلال الصليبي لصيدا (٥٠٤ - ٥٨٣ م / ١١١٠ - ١١٨٧ م)

- (أ) مقدمات الاحتلال الصليبي .
- (ب) سقوط صيدا في أيدي الصليبيين في سنة ٥٠٤ هـ
- (ج) صيدا في العهد الصليبي الاول (٥٠٤ - ٥٨٣)
- ١ - صيدا بارونية صليبية في ظل اسرة ايوستاش جارنييه
- ٢ - صيدا قاعدة حربية للصليبيين أسهمت في فتح صور وعسقلان
- ٣ - الاحداث الهامة في صيدا في العهد الصليبي الاول

٢ - صيدا في المرحلة الانتقالية بين الاسترداد الاسلامي الاول والاحتلال الصليبي الثاني

- (أ) الاسترداد الاسلامي لصيدا في ٢١ جمادي الاولى سنة ٥٨٣ (١١٨٧ م)
- (ب) فتح قلعة شقيف أرنون في سنة ٥٨٥ (١١٨٩ م)
- (ج) هدم أسوار صيدا وتحصيناتها في سنة ٥٨٦ (١١٩٠)
- (د) صيدا في عصر خلفاء صلاح الدين
- ١ - صلح سنة ٥٨٨ هـ
- ٢ - تدمير أسوار صيدا في عهد العادل
- ٣ - معاهدتا صلح سنة ٥٩٤ وسنة ٦٠٠
- ٤ - صيدا في عهد الملك الكامل محمد

٣ - الفترة الثانية من الاحتلال الصليبي لصيدا

(٦٢٦ - ٥٦٩١ / ١٢٢٨ - ١٢٩١ م)

(أ) اضطراب صيدا بين السيطرة الإسلامية والصليبية

(ب) الغارة المغولية المدمرة على صيدا (٥٦٥٨ - ١٢٥٩ / ٦٦٠)

أسبابها ونتائجها

(ج) آثار الصليبيين في صيدا

الفضل الثالث صيدا في عصر الحروب الصليبية

(١)

الفترة الأولى من الاحتلال الصليبي لصيدا
(٥٠٤ - ٥٨٣ هـ / ١١١٠ - ١١٨٧ م)

(أ) مقدمات الاحتلال الصليبي :

بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية في آخر جمادى الأولى سنة ٤٩١ هـ (يونيو ١٠٩٨ م) ، وعلى معرة النعمان في ١١ نوفمبر من السنة ذاتها (١٤ المحرم سنة ٤٩٢ هـ) زحف ريمون كونت دي تولوز يجمع الصليبيين نحو بيت المقدس ، فمروا بقلعة مصياف وبعرين ورفنية وحصن الأكراد ثم عرقة ، وحاصرت معظم قوات الصليبيين مدينة عرقة ، في حين هاجم فريق منهم أنطربطوس التي استسلمت في ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ . أما عرقة فلم يؤد حصارهم الطويل لها إلى أي نتيجة ، فاضطر ريمون إلى رفع الحصار ، وتابع الزحف إلى بيت المقدس بعد أن هاداه فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس بالهدايا والألطف وقدم إليه قدراً كبيراً من المال ، وافرغ عن ثلاثمائة من الأسرى البيزنطيين ، ووجه مع الفرنج أدلاء لإرشادهم إلى آمن الطرق المؤدية إلى بيروت^(١) . وفي

(١) يوسف الدبس، تاريخ سورية ، ج ٦ بيروت ١٩٠٠ ص ٢٩ - جورجيني، تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١ ص ٣٨٠ - حسن حبشي ، الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ١٧٠ - طرابلس الشام ، ص ٨٢

طرابلس اجتذب أنظار رسل ريمون كونت دي تولوز عظم ثروة طرابلس الزراعية ، وراقهم رؤية قصب السكر لأول مرة ، ورطب النخل ، والليمون وغيرها من الثمار والفاكهة التي لم يشاهدوها من قبل^(١) . ثم سلك الصليبيون طريق الساحل المؤدية الى بيروت حتى يمكنهم الاتصال في سهولة ويسر بالسفن الجنوبية والبيزانية التي كانت تدمم بما يحتاجون اليه من مؤن واقوات ، فمروا بالبترون وجبيل ، ثم وصلوا الى بيروت ، وهناك بذل لهم اهل المدينة الهدايا الكثيرة ، وتركهم يعبرون من بلدهم نحو الجنوب بعد أن اشترطوا عليهم عدم التعرض لمزارعهم^(٢) .

وعندما وصل الصليبيون امام صيدا عسكروا على الضفة الجنوبية من نهر الأولي في ٢٠ مايو سنة ١٠٩٩ ، وتركوا عسكرهم ينتشرون دون خوف في نواحي المنطقة ، فخرج رجال حامية صيدا الاسلامية الذين عرفوا بصلابتهم وشدة بأسهم ، وهاجموا بعض اجناد الفرنج الذين وصلوا متفرقين الى مشارف المدينة الامر الذي دفع هؤلاء الصليبيين الى مقابلة الاعتداء الاسلامي بالمثل ، فأرسلوا لمعاقبة المعتدين فرقة اغارت على المزارع ، فأتلقت الغروس والمحاصيل ، ونهبت القرى المجاورة^(٣) .

ثم رحل الصليبيون بعد ذلك الى صور عبر الصرند ، ومن الجدير بالذكر أنهم لم يقابلوا أي نوع من المتاعب أثناء زحفهم الطويل من أنطاكية الى بيت المقدس باستثناء صيدا وحدها ، ويرجع السبب في ذلك الى جنوح امراء المسلمين في المدن التي مر بها الصليبيون الى التفاوض السلمي والى ميلهم لموادعة الصليبيين حقناً للدماء وتفادياً لما يمكن أن يعود عليه

(١) الدبس ، نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٩ - جورجيني ، المرجع السابق ، ص ٣٨٠

(٢) رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد البار العريني ، بيروت ١٩٦٧ ، ج ١ ص ٣٨٨

(٣) Grousset, Histoire des Croisades, t. I, 1934, p. 150 - Frederick, p. 82
سميد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٣٩ رنسيان ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٣٨٩

أي صدام مسلح مع هذه الحشود المسلحة من أضرار على مدنتهم ، ولا ينبغي أن ننسى حرص هؤلاء الولاة الشديد على الاحتفاظ بولايتهم لهذه المدن ، في حين مال الصيداويون الى الخشونة والعنف كوسيلة لإرهاب المعتدين وردعهم .

وصلت حشود الصليبيين الى صور ، ومنها اتجهوا الى عكا ، حيث خرج للقائهم واليها زهر الدولة الجيوشي ووعدهم بأن يسلم لهم مدينته عندما يتحقق لهم الاستيلاء على بيت المقدس . فواصلوا سيرهم الى قيسارية ورحلوا منها الى أرسوف ، وبالقرب من هذه المدينة انصرفوا شرقاً نحو بيت المقدس ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها عنوة في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ (١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ م) بعد حصار دام نحواً من اربعين يوماً ، وتبع دخولهم المدينة مذبحه رهيبة استمرت ما يقرب من اسبوع سفكت خلاله دماء الألوف من اهل بيت المقدس^(١).

ثم اختار الصليبيون جودفروي دي بويون ملكاً على بيت المقدس في ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩ ، ولكن عهده كان قصيراً للغاية ، فلم يلبث أن لقي مصرعه بسبب سهم اصابه أثناء قيامه بحصار عكا في سنة ٤٩٤ هـ (١٨ يوليو ١١٠٠ م) ، وخلفه على مملكة بيت المقدس أخوه بلدوين امير الرها ، الذي قدم الى بيت المقدس ماراً بأنطاكية واللاذقية وطرابلس ، ولم يعترض المسلمون مسيره في بيروت وصيدا^(٢) حتى وصل الى بيت المقدس حيث نودي به ملكاً في ٤٩٤ (ديسمبر ١١٠٠ م) . وفي هذه السنة ايضاً افتتح الصليبيون مدينة حيفا بالسيف ، وارسوف بالأمان في ابريل سنة ١١٠١ م ، كما اعانهم الجنوية على فتح قيسارية بالسيف في ١٧ مايو سنة ١١٠١^(٣) .

(١) ابن القلانسي ص ١٣٩ اس الاثير ، ج ١٠ ص ٢٨١ ، ٢٨٤ - P. Rousset, Histoire

des Croisades, Paris, 1957, p. 104 - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ ص ٢٤٤

(٢) رنسيان ، ح ١ ص ٤٥٨

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٣٩ ابن الاثير ، ح ١٠ ص ٣٢٥ رنسيان ، ج ٢ ، ص ١٢٠

وظل الفاطميون يحتفظون ببعض مدن الساحل مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت ، وكانوا يسببون بذلك الكثير من المضايقات للصليبيين : ففي سنة ٤٩٥ هـ (شتاء ١١٠٢ م) وصلت مراكب للفرنج الحجاج يقدر عددها بنحو اربعين مركباً ، دفعتها امواج البحر العاتية الى الساحل ، فعطب اكثرها ، ووقع هؤلاء الفرنج اسرى في ايدي المسلمين ، وتعرض البعض منهم لسيوف الفاطميين في صيدا وعكا وعسقلان^(١) ، وقد سبب ذلك اسوأ الاثر في نفس بلدوين^(٢) . وفي ربيع سنة ١١٠٣ م (جمادى الآخرة سنة ٤٩٥ هـ) عزم بلدوين على فتح عكا ومدن الساحل مستغلاً وجود عدد من السفن الانجليزية يصل الى ١٦ قطعة بحرية ، فزحف على عكا وحاصرها وضيق عليها ، ونصب المنجنيقات والأبراج ، وكاد يستولي عليها لولا أن ارسلت اليها كل من صيدا وصور اثني عشر غراباً وحاملة ضخمة تحمل خمسمائة من مقاتلة المسلمين وآلات لقذف النار اليونانية ، وتمكن المسلمون من احراق منجنيقاتهم وابراجهم واحراق سفنهم ايضاً ، وارغموا بلدوين على فك الحصار والرحيل عن عكا^(٣) . ولم ينس بلدوين في هذه المرة ايضاً الدور الذي قام به اهل صيدا لمساعدة عكا ، ولذلك عقد العزم على الاستيلاء عليها .

ثم حاول بلدوين في نفس هذا العام الاستيلاء على بيروت ، فنزل عليها وحاصرها طويلاً ، ولكنه لم ير فيها مطعماً ، فاضطر الى الرحيل عنها^(٤) . غير أنه اذا كان قد اخفق في فتح بيروت في هذه السنة فإنه نجح في الاستيلاء على عكا في شعبان سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٥ م) ، فقد ساعده في افتتاحها في هذه المرة عدد كبير من السفن الجنوية يتجاوز التسعين ، مشحونة بالتجار والأجناد والحجاج ، وبفضل هذه المساعدة

(١) ابن القلاسي ، ص ١٤١ - Grousset, Histoire des Croisades, t. I, p. 239

(٢) Frederick, p. 83

(٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٣٤٥ - رنسيان ، ج ٢ ص ١٤٢ - Grousset op. cit. p.239

(٤) نفس المصدر

لازم المدينة التعمسة بالقتال حتى ملكها بالسيف قهراً ، وكان واليها الامير زهر الدولة بنا الجيوشي قد خرج منها لمجزه عن حمايتها ، وارسل الى بلدوين يطلب منه الامان له ولأهل عكا ، بعد ان يش من وصول أي نجدة ، فلم يوافق الصليبيون على طلبه ، ولاذ زهر الدولة بدمشق ، ومنها رحل الى مصر^(١) . وفي سنة ٥٤٩٩ هـ (١١٠٦ م) وصل الى يافا اسطول يحمل عدداً كبيراً من الحجاج الانجليز والفلمنكيين والدانين يتراوح ما بين ٧٠٠٠ ، ٩٠٠٠ حاج ، فعتمد بلدوين الى انتهاز هذه الفرصة المواتية ليستخدمهم في حصار صيدا ، وذلك بعد أن ينتهوا من اداء الحج . ولكن اهل صيدا تخلصوا من هذا الحصار بأن بذلوا له قدراً كبيراً من المال يبلغ ١٥ الف دينار ، وكادت الاساء قد حاءت بوقاة هيو صاحب طبرية ، فلم يسعه الا قبول ما عرضه عليه اهل صيدا لحاجته الى المال ، وبادر برفع الحصار والسير الى طبرية^(٢) .

وفي سنة ٥٥١ هـ (١١٠٨ م) هاجم بلدوين مدينة صور رداً على غارة مسبقة شنها والي صيدا على حصن تبين في سنة ٥٥٠ هـ ، فحاصرها وأقام يحاصرها شهراً ، أنشأ خلاله حصناً على تل المعشوقة ، فصانعه واليها عز الدين أنوشكين الافضلي على سبعة آلاف دينار ، فرحل بلدوين عنها^(٣) الى صيدا ، فنزل عليها وحاصرها من البر والبحر مستخدماً في حصارها اسطولاً يسيره ملاحون مغامرون قدموا من مدن ايطالية مختلفة من بيرة وحموة والندقة وأملقي الى سواحل فلسطين ، لعله نفس

(١) ابن القلاسي ، ص ١٤٤ - نص مرآة الزمان لسبط بن الجوزي من - Recueil des His - toriens des Croisades, Historiens Orientaux, t. III pp. 527, 528 - ابن الردي ، تمتة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢٦ - ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٣٧٣ .
(٢) Stevenson, op cit. p. 48 - Grousset, op. cit. t. I, (٢) p.245 - Frederick, p.83 - Deschamps, La défense du Royaume de Jérusalem, p.224
(٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٥٥ - ابن القلاسي ، ص ١٥٩ - نص مرآة الزمان من R. H. C. ص ٥٣٤ - رنسيان ، ج ٢ ص ١٤٩

الاسطول البيزاني الذي كان قد وصل الى اللاذقية لفتحها^(١). فاستنجد والي صيدا بالتركان في دمشق وعرض عليهم ان يبذل لهم مبلغاً قدره ٣٠ ألف دينار في مقابل مساعدتهم له. فلما نزل بلدوين على صيدا نصب عليها برحاً خشبياً، وتأهب لضربها واقتحام اسوارها عنوة، ولحسن طالع صيدا وصل الاسطول المصري في تلك الآونة للذب عنها ومدافعة الصليبيين، في قطع بحرية يزيد عددها على الخمسين، وتمكن هذا الاسطول من التغلب على سفن الجنوية وعلى عسكر الصليبيين في موقعة بحرية حدثت في مياه صيدا، وفي نفس الوقت بلغ بلدوين أن ظهير الدين أتابك صاحب دمشق سير عسكراً من التركان الى صيدا لمهايتها والدفاع عنها، فاضطر الى رفع الحصار عنها^(٢)، واحرق آلاته وعاد الى عكا. ويذكر المؤرخون أن اسوار صيدا وبرجين من اراجها اصبحت اصابات بالغة أثناء الحصار الصليبي بسبب قذائف اللاتين، فلما رحل الصليبيون وصلت النجدة الدمشقية التي كان قد طلبها والي صيدا، فرفض اهل صيدا السماح للتركان بدخول مدينتهم لما توافر لهم من دواعي الارتياح في نوايا طغتكين صاحب دمشق، كما امتنع والي صيدا عن بذل المبلغ الذي كان قد عرضه عليهم لقاء مساعدتهم، فهدد الأتراك باستدعاء بلدوين، وعندئذ اضطر والي صيدا الى ان يدفع اليهم عشرة آلاف دينار تعويضاً^(٣).

وكان الصليبيون قد تضامنوا جميعاً في حصار مدينة طرابلس في الفترة الواقعة ما بين اول شعبان سنة ٥٠٢ هـ و ١١ ذي الحجة من نفس السنة، وقطعوا الاتصال عنها تماماً من البر والبحر، وكاتب اهل طرابلس الوزير الافضل شاهنشاه يسألونه أن يدمهم بالأقوات والمؤن والسلاح والرجال، واقاموا ينتظرون ورود السفن الفاطمية التي تحمل اليهم الامدادات.

(١) Claude Cahen, La Syrie du Nord, Paris, 1970, p. 544

(٢) ان القلاسي، ص ١٦٢ ان الاثير، ج ١٠ ص ٤٥٦ نص مرآة الرمان من R. H. C. ص ٥٣٥ Grousset, t. I, p 253

(٣) رنسيان، ج ٢ ص ١٤٩ Stevenson, p. 50 Frederick, p 84

ولكن الشهور مرت دون أن تصل الامدادات في الوقت الذي استأسد فيه كلب العدو وفترت مقاومة الاهالي والحامية وانعدمت الاقوات في المدينة . ولما يشس والي طرابلس من وصول المدد عزم على التسليم ، وتم استيلاء الصليبيين على طرابلس في ١١ من ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ (١٢ يوليو ١١٠٩) . ثم وصل الاسطول الفاطمي قادماً من مصر بعد فوات الاوان ، مشحوناً بالرجال والمال والغلال ما يكفي أهل طرابلس لمقاومة حصار سنة ؛ وصل هذا الاسطول الى صور بعد سقوط طرابلس في ايدي الصليبيين بنحو ثمانية ايام ، فوزعت الغلال والذخائر في جهات صور وصيدا وبيروت^(١) ، وتمسك أهل صيدا وصور وبيروت بهذا الاسطول وألحوا على استبقائه لحمايتهم والذب عنهم ، وشكوا الى قادته سوء أحوالهم وضعفهم عن محاربة الصليبيين ، ولكن القادة لم يبالوا بذلك ولم يستجيبوا لندائهم ، فأقلعوا به عائدين الى مصر عند استقامة الريح^(٢) ، وكان في إمكان هذا الاسطول إنقاذ بيروت وصيدا من الحصار الصليبي الوشيك ، وبعودته دون أداء هذه المهمة تكون السلطات الفاطمية في مصر قد اسهمت في ضياع مدن الساحل السوري كله .

(ب) سقوط صيدا في ايدي الصليبيين في سنة ٥٠٤ هـ :

أحدث سقوط طرابلس دويماً هائلاً في بلاد الشام ، وأدى الى انهيار مقاومة المسلمين في كثير من مدن الساحل التي طالما صمدت امام الحصار الصليبي المتكرر واستعصت على الصليبيين . وقد استغل الصليبيون حالتي الدهول والانهيار اللتين أصابتا المسلمين عقب سقوط طرابلس في ايديهم لكسب مدن جديدة وضمها الى إمارتهم في الشام ، ففي ٢٢ ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ استولى تنكريد صاحب أنطاكية على جبلة ، ونشط برتران ابن ريمون الصنجيلي فحاصر رمنية ولكنه تنازل عنها للمسلمين في مقابل

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٧٦ ، ٤٧٧

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٦٤

أن يتخلى له المسلمون عن ثلث غلات البقاع وأن يسلموا له حصن التيطيرة وحصن ابن عكار ، وأن يقدم له أهالي مصياف وحصن الاكراد وحصن الطوفان قدرأ معيناً من المال في كل عام^(١). وفي ٢١ من شوال سنة ٥٥٣ هـ تمكن بلدوين بفضل مساعدة برتران الصنجيلي من دخول بيروت عنوة . والواقع أن بلدوين ملك بيت المقدس كان يشغله شاغل واحد منذ توج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية وهو استكمال فتح مدن الساحل الباقية في ايدي المسلمين وامها بيروت وصيدا وصور وعسقلان ، حتى يقضي بذلك على الجيوب والثغرات التي تتخلل منطقة نفوذه . أما عسقلان وصور فكانتا من المدن المنيعة التي لا يسهل الاستيلاء عليها إلا إذا توفرت لديه امكانيات ضخمة وقدرات واسعة ومساعدات تأتي اليه من الخارج ، ولذلك أرجأ فتحها الى حين ، وآثر أن يبدأ ببيروت وصيدا . وكان بلدوين قد اشترك مع برتران في فتح طرابلس ، ولذلك السبب لم يتردد برتران في تقديم العون لبلدوين عند شروعه في فتح بيروت ثم صيدا بعد ذلك . كذلك اشترك في فتح بيروت جوسلين صاحب تل باشر ، وساعد قدوم بعض السفن الجنوبية والبيزانية وعددها اربعون سفينة^(٢) بلدوين على حصار بيروت من البحر وقطع الامدادات التي تصل اليها من ذلك الطريق في الوقت الذي تطوقها قواته وقوات برتران من البر ، كما سهل وجود قاعدة بحرية صليبية في طرابلس على الصليبيين مهمة إحكام الحصار حول بيروت . وحاولت السفن الصيداوية والصورية عبثاً الوصول الى بيروت المحصورة لإمداد سكانها بالعدد والاقوات ، بسبب تطويق السفين الإيطالية لدخل الميناء^(٣) . واستغرق حصار الصليبيين لمدينة بيروت مدة شهرين ونصف (من آخر فبراير سنة ١١١٠ حتى ١٣ مايو من نفس السنة)

(١) طرابلس الشام ، ص ١٠٣

(٢) ان القلاسي ، ص ١٦٧ - نص مرآة الزمان في : R. H. C. t. III ص ٥٣٩

(٣) دنسيان ، ج ٢ ص ١٢٠٩ - Stevenson, p. 59 - سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،

ج ١ ص ٣٠٩

تمكنوا بعدها من دخول المدينة قهراً . ووجد الفرنج في غابات الصنوبر والأحراج التي كانت تمتد الى الجنوب من مزرعة العرب ورأس النبع بين الطريق الى صيدا والطريق الى دمشق جميع الاخشاب اللازمة لصناعة آلات الحصار كالأبراج المتحركة والمنجنيقات والسهل . ويذكر ابن القلانسي أن القتال اشتد بين الصليبيين والمسلمين ، وأن مقدم الاسطول المصري الذي كان بداخل مياه بيروت قتل هو وعدد كبير من المسلمين ، وأن الإفرنج لم يشهدوا قط حرباً في عنفها وضراوتها . ويذكر الشدياق أن الأمير عضد الدولة علي بن شجاع الدولة الأرسلائي وجماعة من اقاربه كانوا في بيروت في الوقت الذي هاجمها فيه الصليبيون^(١) ، ولقي مصرعه عندما دخلوها هو وخمسة أفراد من أمراء بيته . وفي مايو انهارت مقاومة الحامية المصرية في بيروت ، وفر والي المدينة الى قبرص مع معظم قواده تاركاً الأهالي يمحرون مفاوضات التسليم^(٢) . ثم دخل بلدوين بيروت في ١٣ مايو سنة ١١١٠ م (٢١ من شوال سنة ٥٠٣ هـ) غنوة بالسيف ، « فقتلوا ونهبوا وسبوا وفعالوا كما فعالوا بطرابلس ، واستصفوا الاموال والذخائر »^(٣) ، وبلغ عدد القتلى من أهل بيروت عشرين ألفاً^(٤) . ولم يكتف بلدوين بما اجترمه في بيروت ، بل أخرج الاسرى جميعاً خارج المدينة ، وضرب اعناقهم في اليوم التالي من سقوط بيروت^(٥) .

ثم زحف بلدوين بعد ذلك الى صيدا ، وكان يتولاها وقتئذ الأمير

(١) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٥

(٢) دنسيان ، ج ٢ ص ١٤٩ - Stevenson, p. 59 - Grousset, t. I, p. 254 . ولكن الأب لامنس يذكر أن الوالي المذكور قبض عليه ، وحمل الى الإفرنج فقتل هو ومن كان معه وغم الصليبيون ما كان قد حمله معه من أموال (Lammens, La Syrie; Précis historique Beyrouth, 1921, p. 215)

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٦٧ - نص مرآة الزمان في : R. H. C. t. III ص ٥٣٩

(٤) Grousset, t. I, p. 255

(٥) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٥

مجد الدولة محمد بن عدي ، ونزل عليها برأ وبجراً ، وأرسل الى أهلها يطلب منهم تسليم مدينتهم ، فاستمهلوه مدة عینوها ، فأجابهم الى طلبهم بعد أن قرر عليهم ٦ آلاف دينار^(١) تحمل اليه مقاطعة ، وكانت تصله منهم قبل ذلك ألفا دينار ، ثم رحل عنها الى بيت المقدس للحج^(٢)

وذكر ابن القلانسي أنه وصل الى ثغر يافا بجرأ ملك من ملوك الافرنج في حشد كبير من الرجال يحملهم ما يزيد على سبعين مركباً بقصد الحج والغزو في بلاد الإسلام ، وأنه قصد بيت المقدس حيث اجتمع به بلدوين وتقرر بينهما قصد البلاد الإسلامية وفي مقدمتها صيدا . ويشير مؤرخو الحروب الصليبية الى أن هذا المدد الذي قدم الى بيت المقدس من برجن من بلاد النرويج ، وكان يتألف من عشرة آلاف مقاتل يقودهم الملك سيجورد جورسالا فاري بن ماجنوس الثالث الذي اشترك مع أخويه في حكم بلاد النرويج ، وهو لذلك أول ملك متوج يقدم في أسطول كبير لزيارة مملكة بيت المقدس . وتصادف أن وصل هذا الاسطول النرويجي الى يافا عند عودة بلدوين اليها بعد استيلائه على بيروت وفشله في دخول صيدا ، ففرح بلدوين لوصوله واحتفى بمقدمه ، وأوكب معه من يافا الى القدس ، وأتاح له زيارة الاماكن المقدسة ، وغمره بالهدايا والأطاف بفية . الإفادة منه ومن أصحابه الذين قدموا بقصد الحج في تنفيذ مآربه وأهدافه التوسعية في صيدا وصور . وتم الاتفاق بين الملكين علي أن يشتركا معاً في فتح صيدا ويشترك معها برتران كونت طرابلس . وفي ١٩ أكتوبر سنة ١١١٠ م (٣ ربيع الثاني سنة ٥٠٤ هـ) نزل الملكان يحصافلهما على ثغر

(١) ابن القلانسي ص ١٦٨ - ان شداد ، الاعلاق ، قسم ٢ ص ٩٩ . وذكر الشدياق أن أمير صيدا وأهلها لما يثسوا من السلامة عقدوا مع الملك صلحاً ودفعوا له عشرين ألف دينار (ج ٢ ص ٢٩٥)

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٦٨ - نص مرآة الزمان في R. H. C. t. III ص ٥٣٩ - Frederick, p. 84

صيداً^(١) وختيماً على أسوارها ، واشترك معها برتران الصنجيلي . وبدأ الصليبيون يحاصرون المدينة من البر والبحر حتى لا تتمكن قوات طغتكين من الوصول إليها من البر ولا السفن المصرية من الوصول إليها من ثغر صور بجزراً . ومع ذلك فقد حاولت هذه السفن اختراق الحصار النرويجي البحري ، وضايقت السفن النرويجية ، ولكنها عجزت عن امداد أهل صيدا بما كانوا يحتاجون إليه من سلاح وأقوات ومقاتلة . وفي هذه الأثناء وصل أسطول للبنادقة يقوده الدوج أورديلافو فالير بنفسه^(٢) ، ويؤكد هايد استناداً الى ما جاء في المدونات الصليبية أن البنادقة أسهموا في حصار صيدا وفتحها بدليل أن الملك بلدين تنازل لكنيسة سان ماركو بالبندقية وللدوج أورديلافو عن بعض الملكيات والحقوق في عكا^(٣) .

ويذكر ابن القلانسي أن الصليبيين صنعوا برجاً وزحفوا به الى أسوارها وقد زودوه بالماء والحل لإطفاء النار اذا ما اشتعلت فيه ، وبآلات الحرب والقتال ، ولبتسوه بحطب الكرم والبسط وجلود البقر الطرية ليمنع من الحجارة والنفط ، ثم نقلوه على بكر ركب تحته . فلما رأى المسلمون بصيدا ذلك ضعفت همهم وأشفقوا على أنفسهم من عاقبة المطاولة

(١) ذكر السيد منير الخوري خطأً أن بلدين أعد حملة كبيرة في سنة ١١١٠ قاده بنفسه وترك الحكم في القدس الى برترام بن سان جيل وتوجه الى بيروت وحاصرها في أواخر شباط واستولى عليها ، والحقيقة أن برترام اشترك مع بلدين في فتح بيروت . كذلك ذكر السيد منير الخوري أن بلدين تقدم الى صيدا وحاصرها حصاراً شديداً لمدة اربعين يوماً دون نتيجة ولكن وصول قوات من جنوة والبندقية بالإضافة الى ٦٠ مركباً نرويجياً بقيادة الملك سيمون مع عشرة آلاف محارب ، ومجيء الكونت برترام مع قواته عجل بسقوط صيدا . ولا ندري من أي مصدر استقى سيادته هذه المعلومات فالمصادر العربية واللاتينية تتفقان على أن الملك النرويجي والملك الصليبي اشتركا معاً في حصار المدينة من البر والبحر ، كما أن الاسم الصحيح للملك النرويج هو سيجورد وليس سيمون . (راجع منير الخوري ، ص ١٥٦) .

(٢) Stevenson, p. 60 - Deschamps, p. 224 - Grousset, t. I , p. 256 - رنسيان ، ج ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١ - سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣١٠ ، ٣١١

(٣) W. Heyd, Histoire du commerce du Levant, t. I , Leipzig, 1936 p. 142

وخافوا أن يصيبهم ما أصاب أهل بيروت^(١). ويشير وليم الصوري الى أن والي صيدا أعد خطة لاغتيال بلدوين عن طريق مسلم مرتد كان غلاماً لبلدوين يقوم بخدمته الخاصة وافق على أن يتولى مهمة اغتياله لقاء مبلغ كبير من المال، ولكن نصارى صيدا كتبوا الى الملك المذكور رسالة يحذرونه فيها، أثبتوها في رأس سهم صوبوه الى المعسكر الصليبي، فاتخذ الملك حذره من خادمه الخائن وأمر به فشنق تحت الاسوار^(٢).

ولم تطل مقاومة أهل صيدا الى اكثر من ذلك، وقرروا التسليم على الأمان، فخرج قاضي المدينة ومعه جماعة من شيوخها الى الفرنج، وطلبوا من ملكهم الامان، فتعهد بلدوين بتأمينهم على أنفسهم وأموالهم وعسكرهم، وترك للمسلمين حرية البقاء في صيدا في ظل الحكم الصليبي او الخروج منها آمنين على انفسهم وأموالهم وذخائرهم دون أن يتعرض لهم أحد بسوء، كما تعهد بتأمين حياة من أراد البقاء بها، فاستحلفه وفد المسلمين على ذلك وتوثقوا منه. وفي ٢٣ من جادى الأولى سنة ٥٥٤ هـ (٥ ديسمبر سنة ١١١٠ م) خرج الوالي^(٣) والزمام وجماعة كبيرة من الأعيان وجميع الاجناد والعسكرية وعدد كبير من أهل صيدا يحملون معهم ما استطاعوا حمله من أموال ومتاع، وقدر مؤرخو الحركة الصليبية عددهم بنحو خمسة آلاف، ولادوا بدمشق وصور، بينما أثر الباقون من أهلها الحياة فيها في ظل مملكة بيت المقدس الصليبية. ثم دخلتها جيوش الصليبيين، فرتب بلدوين الاحوال بها والحافظين لها من رجالته، وعاد هو الى بيت المقدس^(٤). ولم يلبث أن عاد الى صيدا بعد عدة يسيرة، فنقض عهده للمسلمين، وقرر على من اقام بصيدا

(١) ابن القلانسي، ص ١٧١ - ابن الاثير، ج ١٠ ص ٤٧٩

(٢) رنسيان، ج ٢ ص ١٥١ - Grousset, t. II, p. 257

(٣) كان يتولى صيدا وقتئذ الامير مجد الدولة محمد بن عدي (ذخائر لبنان، ص ١٨٠)

(٤) Stevenson, p. 60 - Grousset, t. I, p. 257 - رنسيان، ج ٢ ص ١٥١ - يوسف

الدبس، ج ٦ ص ٤٩ - سعيد عاشور، ج ١ ص ٣١١

من المسلمين نيفاً وعشرين ألف دينار، فأفقرهم واستغرق أموالهم، وصادر من علم أن له بقية منهم^(١)، وأصبحت صيدا بارونية يتولاها إيوستاش جارنييه سيد قيسارية، الذي لم يلبث أن وطد مركزه بزواجه من إيما ابنة اخت البطريرك أرنولف^(٢).

(ج) صيدا في العهد الصليبي الاول (٥٠٤ - ٥٨٣) :

١ - صيدا بارونية صليبية في ظل أسرة إيوستاش جارنييه :

بعد أن سقطت صيدا في أيدي الصليبيين أصبحت بارونية صليبية تابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية، وكانت حدود هذه البارونية تمتد من نهر الليطاني جنوباً حتى نهر الدامور شمالاً، وتبسط سيادتها على عدلون والصرند وأنحاء جزين وقسم من الشوف كالباروك وبمقلين والمختارة ودير القمر^(٣). وقد انحصرت سيادة البارونية في بيت القارس إيوستاش جارنييه^(٤) سيد قيسارية الذي أصبح كفيلاً لمملكة بيت المقدس في سنة ١١٢٣ م^(٥) في أثناء وقوع بلدوين الثاني دي بور أسيراً في أيدي المسلمين^(٦). ومن الجدير بالذكر أن سيادة هذه البارونية أسندت إلى إيوستاش بعد سقوط صيدا في أيدي الصليبيين سنة ١١١٠. ولعبت بارونية صيدا في العهد الصليبي الأول دوراً هاماً في توجيه السياسة الصليبية، وفي تعزيز القوات الصليبية في بقية مناطق مملكة بيت المقدس

(١) ابن القلانسي، ص ١٧١ - ابن الاثير، ١٠ ص ٤٨٠ - ابن شداد، الأعلام الخطيرة،

قسم ٢ ص ٩٩ - ابن خلدون، كتاب العبر، مجلد ٥، بيروت، ص ٤٠٩

(٢) رنسيان، ج ٢ ص ١٥١ - Deschamps, p. 224

(٣) يوسف مزهر، ج ١ ص ٢٠٩

(٤) قولي بعد إيوستاش عدد من البارونات م: جيرارد بن إيوستاش (١١٢٤ - ١١٥٤)،

ثم ارناط سيد صيدا وشقيف أرغون (١١٥٤ - ١١٨٣)، وماليان (١٢١٠ - ١٢٣٩) وأخيراً جوليان الصيداري الذي باع صيدا وشقيف أرغون في سنة ١٢٦٠ للدواية

(٥) Grousset, t. II, voir la liste des seigneurs de Saïda

(٦) Frederick, p. 86 - سعيد عاشور، ج ١ ص ٢٠٩

كما ازدهرت من الناحية الاقتصادية بسبب ازدياد عدد سكانها ونمو مواردها^(١) ، ومع ذلك فإن الدور الذي لعبته صيدا في العهد الصليبي كان اقل شأنًا من الدور الذي لعبته الثغور الصليبية الأخرى مثل صور وعكا ويافا^(٢) سواء من الناحية التجارية أو السياسية . على أنها كمدينة خاضعة للصليبيين لفتت بينائها أنظار الصليبيين الذين قدموا بسفهم لزيارة الأراضي المقدسة.

وكان يسكن صيدا أخلاط غير منتظمة من السكان تتألف من عناصر متباينة غير متجانسة بعضها اسلامية وبعضها مسيحية ووطنية أي من اهل البلد أو مستوطنة ، وبعضها يهودية . أما المسلمون فكانوا يؤلفون أقلية سكانية ، فمن المعروف أن معظم من آثر البقاء في صيدا بعد وقوعها في أيدي الفرنج في سنة ١١١٠ م كانت لهم مصالح خاصة في البقاء بالمدينة ، فقد كان بعضهم يمتلك أراض يعيشون على زراعتها^(٣) معظمها تقع في نواحي صيدا ومعظمها أيضاً من نوع البساتين ، وبعضهم كانوا ملاكاً للعقارات أو تجاراً لهم دراية بالأحوال الاقتصادية لإقليم صيدا . وقد تعرض المسلمون لاضطهاد الفرنج ، وقد رأينا كيف فرض عليهم بلدون مبلغاً ضخماً من المال حتى يجردهم من ثرواتهم ، ويشير العماد الاصفهاني في الفتح الى أن معظم اهل صيدا وبيروت وجبيل من المسلمين كانوا مساكنين لمساكنة الفرنج مستسلمين ، وأنهم بعد أن حررهم صلاح الدين بعد موقعة حطين ذاقوا العزة بعد المذلة^(٤) . أما النصارى البلديون وأعني بهم الوطنيين ، فكانوا قبل الفتح الصليبي لصيدا يعطفون على الحركة الصليبية ، ولما كان معظمهم من الأرثوذكس فقد رفضوا في العهد الصليبي الخضوع للكنيسة الكاثوليكية ، ولذلك تعرضوا لاضطهاد

(١) منير الخوري ، ص ١٥٨

(٢) Frederick, p. 82

(٣) Grousset, t. I , p. 257

(٤) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، طبعة محمود صبيح ، ص ١٠٨

الفرنج ، وفرض عليهم هؤلاء ضرائب ثقيلة ، ودفعوهم إلى الانتقال إلى داخل البلاد حيث يمكنهم الحياة في سلام في ظل المسلمين . وأما اليهود فكانوا قليلي العدد ، ولكنهم على قلتهم كانوا يتحكمون إلى حد كبير في النشاط الاقتصادي بصيدا ، وكان معظمهم يشتغل بالتجارة والصيرفة والصياغة ، ولم يكن لهم دور هام سواء في العصر الإسلامي أم في العصر الصليبي .

وكان سيد صيدا أحد أمراء أربعة يندرجون في المرتبة بعد الملك ، هم : أمراء يافا والجليل وصيدا والأردن ، وكان لكل من هؤلاء الأمراء موظفوه وإداريوه ، وهم على هذا النحو يتشبهون بالملك ولكن على نطاق مصغر ، وكان على سيد صيدا أن يقدم إلى الملك مائة وخمسين فارساً بكافة معداتهم واسلحتهم^(١) .

٢ - صيدا قاعدة بحرية للصليبيين أسهمت في فتح صور وعسقلان :

اتخذ الصليبيون من صيدا قاعدة بحرية ومركزاً رئيسياً للامدادات وذلك عندما شرع بلدوين في حصار صور سنة ١١٥٥ هـ ، وكانت مدينة صور على حد قول الإدريسي بلداً حصيناً ، قد احاط بها البحر من ثلاثة اركان^(٢) . كذلك اشار المقدسي إلى حصانتها وذكر أنه يدخل إليها من باب واحد على جسر^(٣) ، وردد ابن حوقل نفس المعنى^(٤) . وبالإضافة إلى هذه الحصانة كانت الصخرة التي بنيت عليها صور لا ترتبط بالبر إلا عن طريق لسان ضيق ، وقد زاد ذلك من منعها وصمودها أمام الغزاة ، وكان عدد سكان صور قد ازداد زيادة واضحة

(١) رنسيان ، ج ٢ ص ٤٧٦

(٢) Idrisi, Palaestine et Syria, édit. Joannes Gildemeister, Bonnensis, 1885, p. 11

(٣) المقدسي ، ص ١٦٤

(٤) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٠

بن لجأ إليها من أهل صيدا وقيسارية وعكا وطرابلس^(١)، وساعدت هذه الزيادة السكانية في صور على صلابة الجبهة الإسلامية . وكان أهل صور يتوقعون قيام الفرنج بقصدهم عاجلاً كان ذلك أم آجلاً ، بعد سقوط بيروت وصيدا ، ولذلك كانوا يتأهبون لحصار طويل الأمد ، ثم إنهم اتفقوا — فيما يبدو — مع الدماشقة على أن يبدلوا لهم العون العسكري إذا ما طلب منهم أهل صور ذلك ، بدليل أنه ما كادت الأنباء تصل إلى عز الملك أنوثتكين والي صور بعزم بلدوين على قصد بلده عندما علم بأنباء هذه الاتفاقية حتى كتب إلى ظهير الدين طغتكين أمير دمشق يستصرخه ويستنجد به ويبذل له تسليم صور . وسأله في كتابه المبادرة والتعجيل ، فبادر طغتكين بإنقاذ عسكر من الأتراك وأردفهم بطائفة من العرب . والظاهر أن النجدة الدمشقية وصلت قبل أن يعزم بلدوين على الخروج لحصار صور ، فليس من المعقول أن يعلم بلدوين بخبرها دون أن تكون قد قدمت بالفعل بدليل أن الدماشقة اشتركوا اشتراكاً فعلياً في القتال حسبما تشير المصادر العربية ، وهو أمر يؤكد البير داكس من مؤرخي الحركة الصليبية ، في حين يذكر ابن الأثير أن أهل صور استنجدوا بطغتكين بعد أن اشتد القتال وأن النجدة التي سيرها كانت تتألف من مائتي فارس دخلوا البلد^(٢) ، ولا يعقل أن يدخل هؤلاء الفرسان المدينة في الوقت الذي يحاصرها فيه الصليبيون وهو أمر يؤكد ابن تغري بردي إذ يذكر أن طغتكين « جهز الخيالة والرجالة إلى صور نجدة فلم يقدروا على الدخول إليها من الفرنج ، ثم رحلت الفرنج عنها ونزلوا على الحبيس وهو حصن عظيم وحاصروه حتى فتحوه عنوة ، وقتلوا كل من كان فيه ، ثم عاد بغدوين (بلدوين) إلى صور وشرع في عمل الأبراج »^(٣) .

لما بلغت أنباء الاتفاقية التي تمت بين والي صور وطغتكين صاحب

(١) Grousset, t. I, p. 409

(٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٨٩

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨١

دمشق بادر بالنزول إلى صور ، فوصل إليها في ٢٥ من جمادى الأولى سنة ٥٠٥^(١) (٢٧ نوفمبر سنة ١١١١) ، واشترك معه في هذه الحملة إيستاش جارنييه سيد صيدا وقيسارية^(٢) ، ولكن لم يساعده في الحصار البحري حولها أي أسطول لاتيني كما حدث بالنسبة ليبروت وطرابلس وصيدا ، ولكنه اعتمد على فرقة بيزنطية كان قد وعده بها الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين ، وقدمت هذه الفرقة فعلاً امام صور في أسطول صغير يتكون من ١٢ سفينة بقيادة المبعوث البيزنطي برتوميتس^(٣) ، ولكن هذه الفرقة البيزنطية لم تكن كافية . واشتد القتال ، واستخدم الفرنج ابراجاً ثلاثة ، وقيل برجين على صور ، وزحفوا بها عليها ، فخرج اهل صور بالنفط والقطران والخطب وأحرقوا برجاً ، وامتدت النار إلى الآخر^(٤) . وكانت الميرة والمادة تصلان الى بلديون « من صيداء في المراكب »^(٥) ، وذكر ابن الأثير أن طفكتكين كان يقطع عن الفرنج المحاصرين لصور الميرة في البر ، فكانوا يحصرونها في البحر ، وخندقوا عليهم ، فسار إلى صيدا وأغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركباً على الساحل^(٦) ، وذكر سبط ابن الجوزي

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٨٨ - ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٢ ص ١٦٧ - نص
مرآة الزمان ، في : R. H. C. t. III , p. 543

Grousset, t. I , p. 261 (٢)

Richard (j.) : Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine (٣)
Grousset t. I, p. 261 - Paris, 1945, p. 28 - السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ،

ص ١٨٣
(٤) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٨٨ - ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٢ ص ١٦٧ - ابن تغري
بردي ، ج ٥ ص ١٨١ . وذكر ابن القلاسي أن أهل صور ألقوا النار قريباً من البرج الصغير
ولم يتمكن الفرنج من دفعها فهبت ريح وألقت النار على البرج الصغير فاحترق بعد المحاربة
الشديدة عليه ونهب منه زبديات كثيرة وطوارق ، ثم اتصلت النار بالبرج الكبير ، ولكن
الفرنج تمكنوا من اطفاء ما علق به من نار (ابن القلاسي ، ص ١٧٩)

(٥) نص مرآة الزمان في : R. H. C. ، الجزء الثالث ، ص ٤٤٤ - ابن تغري بردي ، ج ٥
ص ١٨١

(٦) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٩٠ - R. H. C. , t I , p. 286

وابن تغري بردى أن طفتكين عمد الى مهاجمة صيدا مركز الإمدادات للصليبيين أثناء حصارهم لصور ، فركب السفن وسار اليها وقتل جماعة من الفرنج ، وأغرق مراكبهم ثم أوصل مكاتبته الى أهل صور ، فقوى قلوبهم على الصمود^(١) . ويثس بلدوين من افتتاح صور ، فرحل هو وقواته بعد أن احرقوا ما كان لديهم من السفن على الساحل ، وذلك في الأسبوع الأول من ابريل سنة ١١١٢ ، خوفاً من أن يدمر طفتكين صاحب دمشق محصول اراضي الجليل بفلسطين^(٢) .

وكما اشتركت صيدا بأسطولها في الحصار الصليبي لصور في سنة ٥٠٥ هـ اشتركت في مواجهة عساكر الفاطميين في يافا سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م)^(٣) ، كما اشتركت بأسطولها في حصار عسقلان في سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٤ م) ، فلقد كان لجيرار بن إيوستاش سيد صيدا إمرة أسطول مؤلف من ١٥ سفينة ، أسهم في إحكام الحصار البحري الصليبي حول عسقلان زهاء شهرين^(٤) ، انتهى بسقوط عسقلان ، كذلك اشترك فرنج صيدا في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) مع فرنج صور وجميع الساحل في الهجوم الذي شنه الفرنج على مدينة دمشق ، وأحرقوا فيه الربوة والقبة الممدودة ، وكثر فساد هؤلاء الفرنج في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق^(٥) ، الى حد اضطر معين الدين أنر بمملك طفتكين معه الى الإغارة على أعمالهم . كذلك أسهم أسطول صيدا مع أسطول عكا في فك حصار المسلمين البحري حول ميناء بيروت في سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ، ففي

(١) نص مرآة الزمان ، في : R. H. C. الجزء الثالث ، ص ٥٤٤ - ابن تغري بردى ، ج ٥

ص ١٨١

(٢) Grousset, t. I , p. 264

(٣) البطريق اسطفانوس الديلمي ، تاريخ الازمنة ، بيروت ، ١٩٥١ ص ٣٢

(٤) الدبس ، ج ٦ ص ٧٧

(٥) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة

١٩٥٦ ، ج ١ ص ١٣٤

هذه السنة سار صلاح الدين من دمشق الى بيروت فنهبا ، ونهب إقليمها من البر في حين حاصرها الأسطول المصري من البحر^(١) ، ولذلك امر بلدوين الرابع ملك بيت المقدس يومئذ بإعداد الأسطول الصليبي في عكا وصيدا لتخليص بيروت من الحصار الإسلامي ، فاضطر صلاح الدين لإزاء ذلك الى القفول عنها الى دمشق مؤثراً السلامة ، وعاد الأسطول الأيوبي الى مصر^(٢) .

٣ - الاحداث الهامة في صيدا في العهد الصليبي الاول :

غارات المسلمين على صيدا :

تعرضت صيدا لعدد من الغارات والغزوات شنها المسلمون عليها في البر والبحر : ففي سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) أمر الخليفة الأمر بأحكام الله عندما بلغه نبأ وفاة بلدوين الأول ملك بيت المقدس بتسيير السفن المصرية الى جهة صيدا ، وكتب الى طغتكين صاحب دمشق بأن يقابله في العسكر الشامي عند عسقلان لاستخلاص المدن التي استولى عليها الفرنج ، ولكن هذه الحركة لم تؤد الى نتيجة^(٣) .

وفي سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) تعرضت صيدا لغارة بحرية قام بها الأسطول المصري الذي توجه بعد ذلك الى بيروت حيث انهزم وعاد سريعا الى مصر دون أن يتعرض لمدن الساحل بعد ذلك^(٤) . ثم تعرضت صيدا من جديد لغارة بحرية عنيفة في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥٩ م) قام بها الأسطول المصري ، ويروي ابن القلائسي خبر هذه الغارة فيقول : « وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الاصطول المصري الى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة العدة والعدة ، وذكر أن عدة مراكبه سبعون مركبا

(١) ابن الاثير ، ج ١١ ص ٤٨٢

(٢) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ٧٧٠

(٣) الدويهي ، المرجع السابق ، ص ٢٨

(٤) Frederick, p. 87

حربية مشحنة بالرجال ، ولم يخرج مثله في السنين الخالية ، وقد أنفق عليه ما حكي وقرب ثلثمائة ألف دينار ، وقرب من يافا من ثغور الافرنج فقتلوا وأحرقوا ما ظفروا به ، واستولوا على عدة وافرة من مراكب الروم والافرنج ، ثم قصدوا ثغر عكا ، وفعلوا فيه مثل ذلك ، وحصل في أيديهم عدة وافرة من المراكب الحربية الإفريقية وقتلوا من حجاج وغيرهم خلقاً عظيماً ، وأنفذوا ما أمكن الى ناحية مصر . وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس وفعلوا فيها مثل ذلك « (١) .

كذلك تعرضت صيدا في العهد الصليبي لغارات برية قام بها المسلمون بوجه خاص في مرحلة المد الاسلامي عندما حمل نورالدين محمود بن زنكي لواء الجهاد ، ففي ٩ ربيع الآخر سنة ٥٥٣ (١١٥٨ م) أغار المسلمون بقيادة أسد الدين شيركوه قائد نور الدين محمود في حشود من فرسان التركان على أعمال صيدا وما قرب منها ، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها ، وخرج إليهم من كان بها من الخيالة والرجالة ، فكان لهم المسلمون وفاجأوهم بالهجوم وقتلوا أكثرهم وأسروا الباقين ، وكان من بين الأسرى ولد المقدم المتولي حصن حارم « (٢) . وفي العام التالي أرسل نور الدين قائده أسد الدين شيركوه في فرقة من العسكر للاغارة على بلدة صيدا ، فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده ، « ولم يشعر الفرنج إلا وقد عاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب » « (٣) .

وفي سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) وصلت قوات نور الدين الى نواحي صيدا بقصد الاستيلاء على حصن شقيف تيرون الواقع على مقربة من قلعة نينجا

(١) ابن القلانسي ، ص ٣١٥ - أبوشامة ، الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٢
 (٢) ابن القلانسي ، ص ٣٥٢ - أبوشامة ، ج ١ ص ٣٠٠ - Frederick, p. 88
 Grousset, t. II, p. 390
 (٣) أبوشامة ، الروضتين ، ج ١ ص ٣٠٦

التي تبعد عن جزين شمالاً بنحو ٧ كيلومترات وعن صيدا شرقاً بنحو ٢٣ كيلومتراً^(١). وفي سنة ٥٧٥ م (١١٧٩ م) قدم صلاح الدين لأول مرة في نواحي صيدا ، ودمر الحقول المحيطة بها ، وهزم الملك بلدوين الرابع بالقرب من بانياس عندما لاذ كثير من الصليبيين بصيدا^(٢) ، فاضطر بلدوين الى عقد الهدنة مع صلاح الدين في مايو سنة ١١٨٠ م (٥٧٦ هـ)^(٣).

الزلازل وأثرها :

تعرضت صيدا وغيرها من مدن الشام الاسلامية والمحتلة لسلسلة من الزلازل العنيفة المتواصلة التي بدأت منذ سنة ٥٤٦ هـ واستمرت على فترات متقطعة حتى سنة ٥٦٥ هـ . وقد سببت هذه الزلازل المدمرة هبوط القشرة الارضية في عدة مواضع من الساحل وعلى الأخص في قيسارية وصور وصيدا وجبيل وبيروت ، وتخرب قسم كبير من هذه المدن^(٤) . وكان أشد هذه الزلازل عنفاً وتدميراً زلزال بيروت الذي حدث في ٩ شعبان سنة ٥٥١ هـ ، وكان من العنف بحيث هز الساحل اللبناني كله من أرواد الى صور ، وكان مركز ثقله مدينة بيروت التي تخربت مبانيها وقتل العديد من سكانها^(٥) . ويذكر ابن القلاسي ان هذا الزلزال كان يتألف من عدة هزات أرضية استمرت عدة أيام ، وأن هذه الهزات أحدثت أضراراً خطيرة في حلب وحماة وأقامية وشيزر وكفرطاب^(٦) . وفي ١٩ صفر من العام التالي ارتجت الارض واهتزت الدور في شيزر وحماة وكفرطاب وحلب ، وتكرر ذلك في ٢٥ من جمادي الأولي . وفي ٤ رجب وافت

(١) Frederick, p. 89 — Grousset, t. II, p. 476

(٢) Ibid. t. II, pp. 670, 672

(٣) الفريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٦٨ — طرابلس الشام ، ص ٢٥٤

(٤) يوسف زهر ، ج ١ ص ١٦٧

(٥) E. Gibbon, The history of the decline and fall of the Roman empire, t. V.

p. 252 — Frederick, p. 80

(٦) ابن القلاسي ، ص ٣٣٤

زلزلة عنيفة في دمشق أثرت في مواضع كثيرة ، وتأثرت بهذا الزلزال عدة مدن منها حماة وحلب وجبله وجبيل^(١) ، وتتابع الزلازل في ٢٤ رمضان من نفس السنة ، وكانت حلب ودمشق أكثر مناطق الشام تأثراً به^(٢) ، كما تكررت في ١٠ ذي القعدة وشملت دمشق وعمت حوران والبقاع ، وحدث نفس الشيء في ٢٣ من ذي القعدة ، وفي يوم ٢٥ منه أيضاً^(٣) . وفي سنة ٥٦٥ هـ حدثت زلازل عنيفة متتابعة لم يشهد الناس لها مثيلاً في العنف والشدة عمت أكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها ، وكانت الشام المركز الرئيسي لها ، فخربت معظم مدنها وعمت الأضرار في بلاد الأفرنج في الشام ، واشتغل الفرنج بعمارة ما خربته الزلازل^(٤) .

وكان من الطبيعي أن تتأثر صيدا بهذه الهزات الأرضية العنيفة وخاصة زلزال سنة ٥٥٢ (١١٥٢ م)^(٥) ، فهدم بعض أبنيتها لاسيما الأبراج والتحصينات .

النزاع بين اسقفيتي صيدا وصور في العهد الصليبي :

توفي البطريرك جورموند في صيدا بسبب مرض أصابه عند قيام الفرنج بحصار حصن قريب من صيدا ، وفي هذه الفترة التي تبعت وفاته قام نزاع في الكنيسة الشرقية ودخل اسقف صيدا طرفاً في هذا النزاع ، فقد ظلت صور منذ ٢٨ أبريل سنة ١١٢٨ ولعدة سنوات بدون اسقف ، ثم ارتقى الى هذا المنصب مقدم الضريح المقدس ، ولكنه وجد أن بعض الاساقفة في السنين السابقة انقطعوا عن الاعتراف بنفوذ اسقفية

(١) ابن الفلاس ، ص ٣٤٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٤٦

(٣) نفسه ، ص ٣٤٧

(٤) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥٥ - ابن الوردي ، تمة المختصر ، ج ٢ ص ١٢٠

(٥) Frederick, p. 88

صور عليهم ، ومن بين هؤلاء الاساقفة أسقف صيدا . ثم ازداد النزاع حدة بين اسقف صور الجديد والاساقفة العصاة بسبب التنافس بين بطريرك بيت المقدس وبطريرك انطاكية ، واخيراً تم الصلح بفضل الجهود المضنية التي بذلها البابا انوسنت الثاني الذي وجه رسائل توفيق الى بطريرك بيت المقدس والاساقفة العصاة ومن بينهم برنار الصيداوي ، كما ارسل البابا بعثة رسولية نزلت بصيدا ، وافر اسقف صيدا من جديد سلطان أسقف صور الذي كانت أسقفية صيدا ترتبط مباشرة بكرسيه منذ قرون طويلة^(١) .

اصطدام الملك أمليرك مع الداوية في صيدا سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) :

في سنة ١١٧٣ م قدم الملك أمليرك الى صيدا ، فبعد مجلساً من النبلاء للنظر في الجريمة التي ارتكبها أحد فرسان الداوية ، إذ قتل أحد مبعوثي راشد الدين سنان شيخ الجبل الى أمليرك ، وتفصيل ذلك أن سنان أرسل الى أمليرك يعرض عليه اقامة حلف بينها لمناهضة نورالدين ، ولكي يغريه بعقد هذا الحلف أخذ يلوح له بأنه يفكر مع قومه الاسماعيليه في التحول الى المسيحية ، وفي مقابل ذلك لا بد أن يعفي الداوية قومه الذين يسكنون بالقرب من حصون الداوية (في انطرطوس) من الجزية السنوية وقدرها الفا دينار . وعلى الرغم من أن أمليرك لم يقتنع بإخلاص الاسماعيليه في عرضهم عليه ، إلا أنه اغتبط بهذه السفارة ، إذ وجد في ذلك فرصة مواتية لخلق نوع من العداء بين الزنكيين والاسماعيليه في الشام ، ولذلك أبدى استعداداه لدفع هذا المبلغ الى الداوية من ماله الخاص . وبينما كان هذا المبعوث الاسماعيلي يجتاز اقليم طرابلس عائداً الى جبال البهرة حيث تقوم قلاع الدعوة الاسماعيليه ، وقد ظفر بوعد من الملك الذي أبدى استعداداه الكامل للتفاهم مع شيخ الجبل عن طريق سفارة ينوي ارسالها اليه فيما بعد ، إذ تصدى له احد فرسان

Claude Cahen, op. cit. p. 316 - Ibid. p. 87 (١)

الداوية بإيعاز من مقدم الداوية في صيدا، فأوقعه في كمين نصبه له وأجهز عليه . فغضب الملك عندما بلغه خبر هذه الجريمة التي نقضت سياسته الخارجية ، وطلب من أودوسنت أماند مقدم الداوية بصيدا أن يسلم له الجاني ، فرفض أودو بحجة أنه سيرسله الى روما حتى يتهيأ للبابا محاكمته ، إذ أنه لا يعترف لأحد سواء بالسلطة التي تخوله محاكمته . فأسرع الملك بالسير في جماعة من عسكره الى صيدا ، وشق طريقه الى مجلس الداوية ، وأمر رجاله بالقبض على الجاني ، ثم أرسله الى سجن صور^(١) .

(٢)

صيدا في المرحلة الانتقالية

بين الاسترداد الاسلامي الأول والاحتلال الصليبي الثاني

(١) الاسترداد الاسلامي لصيدا في ٢١ جمادى الأولى

سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) :

صمم صلاح الدين في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) على وضع حد لأعمال القرصنة التي كانت يمارسها الابرئس أرناط (رينو دي شاتيو صاحب حصن الكرك) ومهاجمة مملكة بيت المقدس ، وذلك عندما أقدم أرناط المذكور على نقض معاهدة الصلح المبرمة بينه وبين صلاح الدين قبل نفاذ مدتها بعامين ، وكانت تنص على حرية مرور القوافل ما بين الشام ومصر دون أن يتعرض لها عسكر أرناط ، فهاجم أرناط في سنة ٥٨٢ هـ قافلة كبيرة مشحونة بالمتاجر والأموال في حراسة جماعة من الجند المسلمين ، فغدر بهم أرناط وغنم أموالهم ودوابهم وأسلحتهم ، وأودع من أسره منهم في السجون^(٢) ، وفي ذلك يقول ابن واصل في كتابه مفرج الكروب :

(١) رنسيان ، ج ٢ ص ٦٤١ ، ٦٤٢ - Frederick, p. 89

(٢) ابن الاثير ، ج ١١ ص ٥٢٨

« كان الأبرنس أرناط صاحب الكرك كثير الغدر والخبث ، وكان قد هادن السلطان وسامه ، فأمنت الطريق بين مصر والشام ، وتواصلت القفول حتى كان يمكن الذهاب والجائي ، ثم إنه لاحث له فرصة في الغدر ، فغدر بقافلة عظيمة فيها نعم جلييلة فأخذها بأسرها ، وكان معهم جماعة من الأجناد فأسرهم وحملهم الى الكرك وأخذ خيلهم وعدتهم ، فأرسل اليه السلطان وقبّح فعله ، فأسامه إطلاقهم ، فامتنع وأصر على عصيانه ، فغدر السلطان دمه ، وأعطى عهداً إن ظفر به أن يستبيح مهجته » (١) .

وفي نفس الوقت نكت ريمون الثالث صاحب طرابلس بالاتفاقية التي أبرمها مع صلاح الدين في سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ودخل في طاعة جي دي لوزنيان ملك بيت المقدس ، وأزال بذلك اسباب الخلاف الذي كان قائماً بينه وبين جي ، وعندئذ بادر صلاح الدين بالعمل ، فزحف الى طبرية وكانت ملكاً لأشيفا زوجة ريمون الثالث في ٢١ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (يوليو ١١٨٧ م) ، ودخلها المسلمون (٢) ، ونهبوها ثم أحرقوها (٣) . فلما بلغ الفرنج ذلك عزموا على السير لقتال المسلمين بتحريض من أرناط صاحب الكرك ، واشتبك الفريقان في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ في حطين ، وأحاط المسلمون بالفرنج من كل جانب ، فلما أيقن ريمون بالهزيمة تحايل على النجاة بنفسه ، ففتح له تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين ثغرة خرج منها مع نفر من أصحابه (٤) ، كذلك شق باليان ابلين صاحب

(١) ابن واصل ، مفرج الكرب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، ج ٢ ص ١٨٥
(٢) العماد الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٧٦ - أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٥ ص ٩٥

(٣) ابن الاثير ، ج ١١ ص ٥٣٣

(٤) ابن شداد (القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤ ص ٧٧ - العماد الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١٩ - ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٥٣٥ - أبو الفداء ، المختصر ج ٥ ص ٩٥ - أبو المحاسن بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٢

بيروت وأرناط صاحب صيدا لنفسيهما طريقاً خارج أرض المعركة^(١). وهكذا انهزمت قوى الصليبيين مجتمعة بعد أن قتل منهم نحو ثلاثين ألفاً، ووقع في أسر المسلمين ملك الفرنج وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجماعة من الداوية والاسبتارية، واستغل صلاح الدين هذا الانتصار الحاسم، فأخذ يستولي على قلاع الصليبيين ومدنهم، فسقطت مدينة عكا في أيدي المسلمين في مستهل جمادى الأولى، واستولى المسلمون بعد ذلك على العديد من المدن والحصون هي على الترتيب: الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلبا والشقيف (شقيف تيرون) والفولة ومجدليابة ويافا. ثم عهد صلاح الدين الى تقي الدين عمر بمنازلة قلعة تبنين، ولكن هذه القلعة كانت من المناعة والحصانة بحيث استعصى على تقي الدين عمر فتحها وحده دون الاستعانة بعمه، فأرسل اليه يحثه على الوصول اليه، فقدم اليه صلاح الدين وحاصرها حصاراً شديداً حتى سقطت في ١٦ جمادى الأولى.

وما إن سقطت تبنين في يد صلاح الدين حتى زحف نحو صيدا في حشود هائلة تجر وراءها آلات الحصار من جروح لرمي السهام والنفط المشتعل، وجفاتي وهي حواجز لإعاقة تقدم العدو ويستتر وراءها الجند الرماة أثناء القتال، والدبابات وهي أشبه بأبراج متحركة على عجلات وبها طبقات من خشب أو حديد أو رصاص تستقر بداخلها الجنود لمهاجمة الحصون أو لتسلق الأسوار، والصبابات وهي آلات لقذف السهام^(٢). ثم اجتاز صلاح الدين وهو في طريقه الى صيدا ببلدة الصرند «فأخذها صفواً عفواً بغير قتال»^(٣). ثم واصل زحفه من هناك الى صيدا، فلما علم أرناط صاحب صيدا بمسيره إليه بادر بالانسحاب منها وتركها فارغة

(١) رنسيان، ج ٢ ص ٧٤٠

(٢) وردت هذه الاصطلاحات الحربية في: الفتح القسي للعماد، ص ١٠٤، ١٠٥

(٣) ان الاثير، ج ١١ ص ٥٤٢

من غير مانع ولا مدافع ، وجاءت رسل صاحبها بمفاتيحها الى السلطان ، وارتفعت أعلامه الصفر على أسوارها في ٢١ من جمادى الأولى^(١) (٢٩ يوليو ١١٨٧) . ويعلق العماد الأصفهاني على فتحها بقوله : « وسنحت له صيدا ، فتصدى لصيدها ، وكأنت همته في قيدها ، وبادرها اشفاقاً من مكر العداة وكيدها . وسرنا وسرنا مرتاح ، ونصرنا متاح ، والجو جديد والمزاج مزاج ، والعزم جزم ، والحكم حتم ، ونفحات الفتوح قد توزع ، وشرك الشرك قد تقطع وتقلع ، وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف ، والقدر عون ، والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر ، وأوجهنا وأوجه البشائر بأشيرة ، ونيوب النوائب في أوجه المشركين كاشرة ، والألسن لحديث الفتح الحديث ناشرة ، وقد جفت أجفانها البواتر الواترة ، وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة ، واتصلت للمالك من الملائك أمداد النصر المتواتية المتواترة ، ووصلنا في يومين الى صيداء الى منهل فتحها صادين ، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادين . ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ما توعر ، وصفا من الأمر ما ظن أنه تكدر ، فصرفنا الأعنة إلى صرفند ، وأسمنا رعبنا في مسارحها الجند ، وهي مدينة لطيفة على الساحل ، مورودة المناهل ، ذات بساتين وأزهار ورياحين ، وأشجار النارنج والأترنج تعرب مسراتها لجنتها عن أشجان الفرنج ، فجنسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلا لها ، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية ، وقرتنا بما اشتبهنا من فواكهها تلك القرية ، ولم نخرج عليها حتى خيّمنا على صيداء ، وقد حصلنا على صيدها وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها ،

(١) ابن الاثير ، ج ١١ ص ٥٤٢ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٠٦ - ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج ٣ ، دمشق ، ١٩٦٨ ص ٩٧ - أوالفداء ، المختصر ، ج ٥ ص ٩٦ - ابن الوردي ، ج ٢ ص ١٤٧ - السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٩٥ . ويذكر صاحب البستان الجامع أن صلاح الدين فتحها في ٢٨ جمادى الأولى سنة ٥٨٢ ، وهو تاريخ غير موثوق به Claude Cahen, une Chronique Syrienne du VI^e siècle, Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, t. VII - VIII, p. 146

فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها ، وأذهبنا ظلماتها من العزائم الفر بمصاييحها ، وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها ، وجلت غياهب تلك المذاهب بنورها ، وفتحت أبوابها ، وأنجحت آراياها ، وعز مسلموها وذل مشركوها ، وسكن ساكنوها ، وهلك أهلوها ، وعادت معالمها مأهولة بعد أن كانت مقفرة مجهولة ، وصدق منبرها ، وصدق مفخرها ، وربح متجرها ، ووضح منظرها ، وأقيمت بها الجمعة والجماعة ، واستدعيت بها بعد العصيان لله الطاعة ^(١) .

وأقام صلاح الدين بصيدا يوماً ريثما قرر قواعدها ، ثم واصل زحفه الى بيروت ، فتحصن الفرنج بها ، وصعدوا على سورها ، وناشبه القتال عدة أيام ، فنصب صلاح الدين عليها المجانيق ، ودخلها صلحاً في ٢٩ جمادى الأولى أي بعد ثمانية أيام من شروعه في حصارها ^(٢) . ثم مر صلاح الدين بصيدا بعد أن فرغ من فتح بيروت وجبيل في طريقه الى عسقلان ^(٣) .

أما أرناط صاحب صيدا والشقيف ، فقد فر الى قلعة شقيف أرنون ، وأقام فيها منذ أن انتزع منه صلاح الدين صيدا حتى أتبعها بالشقيف في سنة ٥٨٥ .

(ب) فتح قلعة شقيف أرنون في سنة ٥٨٥ (١١٨٩ م) :

ظلت قلعة شقيف أرنون الحصينة في حوزة أرناط صاحب صيدا السابق ، وكانت هذه القلعة من أهم القلاع التي تشرف على مدخل صيدا ، وتقع على صخرة مرتفعة تطل على نهر الليطاني ^(٤) ، فعزم صلاح الدين

(١) العماد الأصفهاني ، ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٥٤٣ - ابن شداد ، النوادر السلطانية من R.H.C. , t. III , ص ٩٨

(٣) العماد الأصفهاني ، ص ١١٢

(٤) رنسيان ، ج ٣ ص ٥٣

على فتحها ، وسار إليها من دمشق في ٣ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ ، فأقام بمرج برغوث وأقام به والعساكر تلتابع الى ١١ ربيع الأول ، ثم رحل إلى بانياس ، ثم إلى مرج عيون ، فخمى بالقرب من شقيف أرنون بضعة أيام ، وكان صاحب هذه القلعة أرناط Reynold Garnier من أشد الناس دهاء ومكرأ ، وكان عارفاً بالعربية ، ولديه اطلاع على التواريخ والأحاديث ، فنزل بنفسه من حصنه قاصداً السلطان ، ودخل في حضرته وأظهر له الطاعة والمودة ، وأكل معه ، ثم خلا به ، وذكر أنه مملوكه ، وتابعه ، وتحت طاعته ، وأنه على أتم استعداد لتسليم الحصن ، واشترط على صلاح الدين أن يقطعه إقطاعاً بدمشق يعيش فيه هو وأهله خوفاً على نفسه من مساكنة الفرنج ، وعبر عن ذلك بقوله : « أنا محب لك ومعارف بإحسانك ، وأخاف بأن يعرف المراكيس (كنزاد صاحب صور) ما بيني وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذى ، فإنهم عنده ، فأشتهي أن تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم من عنده ، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ونسلم الحصن إليك ، ونكون في خدمتك ، نقنع بما تعطينا من إقطاع » ، فحسن ظن صلاح الدين به ، ووثق في صدق ، قوله وأهله الأشهر الثلاثة التي طلبها ، واستقر الأمر بينهما على أن يسلم أرناط قلعة الشقيف في جمادى الآخرة من هذه السنة (٥٨٥ هـ) . ولكنه استغل هذه المهلة التي منحه لإيها صلاح الدين في تقوية حصنه ، وتدعيم استحكاماته ، ورميم أسواره ، وتزويد الحصن بالأقوات والمؤن والسلاح الوافر وغير ذلك مما يعين الحصن على حصار طويل الأمد . وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر انتهاء الأجل الذي حدده لأرناط ليستولي على قلعة الشقيف ، فلما قاربت مدة الهدنة على النفاذ ولم يبق على نهايتها سوى يومان ، قدم أرناط إلى صلاح الدين وتوسل إليه أن يمنحه مهلة أخرى . ولكن صلاح الدين أصر على تسلم القلعة ، فطلب منه أرناط أن يأذن له بمقابلة أحد القساوسة ليحمل إلى أهل الشقيف رسالة يأمرهم فيها بأن يسلموا القلعة للمسلمين ، فأذن له السلطان بذلك ، فتحدث أرناط إلى القس وساره بما لم يعلموه ، ومضى القس إلى الشقيف ، وما كاد يدخل بابه حتى تحصن

أهل الشقيف وأعلنوا العصيان . وعندئذ تحقق صلاح الدين من خدعة أرناط ، فأمر به فقيّد وحبس ، ثم سيّره السلطان إلى دمشق حيث سجن فيها ، ورتب صلاح الدين عدداً من الأمراء على محاصرة الشقيف صيفاً وشتاء ، فتمكنوا من الاستيلاء عليها بعد عام . فلما تم للمسلمين فتحها أطلق صلاح الدين سراح أرناط ، وعفا عنه ، وتركه يرحل الى صور^(١) مع حامية الشقيف . ويشير جروسية إلى أن صلاح الدين عوّضه عن الشقيف بأن منحه نصف إمارة صيدا احتفظ بها في حياة السلطان ، فلما مات أرناط وخلفه باليان احتفظ بنصف إمارة صيدا في ظل الأيوبيين ، ثم منح باليان النصف الثاني من صيدا وفقاً للمعاهدة التي أبرمها الكامل محمد مع الامبراطور فردريك الثاني^(٢) . ولكننا نستبعد أن يكون صلاح الدين قد منحه نصف إمارة صيدا ، فقد ظل المسلمون يمتلكون صيدا إلى سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) عندما تنازل العادل أخو صلاح الدين عن مناصفات صيدا والرملة وغيرها على النحو الذي سنشير إليه فيما بعد .

(ج) هدم أسوار صيدا وتحصيناتها في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) :

أسند صلاح الدين ولاية صيدا وبيروت بعد أن افتتحهما في سنة ٥٨٣ هـ الى الأمير سيف الدين علي بن أحمد بن المشطوب الهكاري^(٣) ، وكان أميراً جليل القدر وقائداً شجاعاً أبلى بلاءً حسناً في الفتوحات الصلاحية ، وتوفي ابن المشطوب في سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م)^(٤) . وقد أسهم ابن المشطوب في أثناء ولايته لصيدا في إمداد مسلمي عكا بالطعام والأقوات من صيدا

(١) العماد الأصفهاني ، ص ٨٥ ، ٢٨٦ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٨٢ - ٢٩٠ ، ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٢٧ - ابن حلدون ، ج ٥ ، ص ٦٩١ ، ٦٩٢ - ابن الوردي ،

ج ٢ ص ١٥٢

(٢) Grousset, t. II, p. 833, Note 2

(٣) العماد الأصفهاني ، ص ١٥٢ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٤٢

(٤) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٢ ص ٢٩٤

عندما اشتد عليهم الغلاء في شتاء سنة ٥٨٦ هـ ، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً^(١) . واستغل ابن المشطوب وغيره من أمراء صلاح الدين فرصة حلول الشتاء ، وخلو ميناء عكا من سفن الصليبيين المحاصرة له ودخل المدينة متسللاً في بداية سنة ٥٨٧ هـ ، وكان من بين الأسرى الذين أسرهم الصليبيون عند استيلائهم على عكا في ١٧ جمادي الثاني سنة ٥٨٧ هـ^(٢) .

اهتم صلاح الدين بعد أن فرغ من فتح صيدا وتبنين بتحصينها بقصد حمايتها من الأخطار المحيطة بها والمثلة في الفرنج صور ، ويعبر العماد الأصفهاني عن ذلك بقوله : « ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين وجمع لها التحصين والتحصين قال لعصمة الله : « شيدي ما بصيداء وتبنين تبنين ، وألحفيها رداء الحماية فما يضيع ما تحفظين ، ولا يطرق ما تحمين »^(٣) ، ثم نقل الى صيدا بعض الآلات التي كان قد استخدمها في حصار صور^(٤) .

وحدث أثناء الفترة التي أقامها صلاح الدين في مرج عيون في انتظار اللحظة التي يسلمه أرناط حصن شقيف أرنون ، أن جاءته كتب من قواده الذين كان قد عهد إليهم بمهمة مواجهة الفرنج في صور يبلغونه فيها أن الفرنج قد أجمعوا على عبور جسر صور ، وأنهم عزموا على السير نحو صيدا ومحاصرتها ، فخرج صلاح الدين في فرقة من أصحابه لمواجهة الفرنج ، ولكنه وصل في أعقاب معركة نشبت بين قواته المعسكرة خارج صور وبين حشود الفرنج ، دارت فيها الدائرة على الفرنج ، وعجزوا عن الوصول الى صيدا^(٥) . ويرجع السبب في خروج الفرنج نحو صيدا الى أن صور ضاقت عليهم باطنها وظاهرها ، وامتألت بالرجال والأقوات والذخائر ،

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٥٤

(٢) نفس المصدر ، ج ١٢ ص ٦٦ ، ٦٧

(٣) العماد الأصفهاني ، ص ١٠٤

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٤

(٥) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٢٩

فلما فشلوا في خطتهم بالنسبة لصيدا تحولوا الى عكا^(١).

ويبدو أن نية الفرنج في استرجاع بعض مدن الساحل ، لاسيا عندما أحس صلاح الدين باقتراب الألمان من حدود الشام في مائة ألف فارس في البحر ، وقرب وصول حملة صليبية جديدة ، كانت من العوامل التي دفعت صلاح الدين الى إصدار الأمر بهدم سور طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل حتى لا يستخدمها الصليبيون في محاربة المسلمين ، ونقل أهالي هذه المدن الى بيروت^(٢) ، ونقل إليها الميرة وشحنها بالرجال والسلاح ، وجعلها قاعدة لتلك الناحية^(٣).

(د) صيدا في عصر خلفاء صلاح الدين

١ - صلح سنة ٥٨٨ هـ :

أثار سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ (١٢ أكتوبر سنة ١١٨٧) ثائرة العالم المسيحي ، وكان حافزاً على قيام الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩١ م) التي اشترك فيها الامبراطور فريدريك بربروسة والملك فيليب أغسطس والملك ريتشارد قلب الأسد . أما فريدريك فقد مات غريقاً عقب وصوله الى نهر سلوقية وذلك أثناء عبوره لأحد الأنهار ولم يصل من قواته الى عكا إلا أعداد قليلة ، في حين تمكن ريتشارد وفيليب من الاستيلاء على عكا بعد حصار طويل وذلك في ١٧ جمادي الآخرة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . وكان ريتشارد قد سئم القتال خاصة بعد رحيل الملك فيليب الى بلاده ، ولكن ذلك

(١) ابن الأثير ، ح ١٢ ، ص ٣٣

(٢) البستان الجامع ، ص ١٤٨ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٢٥ - السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٠٤ - صالح بن يحيى ، ص ٢٠ - Stevenson, p. 264 - سعيد عاشور ج ٢ ص ٨٥٠

(٣) صالح بن يحيى ، ص ٢٠

لم يمنعه عند قيامه بمفاوضة الملك العادل أخي صلاح الدين من الإصرار على المطالبة بكل فلسطين ، وكان من الطبيعي أن يرفض المسلمون مطالبه ، فاستؤنفت الحرب من جديد بين المسلمين والصليبيين ، وحدثت وقعة أرسوف (سنة ١١٩١) التي أسفرت عن هزيمة للجيش الإسلامي ، وتبع ذلك سير الصليبيين نحو يافا ، ثم عاود ريتشارد الاتصال بالعادل في أكتوبر من نفس السنة لإجراء مفاوضات جديدة لعقد الهدنة ، وفي هذه المفاوضات الثانية طالب ريتشارد ببيت المقدس والإقليم الواقع غربي نهر الأردن ، كما طالب باستعادة صليب الصلبوت^(١) ، ولكن صلاح الدين اعترض على هذه المطالب ، وتمسك بالاحتفاظ ببيت المقدس في أيدي المسلمين . وكان ريتشارد قد أبدى إعجابه بالعادل ، لما لمسه فيه من روح الفروسية وبراعة دبلوماسية ، فاقترح على الجانب الإسلامي أن يتزوج العادل من أخته جوانا ملكة صقلية التي ينوي ريتشارد أن يخصها بكل ما فتحه من مدن الساحل بما فيها عسقلان ، على أن يقيم الزوجان في بيت المقدس التي يجب أن تفتح أبوابها للمسيحيين ، كما اشترط على المسلمين إعادة صليب الصلبوت ، وإطلاق الأسرى من الجانبين وأن ترد إلى الداوية والاستبارية ممتلكاتهم في فلسطين . ولكن جوانا لم تقبل الزواج من مسلم ، وفي هذه الآونة قدم إلى معسكر صلاح الدين أرناط صاحب صيدا وقلعة الشقيف السابق رسولا من قبل كنزاد صاحب صور ، يعرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن صيدا وبيروت وتكون الجبلية كلها أو تكون القرى مناصفة ، وشرط على نفسه في مقابل ذلك مجاهرة الفرنج بالعداوة واستعداده لقصد عكا ومحاصرتها واستخلاصها للمسلمين^(٢) ، وبحث صلاح الدين الاقتراحين في مجلس عقده لذلك الغرض ، تقرر فيه قبول اقتراح ريتشارد من حيث المبدأ وذلك لعدم ثقة المسلمين بكنزاد^(٣)

(١) رنسيان ، ج ٣ ص ١١٥

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٠٢ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٧٢ - رنسيان ،

ج ٣ ص ١١٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٣

غير أن حاشية همفري رسول ريتشارد ساءم ما شهوده من خروج أرناتط صاحب صيدا السابق للصيد في صحبة العادل ، فتوقفت مفاوضات الصلح فترة من الوقت ثم استؤنفت من جديد ، ومضى العادل في ٢٠ مارس سنة ١١٩٢ الى معسكر ريتشارد يحمل عرضاً محدداً بمقتضاه يحتفظ الصليبيون بما سبق أن فتحوه ، وأن يحق لهم الحج الى بيت المقدس ، وإضافة بيروت إليهم بعد أن يقوم المسلمون بتخريب تحصيناتها ، واقترح ريتشارد تتويج كنزاد ملكاً على بيت المقدس ، ولكن كنزاد لم يلبث أن قتل على أيدي الفداوية الاسماعيلية في أبريل سنة ١١٩٢ ، وأخيراً عقدت معاهدة الصلح في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ (٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ) بين الجانب الصليبي والجانب الإسلامي على أساس أن تكون المدن الساحلية حتى يافا في الجنوب للصليبيين ، على أن يحتفظ المسلمون بصيدا وبيروت وجبيل^(١) مع إتاحة حرية الحج للمسيحيين وتدمير عسقلان^(٢) .

٢ - تدمير أسوار صيدا في عهد العادل :

توجه السلطان صلاح الدين بعد عقد الصلح الى القدس ، حيث أقام عدة منشآت ، ثم رحل في ٥ من شوال الى دمشق ماراً بالثغور الإسلامية كنبلس وطبرية وصفد وتبنين ، وقصد بيروت ، وأقام بها عدة أيام . ويشير المؤرخون الى أنه تعهد هذه المدن بعنايته وأمر بإحكامها وتحصينها^(٣) . ولا شك أنه مر بصيدا في طريقه الى بيروت ، وأن صيدا كانت من بين المدن التي حظيت باهتمامه . ثم توفي صلاح الدين في ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، وخلفه ابنه العزيز عثمان أبو الفتح على مصر والأفضل نور الدين علي على دمشق والساحل وبيت المقدس وبلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال الى الداروم ،

(١) صالح بن يحيى ، ص ٢١

(٢) رنسان ، ج ٣ ص ١٢٢ ، ١٢٣

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٨٧

والظاهر على حلب وأعمالها جميعاً ، وعلى حماة محمود بن تقي الدين عمر . وكان العزيز عثمان قد أسند ولاية صيدا وأعمالها الى فارس الدين وشمس الدين سنقر ، وزادها نابلس وبلادها بعد ذلك^(١) . ثم آلت ولاية صيدا الى الأفضل ملك دمشق الذي أقطعها الى ولده الملك المعظم ، فأنعم بها هذا الأخير بدوره الى أخيه الملك المغيث يوسف في سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥ م) ، وظلت صيدا في حوزة المغيث يوسف حتى وفاته في سنة ٦٣٠هـ^(٢) (١٢٣٢ م) .

وشغل خلفاء صلاح الدين بنزاعاتهم الصغيرة وخلافاتهم الداخلية حول مناطق النفوذ ، وهبأوا بذلك للفرنج الفرصة لكي ينعموا بفترة من السلام ، ولكي يجنوا مكاسب جديدة على حساب المسلمين . وكان يتولى بيروت الأمير عز الدين أسامة بن منقذ الذي كان يرسل الشواني في البحر ليقطع الطريق على الافرنج ، فاشتكى الفرنج أكثر من مرة الى كل من العادل بدمشق والعزيز عثمان بالقاهرة ، فلم ينمأ أسامة عن عملياته البحرية ، فاضطروا الى الاستنجاد بملوك المسيحية في أوروبا ، فوصلتهم إمدادات من الغرب معظمها من الألمان . فلما بلغ العادل ذلك استولى على يافا قهراً بالسيف^(٣) . وفي نفس الوقت توفي هنري ملك بيت المقدس (الكنذهري) وخلفه أمليرك الثاني ملك قبرص الذي صمم على استرجاع جميع الأراضي التي كان صلاح الدين قد انتزعها من الصليبيين على أثر انتصاره في حطين ، بقدر استطاعته ، ووجد في نفاذ أمد الهدنة المنعقدة مع المسلمين مبرراً لاستئناف الاشتباكات الحربية ، لاسيما بعد أن وصلت حملة هنري الرابع الألماني ، فأصدر أمليرك أمره الى الفرنج بالتجمع في عكا والزحف شمالاً نحو بيروت ، وعندما علم العادل بهذه التحركات عزم على تخريب المواقع الساحلية الإسلامية التي يخاف ألا يتمكن من إحكام

(١) ابن واصل ، ج ٣ ص ١١ - المقريري ، السلوك ج ١ قسم ١ ص ١١٥

(٢) ابن شداد ، الأعلام الحطيرة ، ص ٩٩ ، ١٠٠

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٢٦

الدفاع عنها ، على ألا يتم تخريبها إلا بعد إجلاء الأهالي عنها الى مناطق داخلية مأمونة . فسيّر لهذا الغرض فرقة من عسكره الى بيروت ، هدموا سور المدينة في ٧ ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ (أكتوبر سنة ١١٩٧ م) ، وشرعوا في تخريب دورها وتدمير قلعتها ومرافقها عندما عارضهم أسامة ابن منقذ متولي بيروت ، ومنعهم من إنجاز مهمتهم بحجة قدرته على الدفاع عنها وتعهده بحفظها . ثم رحل الفرنج الألمان من عكا الى صيدا ، في نفس الوقت الذي عاد فيه عسكر المسلمين من بيروت ، فاشتبك الجانبان في نواحي صيدا في ٩ ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١١٩٧ م) ولكن هذه الاشتباكات لم تسفر عن نتائج حاسمة ، وبادر الفرنج بمواصلة الزحف نحو بيروت ، فلما اقتربوا منها أسرع أسامة وجميع من معه من المسلمين بالفرار عنها الى صيدا^(١) ظناً منهم بأن الفرنج استولوا على بيروت ، تاركين هذه المدينة الأخيرة غنيمة باردة للفرنج الذين تمكنوا من دخولها من غير قتال في ١٠ من ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ (٢٣ أكتوبر) .

أما أسامة فقد لامه الناس على تفريطه في الدفاع عن بيروت ، وأصبح تسليم المدن الإسلامية للفرنج منذ ذلك الحين بدون حرب تقليداً سنه أسامة ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء متهمكاً عندما حاصر الفرنج حصن تبنين في سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، موجهاً القول الى صاحب الحصن :
سلم الحصن ما عليك ملامة لا يلام الذي يروم السلامة
فعطاء الحصون من غير حرب سنة سنه ببيروت أسامة^(٢)

٣ - معاهدتا صلح سنة ٥٩٤ هـ ، وسنة ٦٠٠ هـ :

وعندما علم السلطان الملك العادل بسقوط بيروت في أيدي الفرنج

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ١٢٧ - الأعلام ، الخطيرة ، قسم ٢ ص ١٠٠ - الذهبي ، المعبر في خبر من غير ، ج ٤ ص ٢٨١ - ابن خلدون ، ج ٥ ص ٧٢٦ - صالح بن يحيى ، ص ٢١

(٢) صالح بن يحيى ، ص ٢٢

أرسل الى صيدا طائفة من عسكره الى صيدا لتخريب « ما كان بقي منها ، فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها »^(١) ، وتم ذلك في ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ . وسارت عساكر المسلمين الى صور بعد ذلك ، فقطعوا أشجارها وخرّبوا أبراجها وقراها . ثم قدم الفرنج الى صيدا وتبنين وشرعوا في حصارهما في يناير سنة ١١٩٨ م ، وازداد الضغط على الحامية الإسلامية بصيدا الى حد أنهم أوشكوا على تسليمها للفرنج ، ولكن اقتراب تعزيزات إسلامية بقيادة العزيز عثمان بنفسه للدفاع عنها أرغم اللاتين على رفع الحصار عنها وعن تبنين في ٢ فبراير سنة ١١٩٨ م (٥٩٥ هـ) ، ثم أبحر جماعة من الفرنج الألمان الى بلادهم بعد أن جاءت الأنباء بوفاة امبراطورهم . وهكذا كان الجانبان الإسلامي والصليبي متلهفين على عقد الصلح ، فقد كان اللاتين من الضعف ، والمسلمون من الانقسام والتفرق بحيث لم يكن من الممكن أن يواصل أي منهما الحرب ، وعلى هذا النحو تم الاتفاق بين الجانبين الإسلامي والصليبي في أول يوليو سنة ١١٩٨ م (شعبان ٥٩٤ هـ) على أن يسود السلام حتى ربيع سنة ١٢٠٤ م إلا إذا قدمت حملة صليبية جديدة الى الأراضي المقدسة . وأقر الجانبان الأوضاع الراهنة ، فظلت يافا التي كان العادل قد هدم أسوارها ، تابعة للمسلمين ، وفي مقابل ذلك وافق العادل على أن يحتفظ اللاتين ببيروت وجبيل ، كما وافق على مناصفة صيدا بين الفرنج والمسلمين^(٢) .

ثم قدم الى عكا في سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) جماعة من الفلمنكيين ، ولحق بهم في العام التالي جماعات قليلة من الفرنسيين ، فطالبوا أمليرك بالسير لمقاتلة المسلمين ، ولكن أمليرك آثر الانتظار بعض الوقت ريثما تواتيه الفرصة لشن هجوم شامل على المسلمين . وحدث بعد ذلك أن

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ١٢٧ - الأعلام الخطيرة ، قسم ٢ ص ١٠٠ - السلوك ، ج ١

قسم ١ ص ١٤٠ - ٢٩٤ - Stevenson, p. 187 - Deschamps

(٢) رنسيان ، ج ٣ ص ١٨٠ - ٢٩٦ - ٢٩٥ - Stevenson

تمكن الأسطول الإسلامي من أسر سفينتين صليبيتين من سفن قبرص بالقرب من صيدا ، وأدى هذا الاعتداء من جانب المسلمين الى تجديد الاشتباكات ، ونقض معاهدة ١١٩٨ م . واتخذ أمليرك من هذا الحادث ذريعة لبث الغارات على الأراضي القريبة من عكا . وفي أثناء ذلك جاءت الأنباء بانحراف الحملة الصليبية الرابعة عن مقصدها الى الاستيلاء على القسطنطينية في سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م)^(١) ، وأدى ذلك الى خروج كثير من الفرنج الى بيزنطة . وكان من الطبيعي أن يسعى أمليرك الى طلب الصلح ، ولم يكن العادل بأقل منه رغبة في ذلك ، الى حد دعاه الى أن يقبل تنازلات إسلامية جديدة لصالح الصليبيين ، إذ كان يخشى أن تتعرض مصر لهجوم موجه من القسطنطينية^(٢) . وتم عقد الصلح في سنة ٦٠١ هـ (سبتمبر ١٢٠٤ م) ، وبمقتضاه تنازل للصليبيين « عن جميع المناصبات في صيدا والرملة وغيرها ، وأعطاهم ناصرة وغيرها »^(٣) . وهكذا قضت معاهدة سنة ١٢٠٤ بأن يتقاسم الصليبيون والمسلمون موارد صيدا .

٤ - صيدا في عهد الملك الكامل محمد :

تجدد القتال بين المسلمين والصليبيين في سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) بسبب وصول إمدادات أوروبية جديدة الى هؤلاء الصليبيين بمثابة في الحملة الصليبية الخامسة ، تم اجتمع الصليبيون في عكا ، فبادر الملك العادل بالقدوم من مصر الى الشام ، فوصل الى الرملة ومنها الى لد ، وزحف الصليبيون من عكا نحوه ، فتحركت قوات العادل نحو بيسان ، فسار إليه الفرنج بقصد محاربته ، ولكن العادل تجنب لقاءهم لقلّة عسكره ، وانسحب

(١) راجع التفاصيل في : عمر كال توفيق، تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، ١٩٦٧، ص ١٥٧ وما يليها .

(٢) راسيان ، ح ٣ ص ١٨٨ - Frederick, p. 93 - Stevenson, p. 297
Wolfgang Müller-Wiener, Castles of the Crusaders, New-York, 1966, p. 23

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ١٩٥ - المقرئ ، السلوك ، ج ١ ص ١٦٤

الى مرج الصفر بالقرب من دمشق لحشد مزيد من الجند ، وانفسح المجال بذلك أمام الفرنج للعث في البلاد ، فبثوا السرايا في الأراضي الممتدة من بيسان الى بانياس ، ونهبوا القرى والحصون ، ثم قصدوا صور ، ومنها زحفوا الى الشقيف ، فنهبوا صيدا والشقيف ، وعادوا بعد ذلك الى عكا^(١) . وأقام الفرنج بعكا حتى طليعة سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) حيث أعدوا حملة موجهة الى دمياط بقيادة جان دي بريين ، حملتها سفن فريزية نزلت على بر الجيزة ، شرقي النيل ، أمام دمياط في صفر سنة ٦١٥ هـ (٢١ مايو ١٢١٨ م) . وسقطت دمياط في أيدي الصليبيين في ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ (٥ نوفمبر سنة ١٢١٩ م) ، وتخرج موقف السلطان الجديد الملك الكامل محمد بن العادل ، فعرض على الصليبيين خلال ذلك أن يتخلوا عن دمياط ويرحلوا عن مصر في مقابل تنازله عن بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبله واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين من مدن الساحل ما عدا الكرك ، فرفضوا هذا العرض السخي ، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمره بها ، كما طالبوا بالكرك^(٢) ، فاضطر المسلمون الى مواصلة القتال ، ولم يلبث الموقف أن تحول لصالح المسلمين ، وتم الصلح على أساس أن يسلم الفرنج دمياط في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) . وعندما بلغت الغرب المسيحي أنباء الخسائر التي مني بها الصليبيون في مصر ، صمموا على إرسال إمدادات جديدة ، إلا أنه لم يصل إلى الأراضي المقدسة أعداد كبيرة من حجاج الفرنج قبل سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، وهم الطلائع الأولى للحملة الصليبية السادسة ، الذين أقاموا في عكا ينتظرون قدوم الامبراطور فردريك الثاني الذي تولى قيادة هذه الحملة^(٣) . وكانت هذه الطلائع تتلطف على القيام بعمل

(١) ابن الاثير ، ج ١٢ ص ٣٢٢ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٨٧ -

الدبس ، ج ٦ ص ٢٢١

(٢) ابن الاثير ، ج ١٢ ص ٣٢٩ - أبو الفداء ، المختصر ، ج ٦ ص ٢٦ - المقرئزي ،

السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٠٧

(٣) Frederick, p. 94 - Deschamps, p. 225

هام يضمن تدعيم الدفاع عن الأراضي المقدسة وذلك عن طريق إقامة تحصينات ، وبينما كانت العناصر الألمانية منهم تؤسس قلعة الشقيف كانت جماعة أخرى من فرسان الاسبتارية وصلبيي الانجليز والفرنجة والإسبان يشيدون حصناً على جزيرة صغيرة تقع عند مدخل مدينة صيدا التي استولوا عليها بعد أن كانت مناصفة^(١) ، وهذا الحصن هو المعروف اليوم بقلعة البحر ، ويتكون من برجين رئيسيين يجمعهما سور . واعتبر المسلمون هذا التصرف خرقاً سافراً لشروط الهدنة التي تقضي بمناصفة صيدا . ويذكر مؤرخو الحركة الصليبية بأن البناء استغرق الفترة من يوم القديس مارتين حتى منتصف عيد الكاريم (الصوم الكبير) ، أي من ١١ نوفمبر ١٢٢٧ الى ٢ مارس ١٢٢٨ م^(٢) . وفي استيلاء الفرنج على صيدا يقول ابن الأثير : « وفي هذه السنة (٦٢٥ هـ) خرج كثير من الفرنج من بلادهم التي هي في الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد الى بلادهم التي بالشام : عكا وصور وغيرها من ساحل الشام ، فكثر جمعهم ، وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر أيضاً إلا أنهم لم تمكنهم الحركة والشروع في أمر الحرب لأجل أن ملكهم الذي هو المقدم عليهم هو ملك الألمان ولقبه أنبورو قيل معناه ملك الأمراء ، ولأن المعظم كان حياً ، وكان شهياً مقدماً ، فلما توفي المعظم كما ذكرناه وولي بعده ابنه ، وملك دمشق ، طمع الفرنج ، وظهروا من عكا وصور وبيروت الى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين ، وسورها خراب ، فعمروها واستولوا عليها ، وإنما تم لهم ذلك ، بسبب تخريب الحصون القريبة منها : تبين وهونين وغيرها^(٣) . ويقول المقرئ في السلوك : « (وفي سنة ٦٢٥ هـ) شرع الفرنج في عمارة صيداء - وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب - فعمروها وأزالوا من فيها من المسلمين »^(٤) .

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٤٨٠ - القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٧٨

(٢) Stevenson, p. 309 - Deschamps, p. 225 - سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١٠٠٣

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨

(٤) أو الفداء ج ٦ ص ٤٠ - السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٢٩

لم يسع السلطان الملك الكامل محمد بعد أن بلغته هذه الأخبار السيئة إلا أن يرحل من مصر ويصل إلى نابلس ، ويكتب من هناك إلى الملك الأشرف موسى وابن أخيه الناصر داود بن المعظم عيسى يبرر لهما سبب مجيئه بقوله : « إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج فلمنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا »^(١). ثم وصل رجال الامبراطور فريدريك الثاني إلى عكا في إبريل سنة ١٢٢٨ م (٦٢٦ هـ) في حين تخلف الإمبراطور في قبرص بعض الوقت . ثم قدم إلى عكا في سبتمبر سنة ١٢٢٨ ، وكان الكامل محمد قد صالح أخاه الملك الأشرف ، واتحدا أمام الخطر المشترك ، وترددت الرسل بينهما وبين فردريك عدة مرات ، واستقر الأمر في ربيع الأول سنة ٦٢٦ هـ (١٨ فبراير سنة ١٢٢٩ م) على أن تتقرر الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات ، على أن يقوم الكامل بتسليم بيت المقدس وبيت لحم والناصرية وتبنين وصيدا بأكملها إلى الصليبيين ، واشترط الكامل أن تبقى القدس كما هي عليه من الخراب وألا يحدد الفرنج سورها^(٢) ، ومنذ ذلك الحين آلت صيدا للمرة الثانية إلى الصليبيين .

(٣)

الفترة الثانية من الاحتلال الصليبي لصيدا

(٦٢٦ - ٦٩١ هـ / ١٢٢٨ - ١٢٩١ م)

(أ) اضطراب صيدا بين السيطرة الصليبية والإسلامية :

في الوقت الذي كانت الخلافات الداخلية بين أمراء البيت الأيوبي تنزق وحدة الصف الإسلامي خلال سني الهدنة ، كان المعسكر الصليبي يمر هو

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٤٨٠

(٢) Deschamps, p. 190 - Stevenson, p. 312 - Frederick, p. 95 - سعيد عاشور ،

ج ٢ ص ١٠١١

الآخر بظروف مشابهة ، فقد كان كل من القائدين جان دي ابلين صاحب بيروت وريتشارد فلانجيري ممثل فردريك الثاني ينافس الآخر في المطالبة بعرش مملكة بيت المقدس ، وتمكن ريتشارد بعد استيلاء جان دي ابلين على قبرص من النزول ببيروت والاستيلاء عليها ، وزحف الى صيدا وصور وعكا فاحتلها . ثم دخل باليان بن أرناط صاحب صيدا طرفاً في هذا النزاع مؤيداً جان دي ابلين الذي قدم من قبرص بجيشه إلى الشام ، ونزل جنوبي طرابلس في أواخر فبراير سنة ١٢٣١ م واسترجع بيروت وصيدا^(١).

أما الصراع بين المسلمين فكان أعمق وأكثر خطورة ، فقد توفي الملك الأشرف موسى بن العادل صاحب دمشق^(٢) في ٤ من المحرم ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) وتولى بعده الملك الصالح اسماعيل أمير بعلبك وبصرى الذي لم يلبث أن عزله الكامل محمد سلطان مصر واستولى على دمشق في آخر جمادي الأولي ٦٣٥ هـ (٢٩ ديسمبر سنة ١٢٣٨) . ثم توفي السلطان الملك الكامل في ٢٢ من رجب ٦٣٥ هـ (٩ مارس سنة ١٢٣٨) وخلفه ولده العادل الصغير المعروف بالعدل الثاني على مصر ودمشق ، ولم تتم توليته السلطنة ، برضاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي لم يلبث أن تخلص من أخيه ، وجعل نفسه سلطاناً على مصر ودمشق . وفي هذه الأثناء تمكن الملك الصالح اسماعيل من العودة إلى دمشق ، وأعلن سيادته عليها في سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ، ولما أحس بأنه غير قادر بما فيه الكفاية على الدفاع عن دمشق ضد الصالح أيوب فقد تحالف مع الصليبيين بعد أن وعدهم في مقابل مساعدتهم له بالتخلي لهم عن بعض المواقع الهامة التي كانت في سلطانه مثل قلعة شقيف أرلون^(٣) ، وقلعة صفد ومناصفة صيدا

(١) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١٠١٩

(٢) كان الأشرف موسى قد استولى على دمشق في سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٥ م) (راجع البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٤٨)

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٥٥

وطبرية وأعمالها وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل^(١). وفي سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) أقر السلطان الصالح التنازلات التي قام بها الصالح اسماعيل وعقد مع الفرنج صلحا أقر لهم فيه حقهم في امتلاك بيروت وصيدا والشقيف والجليل وطبرية وبيت لحم وناصرية وعسقلان. وفي سنة ١٢٤٤ هـ (٦٤٢ هـ) استعان الصالح نجم الدين بالحوارزمية ، فساعدوه وتمكن بفضلهم من الاستيلاء على بيت المقدس ، كما ساعدوه على استرجاع نفوذه على فلسطين ودمشق بعد أن هزموا الفرنج وقوات الصالح اسماعيل عند غزة في سنة ٦٤٢ هـ^(٢) (أكتوبر سنة ١٢٤٤) . وأدى سقوط القدس وهزيمة الفرنج إلى توجيه الدعوة إلى إرسال حملة صليبية جديدة ، وهي الحملة التي استجاب لها لويس التاسع ملك فرنسا ، ووجهها إلى مصر حيث نزل في ٦٤٦ هـ على بر دمياط .

ويشير ابن شداد في الأعلام الخطيرة إلى أن صيدا كانت في يد الملك المغيث يوسف حتى سنة ٦٣٠ هـ ، ويذكر ابن الفرات في تاريخه اسم أحد ولايتها في هذه الفترة وهو علي بن ديبس بن يوسف الحميدي (ت ٦٧٦ هـ)^(٣) ، ثم آلت صيدا بعد المغيث إلى الأشرف موسى بن العادل ، وظلت تابعة له حتى وفاته ، ثم قدمها الصالح اسماعيل للفرنج فعمروها وحصنوها^(٤) . ونستنتج مما ذكره ابن شداد في الأعلام الخطيرة أن الاتفاقية التي أبرمها الكامل محمد وفردريك الثاني لم تطبق بالنسبة لصيدا ، وأن صيدا ظلت

(١) المغريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٣ - ٦٤٨ C. Cahen, La Syrie du Nord, p. 17 Deschamps. وذكر ابن تغري بردي أن الصالح سلم الشقيف لصاحب صيداء الفرنجي (النجوم ج ٦ ص ٣٣٨) وذلك في سنة ٦٣٨ هـ ، ومعنى ذلك أن صيدا كان يتولاها صاحبها باليان الصيدائي ، ويتعارض ذلك مع ما ذكرناه في المتن

(٢) ابن كثير ، ج ١٣ ص ١٦٤ وما يليها

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ، مجلد ٧ بيروت ١٩٤٢

ص ١٠٧

(٤) الأعلام الخطيرة ، ص ١٠٠

تابعة للمسلمين في الوقت الذي كان يحكمها حاكم صليبي هو باليان بن أرناط ،
ثم أصبحت بمقتضى اتفاقية الصالح اسماعيل مناصفة بين الصليبيين والمسلمين ،
وبذلك نكون قد وفقنا بين النصوص العربية المتضاربة فيما يختص بمصير
صيدا في تلك الفترة التاريخية .

ثم انتزع المسلمون صيدا من الفرنج في سنة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م) ،
فالمقريري يذكر أن أهل دمشق عندما بلغهم نبأ استيلاء لويس التاسع
على دمياط ، استولوا على صيدا من الفرنج بعد حصار وقتال ، وتم ذلك
في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م)^(١) ، وتولاها من قبل الملك
الناصر صلاح الدين صاحب حلب ودمشق سعد الدين بن نزار الذي نجح في
الاستيلاء على شقيف تيرون عنوة من الفرنج^(٢) ، ولكن سيطرة المسلمين
على صيدا لم تلبث أن تفككت ، فإن ابن شداد يذكر في موضع آخر أن
الناصر صلاح الدين صاحب حلب أخذها من الصليبيين عنوة في سنة ٦٥١ هـ
(١٢٥٣ م) ثم صالحهم على أن تكون مناصفة^(٣) . والحقيقة أن هذه
الفترة تعتبر من أكثر فترات تاريخ صيدا الإسلامية اضطراباً ، ويبدو أنه
تعاقب على حكم صيدا حكام مسلمون وصليبيون ، لسهولة الاستيلاء عليها
بسبب تهمد أسوارها ، ولم يتم استقرارها في أيدي الصليبيين إلا بعد أن
أسس لويس التاسع قلعة البر والأسوار على النحو الذي نشير إليه فيما يلي .

انتهت حملة لويس التاسع على دمياط بالفشل ، ووقع الملك الفرنسي
أسيراً ، ولما افتدى نفسه رحل إلى عكا في ٧ مايو سنة ١٢٥٠ (صفر
٦٤٨) ، وقضى في سواحل الشام الجنوبية ما يقرب من أربع سنوات ،
يلتظر وصول الامدادات ، وفي فترة الانتظار قام بتحصين عكا وصيدا
وقيسارية ويافا وكيفا ، ففي يونيو سنة ١٢٥٣ كان يتولى صيدا وقتئذ

(١) المقريري ، السالك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧

(٢) الأعلام الخطيرة ، قسم ٢ ص ١٥٩ - Stevenson, p. 328

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٠

جوليان الصيداوي بن باليان ، فعهد لويس التاسع إلى سيمون دي مونتسيلييار ببناء القلعة البرية وسور المدينة وإنهاء صيدا من خرابها ، ولم يكف سيمون يبدأ في أعمال البناء حتى تعرضت صيدا لهجوم خاطف شه المسلمون ، ففر سيمون دي مونتسيلييار وجماعة قليلة من النصارى إلى قلعة البحر وتحصنوا فيها ، ولكنها كانت من الصغر بحيث لم تستطع أن تضم جميع سكان المدينة ، ولذلك سقط قائد الحامية الصليبية ولحقه ألفين منهم صرعى بسيف المسلمين ، وحمل المسلمون غنائم هائلة وعادوا بها إلى دمشق^(١) . وتفصيل الواقعة حسب رواة جوانفيل أنه عندما علمت جموع المسلمين المربطة أمام عكا بأن الملك الموجود في يافا يعمل على تحصين أحد أرباضها يهدف أيضاً إلى تحصين مدينة صيدا حيث توجد قوة عسكرية ضعيفة ، ساروا للقصد ما - أي للقصد صيدا - فلما سمع لورد سيمون دي مونتسيلييار رئيس رماة الملك وكبير رجاله في صيدا ذلك ، ارتد إلى قلعة صيدا الشديدة المناعة ، والمحاطة بالبحر من جميع نواحيها ، وكان ارتداده هذا من وحي بصيرته النافذة من جراء عدم وجود قوة كافية لديه تمكنه من مقاومة المسلمين الغزاة ، وصحب معه داخل القلعة أكبر عدد مستطاع من الناس ، ولكنهم كانوا قلة نظراً لصغر مساحة الحصن ، ثم « هاجم المسلمون المدينة دون أن يلقوا أية مقاومة لأنها لم تكن مسورة من جميع نواحيها ، وقتلوا أكثر من ألف رجل من جماعتنا ، وانطلقوا بما غنموه إلى دمشق ، فلما سمع الملك هذه الأنباء اشتد غضبه ، لأن المسلمين خربوا كل ما أقامه في صيدا ، ولكن هل يجدي غضبه في إصلاح ما جرى ؟ . استغل بارونات البلد غضب الملك لصالحهم ، إذ كان قد جمع هزله من قبل على الذهاب لتحصين رابية واقعة على الطريق الواصل بين يافا وبيت المقدس ، بحيث كان يقوم على هذه الرابية حصن

(١) Deschamps, p. 105, 260 - Lammens, t. I, p. 230 - Grousset, t. III, p. 505-507
Wolfgang Müller, p. 26 - الدبس ، ج ٦ ص ٢٧٤ - حسن حبشي ، الشرق العربي

بين شفي الرسي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٢٨

قديم في أيام المكابيين . لم يكن من رأي باروثات البلاد إعادة بناء هذه القلعة لأنها كانت على مسافة خمس فراسخ من البحر ، وهذا هو السبب الذي من أجله لم يكن في استطاعة إرسال الذخائر إليها بجرأ دون وقوعها في أيدي المسلمين الذين كانوا أقوى منا . فلما جاءت الأنباء إلى المعسكر بتخريب ضاحية صيدا تحدث باروثات هذه البلاد إلى الملك مبينين له أن إعادة تحصين صيدا التي ضربها المسلمون أجدى وأعظم قيمة من بنائه قلعة جديدة . فوافقهم الملك على رأيهم^(١) . ويضيف جوانفيل قائلاً : « عندما عدنا إلى صيدا من مانياس ، وجدنا الملك (الذي كان موجوداً في صيدا) قد أمر بأن تدفن في الحال حثث النصارى الذين قتلهم المسلمون ، كما اشترك هو بنفسه في حمل الجثث العفنة دون أن يسد منخاريه كما يفعل الآخرون . كذلك أمر بحلب العمال من جميع النواحي ، وأخذ بنفسه بتقوية المدينة بالأسوار العالية ، والأبراج الضخمة حتى إذا بلغنا المعسكر وجدناه قد عاين بنفسه الأماكن التي نسكن فيها^(٢) . وهكذا أتم الملك تحصين مدينة صيدا من كل فواحيها تقريباً في سنة ١٢٥٤ م ، وحصنها بالأسوار والأبراج وأقام لها الخنادق المتبعة من الداخل والخارج^(٣) ، واستغرقت هذه الأعمال الانشائية في صيدا نحو ثمانية شهور حتى صيام ١٢٥٤ م ، وقبل الانتهاء منها قرر لويس التاسع العودة إلى فرنسا^(٤) .

(ب) القاهرة المغولية المدحرة على صيدا (٥٦٥٨ - ١٢٥٩ / ١٢٦٠ م) : أسبابها ونتائجها :

يعتبر جولييان الصيدانوي آخر باروثات صيدا والشقيف من سلالة

(١) جوانفيل ، القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ،

القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٤

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٧

(٤) Stevenson, p. 331

ايوستاش جارفنيه الذي كان قد أقطعه بلدوين الأول ملك بيت المقدس صيدا في سنة ١١١٠ م ، فأبوه هو جيل (ت ١٢٤٧ م) ابن هاليان الأول (ت ١٢٣٩ م) وجده أرنط الصيداوي المشهور . وكان هوليان هذا صهراً لهيثوم الأول ملك أرمينيا إذ تزوج في سنة ١٢٥٢ م (١٢٥٠ م) من الأميرة ابوفيمي بنت ملك أرمينيا ، بينما تزوج يوهنن السادس صاحب أنطاكية (١٢٥١ - ١٢٧٥ م) بنتاً ثانية لهذا الملك^(١) . ومن المعروف أنه ظهر على مسرح الأحداث في هذه الفترة قوة جديدة خطيرة تحالفت مع قوى الصليبيين ضد المسلمين ، هي قوة المغول الذين أدت انتصاراتهم المتوالية تحت قيادة هولاكو ضد المسلمين وتقدمهم السريع في قلب العالم الإسلامي إلى قيام حبهة صليبية مغولية متحدة تضم المغول والأرمن والفرنج تستهدف غاية مشاركة هي سحق القوى الإسلامية في مصر والشام .

غير أن بارونات عكا لم تكن لهم نفس آراء يوهنن السادس الذي ارتبط مع صهره ارتباطاً وثيقاً وانساق وراءه في الحملة المغولية بقيادة هولاكو خان ثم كيتبغا الذي تسلم القيادة المغولية في الشام بعد قفول هولاكو إلى إيران ، فقد كان بارونات الجنوب مترددين بين محالفة المغول أو الالتزام موقف حيادي أو التزام الجانب الإسلامي ، وفضل هوليانت سيد صيدا والشقيف وحنا دي ايبيلين أمير بيروت بالإضافة إلى أمير جبيل وفرسان الداوية وسكان عكا في نهاية الأمر محالفة المسلمين^(٢) . ويرجع السبب الرئيسي في محاربتهم إلى جانب المسلمين إلى حادث كان له أبعد الأثر في تغيير نظرهم نحو المغول واعتبارهم برارة بالقياس إلى المسلمين المتحضرين^(٣) . وتفصيل ذلك أن هوليان الصيداوي الذي اتصف بسوء الخلق وسرعة الغضب والتهور الشديد ، استغل فرصة القتال الدائر

(١) Grousset, t. III, p. 595

(٢) هون لامرلت ، الحروب الصليبية والجهاد ، مقال في «دراسات إسلامية» ترجمة الأستاذ

أليس فريجه وآخرين ، بيروت ١٩٦٠ ص ١٣٦

(٣) فواد عبد المظني الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، بيروت ١٩٧٠ ص ٢٩٩

بين المغول والمسلمين لكسب مغنم عن طريق الإغارة من الشقيف على أراضي البقاع المشهورة بخصبها^(١). ويذكر المؤرخون أنه عبر الليطاني مع فرقة من عسكره وأغار على الأراضي الخصبية في نواحي مرج عيون ، وكانت تضم قرى إسلامية خاضعة للمغول ، فغدر الفرنج بأهالي هذه القرى ، وكان من الطبيعي أن يثور كيتبغا لهذا الاعتداء على أراض تابعة له أو تخضع لنفوذه ، ولم يفغر لجوليان تعديه عليه ، فأرسل عدداً من عسكره بقيادة ابن اخته لرد المعتدين وإزالة العقاب بهم حتى لا يقدموا مرة ثانية على الإغارة على تلك المنطقة ، وبلغتهم د. أ لا يسوء ليجتروا تقاليد المغول ، فاضطر جوليان إلى طلب مساعده حبرائه الفرنج ، واستطاع أن يوقع بالقائد المغولي في تهم وبحر عليه^(٢). وأثار هذا العدوان الإجرامي من جانب الفرنج الدس أن كيتبغا يعتبرهم حتى هذه اللحظة حلفاء للمغول ثائرة كيتبغا وقواته ، وسي المغول في غضبهم التحالف القائم بينهم وبين الفرنج ، وأصبح لا هم لكيتبغا سوى الانتقام من صاحب صيدا ، ودفعته شهوة الانتقام إلى مهاجمة هذه المدينة مركز العدوان ، فحشد قوة كبيرة من خيالة المغول وسار على مقدمتها قاصداً صيدا ثم هاجمها بحافله ، ودافع جوليان عن باب صيدا الرئيسي « باب عكا » الملاصق للقلعة البر ، حتى يتيح للأهالي الفرصة للتحصن بداخلها^(٣). واضطر جوليان في النهاية إلى التحصن بدوره بداخل القلعة المذكورة بعد أن قتل من تحته فرسان ، واتفق في هذه الآونة أن وصلت إلى ميناء صيدا سفيلتان جنويتان قدمتا من صور يقودهما فرسشيو حريمالدي فأسهمت في نقل فريق من الأهالي ممن لم تلتصق القلعة البرية لإيواءهم إلى قلعة البحر التي لم يكن في استطاعة خيالة كيتبغا الوصول إليها ، واقتحم المغول أسوار المدينة ، وتدفعوا عليها ، ودمروا الأسوار وسوها بالأرض ،

(١) راسيان ، ج ٣ ص ٢٩ - الباز العربي ، المغول ، بيروت ، ١٩٦٧ ص ٢٥٠

(٢) Deschamps, p. 194 - Frederick, p. 97 - الباز العربي ، المرحع السابق ، ص ٢٥٠

(٣) Deschamps, p. 194, 226

كما خربوا عمران المدينة ، وذبحوا كل من وجدوه أمامهم ، ثم إنهم نهبوا المدينة ولم ينسحبوا منها إلا بعد أن أضرموا النيران في مساكنها ودمروا أسوارها وحولوا المدينة التلسة إلى كومة خرائب وتلال أنقاض^(١) .

ومرت الموجة المغولية المدمرة وخلفت وراءها مدينة صيدا ركماً ، وعجز جوليان عن تعمير ما تخرب منها لقلّة أمواله ، فاضطر إلى بيع بارونيته لفرسان الداوية في سنة ١٢٦١ م^(٢) . وكان من نتائج وقعة المغول في صيدا أيضاً أن بارونات الفرنج الحائزين على كيتبغا لم يستطيعوا أن يخفوا عداهم وكراهيتهم للمغول ، ووقفوا من الممالك في مصر موقفاً مؤيداً عندما عزم هؤلاء على خوض المعركة الفاصلة ضد المغول ، ولم يترددوا في الإفصاح عن استعدادهم لبذل المساعدة والعون لهم ، وإمداد المظفر قطز سلطان مصر بالأجناد ، ويذكر مؤرخو العرب أن الفرنج خرجوا إليه بتقادم ، وأرادوا أن يسيروا معه نجدة ، ولكن قطز أنف من ذلك حتى لا يكون الفرنج قد بذلوا له فضلاً ينسبه بعد ذلك رسالته في تطهير الأراضي الإسلامية منهم وتحريرها من احتلالهم ، ولم يسعه إلا أن يشكرهم على عرضهم له وأخلع على رؤسائهم ، ثم استحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه^(٣) . ويعتقد الأستاذ الدكتور مختار العبادي أن أحوال الصليبيين في الشام لم تكن تسمح لهم بتقديم أي عون سواء للممالك أم للمغول ، إذ كانت أحوال مسيحيي الشام جميعاً لا سيما في عكا قد بلغت وقتئذ أقصى درجات السوء منذ أن قام النزاع بين الجنوية والبنادقة في سنة ١٢٥٦ ، وتطور بعد ذلك إلى حرب أهلية جذبت إليها جميع العناصر المسيحية ، فانضم البيازنة وفيليب دي مونتفورت أمير صور إلى الجنوية ، في حين انضم بوهند السادس أمير أنطاكية إلى

(١) Grousset, t. III, p. 596 - راسيان ، ج ٣ ص ٥٣٠ - Frederick, p. 97

(٢) Grousset, t. III, p. 639, 645

(٣) القريري ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٣٠ - الباز العريفي ، المغول ، ص ٢٥٩ - مختار العبادي ، قيام دولة الممالك الأولى في مصر والشام ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٦٢

البنادقة . كذلك انضم جماعات الفرسان الاسبتارية إلى الجنوية بينما انضم الداوية والتيوتون ومنظمة القديس توماس أكون ولازارس إلى البنادقة . وعلى الرغم من التوصل في ٩ أكتوبر سنة ١٢٥٨ إلى وضع حد لهذا الصراع بمعاهدة أبرمت بين الطرفين إلا أن هذه الحرب تركت الجبهة الداخلية للصليبيين في غاية الإعياء والتمزق^(١) .

ومع ذلك فإن موقف بارونات عكا المؤيد للمماليك كان من العوامل الرئيسية في تصديق الحلف المغولي الصليبي وانهياره ، كما كان له أعظم الأثر في انتصار القوى الإسلامية في عين جالوت . ويتهم جروسيه بارونات عكا وصيدا بالغباء ، فيعلق على تأييدهم للمماليك بقوله : « كانت مصلحة المسيحية تركز على تضامن قوى الصليبيين ومغول إيران ، وقد أدرك المماليك هذه الحقيقة ، ولكن بارونية عكا لم تفهمها ، إذ كان المغول في اعتبارهم هم العدو الأول لهم منذ أن نهبوا صيدا »^(٢) . وفي موضع آخر يقول : « اشترك هيثوم ملك أرمينيا وصهره بوهمند السادس أمير أنطاكية مع جيش هولأكو في غزو بلاد سورية الإسلامية ، ولو أن بارونات صيدا وعكا الأغبياء قلدوها في ذلك بدلاً من تأييدهم للمماليك والمحيازم لهم ضد المغول لكانت قوى المغول يقيناً قد اكتسحت أمامها النفوذ الإسلامي وأزالته من سواحل الشام »^(٣) . وينعت ديشام تصرف جوليان بالجنون ويرمي الفرنج في جنوبي الشام بعدم الفهم فيقول : « وهكذا كانت القطيعة بين كيتبغا والفرنج في بلاد الشام الجنوبية الذين لم يدركوا الدعم الهائل الذي يمكن أن يترتب على التحالف المغولي الصليبي ضد القوى الإسلامية في حين أدركه صاحب أنطاكية وملك أرمينيا . وتسبب هذا الجنون من جانب جوليان في إحداث نتائج خطيرة ، فإن

(١) مختار المبادي ، المرجع السابق ، ص ١٦٢

(٢) Grousset, t. III, p. 601

(٣) ibid. p. 631

بارونات الفرنج الساخطين على كيتبغا حققوا آمال المالك في القضاء على الاحتلال المغولي»^(١).

(ج) آثار الصليبيين في صيدا

تعرضت صيدا في العصرين الأيوبي ثم الصليبي الثاني لاضطرابات وهزات عنيفة مصدرها كثرة ما أصيب به عمرانها من تخريب وتدمير بسبب الغارات التي كان يشنها الصليبيون عليها في العصر الأيوبي أو المسلمون في عهدها الصليبي الثاني أو المغول في الفترة الأخيرة من هذا العهد. صحيح أن مدينة صيدا كانت قاعدة بحرية هامة يمكن الإفادة منها في تصريف منتجات البلاد في الخارج^(٢). ولكن حالة الاضطراب السياسي، الناتج من تناوب الحكم الاسلامي والصليبي فيها، بالإضافة إلى تدمير نواحيها المزروعة وتخريب عمرانها، كل ذلك ساعد على الإخلال باقتصاد هذه المدينة العريقة كما أدى إلى تقلص عمرانها وانكماش رقعتها، الأمر الذي أدى إلى نزولها من عداد المدن الكبرى إلى مصاف المدن الساحلية الصغرى. وعلى الرغم من اضطراب الأحوال السياسية وما ترتب على ذلك من اضمحلال المدينة اقتصادياً وعمرانياً، فإن صيدا ظلت تحتفظ في هذا العهد الصليبي بشهرتها في زراعة قصب السكر، وكانت لذلك بطبيعة الحال من بين المدن الرئيسية في إنتاج السكر^(٣)، كما احتفظت بقسط من شهرتها القديمة في صناعة الزجاج والخزف^(٤).

(١) Deschamps, p. 195

(٢) كانت صيدا مرسى هاماً في عهد تبعتها للصليبيين، ففي منتصف يوليو سنة ١١٧١ م نزل

الملك أمريك في مينائها بعد اتفاقه مع البيزنطيين في عهد الامبراطور مانويل كومنين

(Grousset, t. II, p. 579) وفي أول أكتوبر سنة ١١٧٦ نزل بها المركيز وليم

دي منتفراذ ذو السيف الطويل الذي تزوج سيلا أخت بلدوين الرابع (ibid. p. 634)

(٣) نقولا زياده، مدن عربية، بيروت ١٩٦٥ ص ١٧٦ - رواد الشرق العربي في القرون

الوسطى، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٦٥

(٤) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ص ٤١٤، ٤١٥

وكانت صيدا في هذا العصر تحف بسهلها المروج التي تكسوها الأزهار
والنرجس ، وقد وصف ابن الساعاتي الشاعر هذه المروج في وقت فرفيه
أحد أسرى الصليبيين من صيدا ، فلحقته خيل الوالي الأيوبي وأدركته ،
يقول ابن الساعاتي :

لله صيداء من بلاد لم تبق عندي هما دفينا
نرجسها حليلة الفيافي قد طبقت السهل والحزونا
وكيف ينجو بها هزيم وأرضها تنبت العيونا^(١)

ومن حيث البناء نلاحظ أن اضطراب الأحوال السياسية وتناوب
السيطرة الإسلامية والصليبية عليها ، كانت من العوامل التي دعت الى
توجيه المزيد من الاهتمام بالمنشآت الحربية ، ولكن معظم المنشآت الأيوبية
والصليبية اندثرت وتخربت إما بفعل الزلازل العنيفة التي دمرت بنيان
المدن الساحلية خاصة في عامي ٥٥٢ (١١٥٧ م) ، ٥٩٨ (١٢٠٢ م)^(٢) ،
أو بهدف عرقلة الصليبيين ومنعهم من الاستيلاء عليها ، أو نتيجة أعمال
انتقامية . على أن ما تبقى من هذه المنشآت في يومنا هذا ، ومعظمه من
العمائر الحربية — يشير الى طبيعة الصراع العنيف الذي احتدمت ثارته منذ
أن وطئت أقدام الصليبيين في أراضي صيدا . وليس من الصواب نسبة
كل هذه الآثار الحربية في صيدا الى الصليبيين ، كما هو سائد في الوقت
الحاضر ، فإن أسوار المدينة وقلعتها دمرت ثم أعيد بناؤها عدة مرات
عبر التاريخ الوسيط ، لاسيما ما يتعلق بالأسوار وبعض أجزاء من قلعة
البحر ، أما قلعة البر فهي بناء صليبي واضح المعالم ، لاسيما البرج الضخم
الذي يتوج التل ، وينبت منه السوران الرئيسيان المؤديان الى البحر .
ويشير جلبرت دي لافوي أن السور الذي كان يحمي صيدا من الشرق

(١) ديوان ابن الساعاتي (بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم الخراساني) ، تحقيق أنيس المقدسي ،

بيروت ، ١٩٣٨ ، الجزء الأول

(٢) يوسف ، مزهر ، ج ١ ص ٢٤٢

كان يتقدمه سور أمامي وخندق يتجه شرقاً ، وينتهي السور ببرج ضخيم مستدير يقع على ساحل البحر شمالي الجسر الذي يربط قلعة البحر بالبر^(١).

وفيا يلي دراسة موجزة لأثرين رئيسيين من العهد الصليبي هما قلعتا البر والبحر بالإضافة إلى تعريف بالكنيسة الصليبية التي يشغلها اليوم جامع صيدا الكبير . أما فيما يختص بالقلعتين ، فمن المعروف أن الصليبيين اهتموا اهتماماً خاصاً بالتحصينات الساحلية لتأمين العمليات البحرية ، وأنهم استخدموا فيها مخلفات الأسوار والقلاع الفينيقية والرومانية والإسلامية ، بل إن بعض التحصينات التي أقامها الصليبيون في صيدا كانت ترميماً للقلاع والحصون القديمة التي كانت تتميز بمواقعها الإستراتيجية الهامة ، وهو أمر سبق أن أشرنا إليه من قبل عندما تعرضنا لوصف ناصرخسرو لقلعة صيدا في العصر الفاطمي . ونلاحظ أن الصليبيين تأثروا في بنائهم لقلعتي صيدا ، لاسيما قلعة البحر ، بالصورة المتأصلة للعمارة الشرقية البيزنطية والإسلامية^(٢) ، فاستخدموا أبدان أعمدة قديمة من المعتقد أنها استحضرت من معبد فينيقي قديم كان محصناً للمقارت^(٣) ثم غرسوها في عرض بناء الجدران وأدمجوها بين صفوف البناء بحيث لا يظهر من الخارج سوى رؤوسها ، بهدف اتخاذها مساند لتدعيم هذه الجدران وهي فكرة معمارية كانت شائعة في العمارة الإسلامية^(٤) ، ولها أمثلة سابقة في بوابات القاهرة من العصر الفاطمي ، وفي قلعة قايتباي بالاسكندرية من العصر المملوكي الثاني وفي قلاع المماليك بطرابلس الشام^(٥) ، كما اتخذوا نظام الشرفات الحجرية البارزة على واجهات القلاع والبوابات تمكيناً للدفاع عن المداخل والبوابات وهي أكثر أجزاء القلاع تعرضاً للهجوم . ومن المعروف أن الشرفات

(١) Rey, Les colonies franques de Syrie aux XII^e et XIII^e siècles, Paris, 1883, p. 520

(٢) عبد الرحمن زكي ، القلاع في الحروب الصليبية ، ص ٥٠

(٣) Bruce Condé, See Lebanon, Beirut, 1960, p. 237

(٤) Robin Fedden, & John Thomson, Crusader Castles, London, 1957, p. 50

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٤٤٥

البارزة كانت من الموضوعات الشائعة في العمارة البيزنطية ، واقتبسها العرب في تحصيناتهم وبأعلى بوابات أسوارهم ، فظهرت في بوابات القاهرة من العصر الفاطمي ، كما ظهرت في قلعة الجبل التي أسسها صلاح الدين بن أيوب في القاهرة ، وفي قلعة قايتباي بالاسكندرية . ويشير جوفانفيل إلى أن مهندس لويس التاسع أقام أمام الأسوار الرئيسية لصيدا أسواراً أمامية ، وهو نظام كان شائعاً أيضاً في العمارة الحربية عند البيزنطيين ، ثم طبقه العرب في تحصيناتهم وساد استخدام الأسوار الأمامية في أسوار المغرب والأندلس بوجه خاص^(١) ، وعرفت هذه الأسوار الأمامية في الأندلس بالحزام البراني أحياناً وبالبربخانة أحياناً أخرى . وكان يفصل الأسوار الرئيسية عن الأمامية دروب أو فصلان يستخدمها المدافعون كخط دفاعي أمامي ، كما كان يتقدم الأسوار الأمامية خندق يدور بها ويساعد على عرقلة تقدم العدو نحو سور المدينة الرئيسي .

قلعة البحر :

أسسها جماعة من الصليبيين الفرنجة والانجليز والإسبان ، على صخرة ناتئة كبيرة منعزلة في البحر أشبه بجزيرة صغيرة ، تبعد عن الساحل بنحو ثمانين متراً ، وقد استغرق بناؤها ما يقرب من أربعة أشهر أي في الفترة ما بين ١١ نوفمبر سنة ١٢٢٧ ، و ٢ مارس سنة ١٢٢٨ م^(٢) . وأول من قام بدراسة هذه القلعة الصليبية المؤرخ والعالم الأثري ري Rey إذ وضع لها تخطيطاً هاماً في سنة ١٨٧١ م ، ثم تبعه في هذا العمل الكبير الأستاذ بيير كوبل ، وأخيراً قام الأستاذ ديشام Deschamps بدراسة علمية منظمة معتمداً على البحث الذي قدمه ري اعتماداً كلياً . وتتكون قلعة البحر أساسياً من برجين : الأول برج ضخم (أ) يقع في الجهة الغربية أو الركن الغربي من القلعة ، وهو برج إسلامي واضح المعالم

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الأندلس ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٣٤

(٢) Deschamps, p. 17

أعتقد أنه من العصر المملوكي يتميز بأن واجهته الجنوبية المطلة على مدينة صيدا مدورة ، ويتصل به من الجهة الشمالية برج آخر مربع الشكل (ج) فتحت في جداره الشمالي المطل على البحر منافذ للسفاح مخرطية الشكل . والثاني برج متوسط الحجم (ب) كان يصل بينه وبين البرج الرئيسي (أ) سور لم يتوصل ري إلى العثور على آثاره .

وكان يصل بين القلعة والساحل جسر قائم على ركائز ضخمة يبدأ من مدخل القلعة وينتهي على مسافة قدرها نحو ٣٥ متراً عند الركيزة (د) لم يتبق من ركائزه الأصلية سوى الركيزة الأولى (هـ) التي ينتهي عندها الجسر . ولستنتج من ذلك أن الفرنج لم يمدوا جسراً حتى البر وإنما مدوه حتى الركيزة (د) ، وكانت الركائز الأصلية كما تبدو ممثلة في الركيزة الباقية من العصر الصليبي (هـ) مزودة برؤوس بارزة مدببة من الجهة الشرقية . ويعتقد ري أن القسم الممتد من الركيزة (د) حتى البر ويبلغ طوله ٤٢ متراً تقريباً حديث البناء وأنه كان في الأصل مجرد قنطرة من الخشب من السهل على حامية القلعة تدميرها في أوقات الخطر ، حتى لا يتمكن المهاجمون من الوصول إلى أسوار القلعة . ومن المعروف أن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي عندما أراد الاستيلاء على القلعة في سنة ٦٩٠ هـ ، أقام جسراً من البر يصل بين الساحل ومدخل القلعة التي كانت منعزلة وقتئذ عن الساحل .

ويعتقد الأستاذ ديشام أن القسم الأدنى من البرج الرئيسي (أ) صليبي الإنشاء ، وأن القسم الأعلى منه إسلامي^(١) . وأعتقد شخصياً أن هذا البرج إسلامي البناء كله ، وأنه أقيم في العصر المملوكي الأول المعروف بعصر دولة المماليك البحرية ، وأن بناءه أضيف إلى القلعة بدليل أن الجدار الشمالي لهذا البرج يتعامد ويقطع بأثكة قديمة ويتر عقدتها الجنوبي بترأ تماماً مما يدل على أنه مستحدث ، وسنعود إلى دراسته عندما نتعرض لدراسة

الآثار الباقية من العصر المملوكي . أما البرج المتوسط الحجم (ب) فصليبي الطابع وهو برج مستطيل الشكل طوله ٢١ متراً وعرضه ١٧ متراً ، صفّت على واجهته الخارجية أربعة صفوف من أبدان أعمدة جرانيتية أدمجت في سمك البناء ، وقد أشرنا من قبل إلى هذه الظاهرة وذكرنا أنها من الخصائص البارزة في العمارة الحربية الإسلامية وشاعت في المنشآت الحربية التي أقامها بناء مسلمون في عصر الحروب الصليبية ، واقتبسها الصليبيون في كثير من منشآتهم الحربية في عسقلان وقيسارية وصور وجبله وجبيل واللاذقية . ويتقدم البرج (ب) شمالاً بناءً (ز) يمكن الدخول إليه عن طريق خوخة لها ممر مزود بمشط . ويتقدم البناء (ز) بناء آخر (ح) ، وقد عثر الأستاذ كوبل بجذاء الواجهة الشمالية كلها للجزيرة ما بين البرج (ج) والبناء (ح) على آثار قاعة (ط) يبلغ طولها نحو خمسين متراً ، وكانت تنقسم فيما يظهر إلى ست أساطين ، وكان يدعم جدارها الذي يغلق الجانب الجنوبي منها هـ أكتاف أو دعائم قائمة على قاعدة ارتفاعها ١٠,٢٠ متراً . وعثر في هذا المكان على مسند (كابولي) يزدان بصورة نصفية لشخص . كذلك نشر الأستاذ كميل انلار في سنة ١٩٢٦ صوراً منقولة لمسند وتيجان أعمدة تزدان بتوريقات عثر عليها في خرائب قلعة البحر ، والمسند المذكور محفوظ اليوم بمتحف بيروت ، وهو عمل فرنسي الطابع يرجع تاريخه إلى عهد الملك لويس التاسع ، ووجود هذا المسند في قلعة البحر دليل على أن القاعة المذكورة أضيفت إلى القلعة في فترة الأعمال الإنشائية التي قام بها لويس التاسع أثناء إقامته بصيدا^(١).

قلعة البر :

تعرف هذه القلعة أيضاً بقلعة لويس التاسع أو القديس لويس^(٢) ، وقلعة صيدا الفوقا وقلعة المعزة^(٣) ، بناها لويس التاسع أثناء فترة إقامته

(١) ibid. p. 232

(٢) ibid. p. 227

(٣) أحمد عارف الزين ، تاريخ صيدا ، ١٣٣١ هـ ، ص ١٠٣

بعكا وصيدا فيما بين ١٣ مايو سنة ١٢٥٠ الى ٢٤ أبريل سنة ١٢٥٤ . ولا تحتفظ هذه القلعة اليوم بعناصرها الصليبية القديمة بسبب تدمير القسم الأعظم منها وما سببته الترميمات العديدة وأعمال الإصلاح والتجديد التي طرأت عليها منذ أن قام الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بتدميرها هي والقلعة البحرية في سنة ١٢٩١^(١) . زد على ذلك أن القلعة البرية بنيت بناء سريعا بطريقة غير متقنة على الإطلاق ، واستخدمت في بنائها قطع من الحجارة الصغيرة غير المنتظمة ، مما ساعد على سرعة تخریبها . وينسب الأستاذ ديشام أعمال الترميم فيها الى الأمير فخر الدين المعني الثاني في القرن ١٧ م ، وبينما يعتقد كل من ري وكوبل أن أسس البناء من بقايا القلعة الصليبية ، فإن الأستاذ ديشام يعتقد بدوره أن القلعة أقيمت في موضع جبانة صيدون القديمة .

وتخطيط سور القلعة البرية يتخذ شكل قوس نصف دائري يطل قطره إلى جهة المدينة في حين يتجه وجه القوس الدائري نحو الجنوب . وتبرز الواجهة المدورة للبرج الأعظم الذي يؤلف القلعة نفسها في وسط القوس الدائري لسياجها ، والبرج المذكور بناء ضخيم يبلغ طوله ١٧ متراً ، وعرضه ١٤ متراً ، وسمك جدرانه ١,٥٠ متراً ، ويتجاوز في بروزه الواجهة بنحو مترين من بناء أصم لا تتخلله منافذ للسهم أو أي نوع من الفتحات ، ويحمي الجدارين الشمالي والشرقي أربع منافذ للسهم . وتتداخل في بناء القلعة الكثير من العناصر المعمارية الإسلامية^(٢) .

جامع صيدا الكبير :

أذن بارونات صيدا في سنة ١٢٦٠ لمنظمة فرسان القديس حنا الاسبتارية ببيت المقدس أن يقيموا بيتاً للاسبتارية على الصخور المطلة على

(١) الدويهي ، ص ١٥١

(٢) Deschamps, p. 229

الجانب الغربي من ساحل صيدا ، وكان بيت الاسبتارية المذكور في حد ذاته أشبه بقلعة حربية لها كنيسة الخاصة^(١) . والجامع الإسلامي بصيدا يشغل قسماً من الكنيسة المستطيلة التي بناها الاسبتارية في القرن الثالث عشر الميلادي^(٢) ، ويدعم جدران الجامع من الخارج ركائز ضخمة هي نفس الركائز القديمة للكنيسة الاسبتارية ، وقد طغى البحر على هذا البناء في سنة ١٨٢٠ ، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك^(٣) .

(١) Bruce Condé, p. 239

(٢) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص ٣٨٢

(٣) عارف الزين ، تاريخ صيدا ، ص ١٠٨

الفصل الرابع صيدا في عصر المماليك

١ - معركة التحرير

- (أ) صيدا في السنين الأخيرة من عهدها الصليبي
- (ب) الأشرف خليل يسترد صيدا ويدمر أسوارها وتحصيناتها في ٦٩٠ هـ

٢ - وضع صيدا الإداري والاقتصادي

- (أ) الوضع الإداري
- (ب) اضمحلال العمران في صيدا
- (ج) الوضع الاقتصادي

٣ - غارات القبارصة والجنوية على صيدا وأثره في اهتمام المماليك بإعادة تحصينها

- (أ) غارات القبارصة على صيدا
- (ب) غارات الجنوية على صيدا
- (ج) اهتمام المماليك بإعادة تحصين صيدا

الفضل الرابع صَيْدًا فِي عَصْرِ الْمَمَالِك

(١)

معركة التحرير

(١) صيدا في السنوات الأخيرة من عهدها الصليبي :

انتصرت جيوش الممالك انتصاراً حاسماً على جيوش المغول وحلفائهم من الأرمن وفرنج أنطاكية في موقعة عين جالوت المشهورة التي جرت في ٢٦ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) . وفي نفس هذا العام ارتقى الأمير المملوكي ركن الدين بيبرس البندقداري عرش السلطنة في مصر والشام باسم السلطان الملك الظاهر ، بعد أن وثب على السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بطل وقعة عين جالوت .

واتبع بيبرس مع الصليبيين سياسة تقوم على العنف والصرامة مستهدفاً إخراجهم نهائياً من أراضي الشام ، إذ لم يكن قد نسي بعد الدور الذي لعبه بوهمند السادس ومن حذا حذوه من الصليبيين لمساندة المغول ، ورأى أن يبدأ بتوجيه أولى ضرباته إلى إمارة أنطاكية ، لمعاقبة أميرها على مخالفته للمغول ، فلقد كان بيبرس يعتبر بوهمند العدو الأعظم له من بين جميع أمراء الفرنج ؛ ومنذ سنة ٦٦٠ هـ (١٣٦٢ م) بدأ بيبرس عملياته الحربية في أنطاكية ، فغزاها الأمير شمس الدين سنقر الرومي في هذه

السنة ، وهاجم ميناءها ، وعاد ومعه ما يزيد على ثلاثمائة أسير^(١). وفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) استولى بيبرس على مدينة قيسارية وأرسوف ، وفي العام التالي (٦٦٤ هـ) هاجم قلعة صفد وتمكن من الاستيلاء عليها . وفي الجهة الشمالية هاجمت قواته مدينة طرابلس وبلاد السواحل وحصن الأكراد واستولت عليه ، كما استولت على قلعة حلبا والقليعات^(٢) . وفي هذه السنة وجه الأمير إيتامش إلى صيدا وأغار عليها وكثرت المغامرات في يده^(٣) . ويذكر صالح بن يحيى أن الأمير جمال الدين حجي عهد إلى بدر الدين بن رحال بالمراقبة في قبالة فرنج صيدا وبيروت والمثاغرة لهم ، كذلك أورد صالح بن يحيى نص كتاب زي الدين آقوش النجيبى نائب الشام إلى زين الدين صالح بن علي بن بختر أمير الغرب في زمن الظاهر بيبرس ، وإلى جمال الدين حجي يأمرهما فيه بعدم تفريق جموعهما وإعادة جمعها وتوجيهها إلى جهة صيدا ، والاجتهاد في المساعدة على حفظ هذا الثغر ، كذلك كتب بيبرس إلى زين الدين وجمال الدين حجي كتاباً يأمرهما فيه بالإستمرار في الخدمة والنصح لدولته ويعدهما بالمكافأة لقاء إطلاعه على الأخبار والمتجددات ، وهو بذلك يهدف إلى اتخاذها عينين له يتجسسان له أخبار الفرنج وأن يكونا مثاغرين على صيدا وبيروت^(٤).

وهكذا بدأ بيبرس يطبق سياسة من الصرامة تجاه الصليبيين ، وعندما أيقن هؤلاء بتحول ميزان القوى إلى جانب المماليك طلبوا منه الصلح ، ووصلت رسالتهم إلى السلطان في سنة ٦٦٥ هـ يعرضون عليه المناصفة في صيدا وهدم الشقيف . وتردد السلطان بيبرس بادئ ذي بدء في إجابتهم إلى طلبهم ، ولكنه لم يلبث في العام التالي أن قبل عرضهم ، وأبرمت

(١) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١١٨ - منتخبات من كتاب عقد الجمان

لبدر الدين العيني في R. H. C. t. II القسم الاول ، ص ٢٢١ - طرابلس الشام ، ص ٢٦٦

(٢) طرابلس الشام ، ص ٢٦٧

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٥٤٥

(٤) صالح بن يحيى ، ص ٦١ - ٦٤

معاهدة للصلح مدتها عشر سنوات ، في أول سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) بينه وبين صاحب عكا ، اتفق فيها على أن بلاد صيدا الوطأة (السواحل) للفرنج والجبلية للسلطان^(١).

وظلت صيدا بمنأى عن الغزوات الإسلامية المدمرة في السنين الأخيرة من الصراع بين الفرنج والمسلمين ، ومع ذلك فقد اتخذت جانباً في النزاع الخطير الذي نشب بين بوهمند السابع صاحب أنطاكية وطرابلس (١٢٧٥ - ١٢٨٧ م) ومقدم الداوية في صيدا جيوم دي بوجيه ومعه جاي الثاني المعروف بسيركي صاحب جبيل في سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، وتعرضت صيدا لإبان هذا النزاع لهجوم شنته ١٥ سفينة سيرها بوهمند السابع ، ونزلت قواته عند قلعة البحر حيث وقعوا أسرى في أيدي الداوية ، وقد تعرضت صيدا بسبب هذه الغارة لأضرار فادحة^(٢).

واستمر الصراع قائماً بين بوهمند السابع ومقدم الداوية ومعه صاحب جبيل حتى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ، فقد حاول جي في هذه السنة الاستيلاء على طرابلس عن طريق المفاجأة ، فخرج في ثلاث حملات تحمل فرقة من العسكر عدتهم ٢٥ من الخيالة ، و ٤٠٠ من الرجال كلهم من مواطنيه الجنوبية ، فرحل سراً من جبيل في ١٢ يناير ، ووصل في الصباح أمام طرابلس ، ولكن بوهمند حاصره هو ورجاله ، وألقى القبض عليه ، وعاقب الجنوبية بأن أمر بسمل أعينهم ، أما مصير جي فكان أبشع ، إذ دفن هو وأخواه وابن أخته أحياء في حفرة في آخر فبراير سنة (١٢٨٢ م)^(٣).

(١) منتخبات من كتاب عقد الجمان لبدر الدين العيني ، في كتاب R. H. C., t. II, partie Ière ص ٢٢٥ ، ٢٣٦

(٢) Frederick, p. 98 - Deschamps, p. 226 - Grousset, t. III, p. 689

(٣) ابن تغري بردى، ج ٧ ص ٣١٦ حاشية ٢ - Stevenson, p. 348 ، راجع تفاصيل المغامرة في: Michaud, Histoire des Croisades, vol. IV, Paris, 1822, p. 650
Grousset, t. III, p. 689 - 690 - رنسيان ، ج ٣ ص ٦٥٨ وما يليها

وفي نفس الوقت قام صراع بين هيو الثالث ملك قبرص وبيت المقدس وبين الداوية ، وساعدت هذه الخلافات والحروب الأهلية على زيادة اضمحلال إمارات الفرنج ، ومهدت السبيل أمام لاطين الممالك منذ أيام المنصور سيف الدين قلاوون للتغلب عليهم وطردهم نهائياً من بلاد الشام .

وكان قلاوون منذ توليه السلطنة يحرص على مهادنة الصليبيين حتى يؤمن ظهره عندما يتفرغ لرد العدوان المغولي على الشام ، ولذلك لم يتردد في الموافقة على تجديد الهدنة بينه وبين فرسان الإسبتارية بعكا في ٢٢ من المحرم سنة ٦٨٠ هـ (٣ مايو سنة ١٢٨١ م) ، وبينه وبين بوهمند السابع لمدة عشرة سنوات كاملة . وفي ٥ ربيع الأول سنة ٦٨٢ هـ (٣ يوليو ١٢٨٣ م) عقدت الهدنة بين قلاوون وولده الصالح علاء الدين علي وبين حكام مملكة عكا وصيدا وعثليت وبلادها وهم كفيل المملكة بعكا السنجال أودو Le Sénéchal Odo Poilechien وكان يحكم نيابة عن الملك شارل الأنجوي Charles d'Anjou^(١) ، ثم « المقدم إفريركليام ديباجوك مقدم بيت الديوية ، والمقدم إفرير نيكول للورن (Frère Nicolas Le Lorgne) مقدم بيت الاسبتار والمرشان إفرير كورات نائب مقدم الإسبتار »^(٢) . ونصت الهدنة على أن « صيدا القلعة والمدينة والكروم وضواحيها وجميع ما ينسب إليها يكون خاصاً للفرنج ويكون لها من البلاد خاصاً خمس عشرة ناحية ، وما في الوطأة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين ومنى ومياه جارية وسكور لهم بها عادة قديمة تسقي أراضيهم يكون خاصاً لهم وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها تكون لمولانا السلطان ولولده بكالها » . واشترط قلاوون في الهدنة على ألا يقوم الفرنج بتجديد سور ولا قلعة

(١) E. J. King, The Knights of Hospitallers in the Holy Land, London, 1934, (١) p. 284 - Stevenson, the Crusaders, p. 346

(٢) المقرئزي ، السوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٨٦ - القلقشندي ، ج ١٤ ص ٥٢ - محيي الدين ان عبد الظاهر ، تشریف الأيام والمصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٣٤

ولا برج ولا حصن قديم ولا مستجد في غير عكا وعثليت وصيدا بما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث^(١). وفي سنة ١٢٨٩ تجددت الهدنة بين قلاوون ومملكة بيت المقدس وقبرص بعد أن اعتذر هنري لاشتراك المنظمات الدينية العسكرية في نقض الهدنة ، ولكن فرنج عكا نكثوا الهدنة عندما قتلوا جماعة من تجار المسلمين كانوا قد قدموا الى عكا بتاجر تمسكاً بالهدنة والمهيد ومن جعلتهم تجار قدموا في البحر ومعهم طائفة من المماليك أرسلوا هدية الى السلطان^(٢). ويذكر رنسيان أن تجديد الهدنة بين الملك هنري وقلاوون أعاد بعض الثقة في عكا ، فعاد التجار المسلمون يمارسون تجارتهم في اطمئنان ، وبدأ تجار دمشق يرسلون قوافلهم من جديد الى الساحل ، كما توافد المزارعون المسلمون بمنتجاتهم الى أسواق عكا. وحدث أن وصل في هذه الآونة محاربون صليبيون جدد في صيف عام ١٢٩٠ م يمثلون شرادم من رعايا الفلاحين والمتعطلين قدموا من لمبارديا وتسكانيا ممن تطلعو الى المغامرة وعرفوا بالعريضة والإخلال بالنظام. فأثاروا بمقدمهم الارتباك والفوضى في عكا ، وأخذوا يهاجمون تجار المسلمين ، وانطلقوا في الشوارع يذبحون كل من وجدوه منهم ، وعندما بلغت أنباء هذه المذابح الوحشية مسامع السلطان ، غضب وصمم على القضاء نهائياً على إمارات الفرنج في الشام^(٣) ، ثم أصدر أمره بتجهيز الجيوش وآلات الحصار ، ولكنه توفي في سنة ١٢٩٠ وخلفه ابنه الأشرف خليل الذي وعد بإنفاذ الحملة التي أعدها أبوه .

(ب) الأشرف خليل يسترد صيدا ويدمر تحصيناتها

في سنة ١٢٩٠ هـ (١٢٩١ م) :

رأينا أن الصليبيين نقضوا الهدنة ورفضوا أن يسلموا المتسببين في ذلك

(١) ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص ٤١ - القرينزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٨٥ وما يليها

(٢) صالح بن يحيى ، ص ٢٢

(٣) رنسيان ، ح ٣ ص ٦٩٢

الأمر الذي حل السلطان المنصور قلاوون على القيام بتعبئة جيوشه بهدف القضاء على بقايا الإمارات الصليبية في الشام ، ولكنه توفي قبل أن يشرع في إنفاذ الحملة ، وعندما اعتلى ابنه الأشرف خليل دست السلطنة قضى الشهرين الأولين في توطيد ملكه ثم تحرك على رأس حشوده في مارس ١٢٩١ وقد زودها بكل آلات الحصار والقتال ، ووصلت قواته أمام أسوار عكا (في ٥ أبريل) التي وجه إليها أولى ضرباته ، ونجح في الاستيلاء عليها في ١٧ جمادى الآخر سنة ٦٩٠ هـ (١٨ مايو سنة ١٢٩١ م) . ويسجل سقوط عكا المركز اللاتيني المنيع نهاية استعمار الفرنج للشام ، وقاتل فرسان الداوية والاستبارية قتالاً ضارياً ، ولكن مواقعهم الأخيرة لم تلبث أن سقطت في أيدي المسلمين في أقل من ثلاثة أشهر ، وفكر الداوية في نقل مركز المقاومة إلى صيدا حيث لجأ إليها نفر من المدنيين ، نجوا من مذابح عكا مع قائدهم ثيبوت جودان وطائفة قليلة من المدنيين ، وحمل ثيبوت معه كنوز الداوية وأموالهم وذخائرهم . واختير ثيبوت في صيدا مقدماً لجماعة الداوية بدلاً من المقدم جيوم دي بوجيه الذي سقط صريعاً في الهجوم الأخير الذي شنّه المسلمون على عكا في ١٨ مايو . وبينما كان المماليك يدمرون عكا ويخربون أسوارها وتحصيناتها ويسوونها بالأرض ، كانت قوات الأشرف خليل بقيادة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي تسير نحو صيدا ، وفكر الداوية بادىء ذي بدء في الدفاع عن صيدا التي كانت جزءاً من أملاكهم ، وكان المقدم الجديد ثيبوت جودان قد تحصن فيها ومعه كنوز الداوية ، وتجمع فيها الناجون من مذابح عكا . وعندما وصلت طلائع القوات المملوكية خرج الأهالي من المدينة وتحصنوا مع الداوية في قلعة البحر ، ومن هناك ركب ثيبوت جودان سفينة حملته إلى قبرص بعد أن وعد إخوانه والأهالي المحصورين بأنه سيعود بإمدادات تعينهم على الصمود ، وطال انتظار المدافعين عن القلعة لهذه الإمدادات دون جدوى ، في الوقت الذي أخذ علم الدين سنجر يقيم رصيفاً بين البر والقلعة للوصول إليهم ، وعندئذ يئس المدافعون عن القلعة والحامون لها من الداوية والأهالي من قدوم أي مدد ، وركبوا في ليلة حالكة الظلام

سفنهم الى قبرص ، وعلى أثر ذلك استولى المماليك على قلعة البحر المهجورة في ١٥ رجب سنة ٦٩٠ هـ (١٤ يوليو ١٢٩١) ودمروا تحصيناتها^(١) .

وفي فتح صيدا على أيدي المماليك يقول المقرئزي : « وفتحت صور وحيفا وعثليت وبعض صيدا بغير قتال ، وفر أهلها خوفاً على أنفسهم ، فتسلمها الأمير علم الدين سنجر الشجاعى في بقية جمادى الأولى ، فقدمت البشائر بتسليم مدينة صور في ١٩ جمادى الأولى ، وبتسليم صيدا في العشرين منه ، وأن طائفة من الفرنج عصوا في برج منها (المقصود به قلعة البحر) فأمر السلطان بهدم صور وصيدا وعثليت وحيفا »^(٢) . وفي موضع آخر يقول : « وكان الأمير سنجر الشجاعى نائب الشام قد سار في رابع رجب الى صيدا ، وحاصر البرج حتى فتحه في ١٥ ، وعاد الى دمشق يوم رحيل السلطان منها »^(٣) .

ويشير شيخ الرتبة الدمشقي الى أن فتوح الأشرف خليل لعمار وعثليت وحيفا واسكندرونة وصور وصيدا وبيروت وجبيل وأنفة والبترون وصرفند استغرقت ٤٧ يوماً^(٤) . ويجمع مؤرخو العرب على أن السلطان الملك الأشرف خليل أمر بهدم هذه المدن جميعاً بعد أن دخلتها جيوش المسلمين ، فهدمت^(٥) . وهكذا تحولت صيدا مرة أخرى الى خرائب ، ومن المعروف أن سلاطين الأيوبيين^(٦) والمماليك كانوا يحرصون

(١) Deschamps, p. 227 - Grousset, t. III, p. 762 - رنسيان ، ج ٣ ص ٧١١

(٢) المقرئزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٦٥ ، ٧٦٦

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٦٩ - ابن كثير ، ج ١٣ ص ٣٢١ - ابن الفرات ، تحقيق الدكتور

قسطنطين زريق ، ج ٨ بيروت ١٩٣٩ ص ١١٣ ، ١٢١

(٤) شيخ الرتبة الدمشقي ، كتاب نخبة الدهر ، ص ٢١٣

(٥) ابن كثير الدمشقي ، ج ١٣ ص ٣٢١ - أبو الفداء ، المختصر ، ج ٧ ص ٣٢ - ابن

الفرات ، ج ٨ ص ١٢١ - المقرئزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١٧٦ - الدويهي ، ص ١٥١

(٦) سق للملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق أن أرسل الحجارين والنقابين الى =

على تدمير التحصينات الساحلية بوجه خاص حتى لا يهيئوا المجال بتركها سليمة دون هدم للصليبيين معاودة الاستيلاء عليها والتحصن فيها من جديد ، وهو تقليد بدأه عمرو بن العاص عندما خرب سور الاسكندرية بعد أن عانى كثيراً من الصعاب في استردادها سنة ٢٥ هـ من أيدي الروم الذين كانوا قد انتقضوا على المسلمين وتحصنوا فيها^(١) . وكان الأشرف خليل إذ أمر بهدم أسوار هذه المدن مدفوعاً بخوفه من أن يعاود الصليبيون الذين فروا الى جزيرتي قبرص ورودرس وضع أقدامهم على الساحل . وعندما أعيد بناء مدينة طرابلس في نيابة أسندمر كرجي اختيرت المدينة الجديدة في موضع داخلي لتصبح مدينة ذات حامية ، وحدث نفس الشيء بالنسبة لصيدا ، فقد وكل الأشرف بحراسة الساحل من زاوية اطرابلس حتى صيدا الى بعض عشائر التركمان والمسلمين تحوطاً من عودة الافرنج الى هذه الجهة واستئناسهم نصارى لبنان ، فتكون تلك العشائر فاصلة بين الفرنج والنصارى الوطنيين^(٢) .

وأول من تولى على صيدا وبيروت في أول الفتوحات الأشرفية وال يقال له الدمياطي^(٣) ، ثم توالى عليها الولاة بعد ذلك .

= القدس ، فخر بأسوارها خوفاً من أن يقصدها الفرنج فلا يقدر على منعهم (أبو الفداء ، ج ٦ ص ١٨) . كذلك خرب المسلمون أسوار دمياط في شعبان سنة ٦٤٨ هـ لما حصل للمسلمين عليها من الشدة مرة بعد أخرى وأسسوا مدينة في البر سموها المنشية (نفس المصدر ، ص ٨٨) . وعندما افتتح قلاوون مدينة طرابلس أمر بها فهدمت ودكت الى الارض سنة ٦٨٨ (نفس المصدر ص ٢٩) ، ونلاحظ أن مدينة صيدا خربت أكثر من مرة في العصر الايوبي منذ أن استولت عليها قوات صلاح الدين في سنة ٥٨٢

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٦٠ - ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والاندلس ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١ ص ٢٣٥ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٦٠ - السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، طبعة مصر ١٣٢١ هـ . ج ١ ص ٧٨

(٢) الدبس ، ج ٦ ص ٣٠٨ - Lammens, t. II, p. 17 - Ira Marvin, p. 16

(٣) صالح بن يحيى ، ص ١٠٤

(٢)

وضع صيدا الإداري والاقتصادي

(أ) الوضع الإداري :

أصبحت صيدا منذ أن دخلتها جيوش المماليك ولاية جلية يتولاها أمير طبلخاناه أحيانا ، وأمير عشرة أحيانا أخرى ، وكان بقلعتها بحرية وخيالة وكشافة وطوائف من المستخدمين^(١) . وكانت ولاية صيدا من أعمال نيابة دمشق ، شأنها في ذلك شأن بيروت ، وكانت ولاية صيدا نفسها تضم أعمالا واسعة^(٢) ، وقد أشار غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري إلى أهمية صيدا في عصره (عصر المماليك الشراكسة) ، فذكر أن مدينة صيدا ميناء دمشق « وهي مدينة لطيفة على شاطئ البحر المحيط ، ترد إليها المراكب ، ولها إقليم به ما ينوف عن مائتي قرية ، وهي أيضا من معاملة دمشق »^(٣).

وكان والي صيدا يتولى منصبه بموجب توقيع بولايته يصدر من نائب السلطنة بدمشق ، وقد أورد القلقشندي نص نسخة منه تضمنت أسباب اختياره لذلك المنصب والأعباء والمهام الملقاة على عاتقه ، كالتمسك بالعدالة والحرص الزائد في تلقف الأخبار ، وتفقد أحوال إقليم صيدا بره وبجره ، واعتماد مصالح السكان ، وإدارة الشؤون المالية والديوان ، والجمع في المعاملة بين سياسة الدين والشدة . وفيما يلي نص هذه النسخة : « رسم بالأمر

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠٢ - Gaudefroy - Demombynes, La Syrie -
à l'époque des Mamelouks, Paris, 1923, p. 183

(٢) شيخ الرتبة الدمشقي ، نخبه الدهر ، ص ٢٠١

(٣) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ،
تحقيق بول رافيس ، باريس ١٨٩٤ ص ٤٧

العالي - أنفذه الله في الأقطار ، ونجم بولاته أيام الأوطان والأمطار ، وأجرى بشكره سفن الركائب وركائب السفن إذا سف وإذا طار ، أن يستقر فلان ... ركوناً إلى عزمه وحزمه ، وسكوناً إلى اهتمامه الذي حكم فيه ، والاختبار بعلمه ، وعلماً أن للولايات به الانتفاع ، ولحصونها الامتناع والارتفاع ، وأنه إذا ولي رعى ، وإذا أقوي كان أعصم راع ، وإذا فكر في الرأي ووقب في المهم كان نعم الشجاع . فليباشر ولاية عمله ، فاهضاً بأعبائه ، رافعاً بالعدل لأرجائه ورجائه ، حريصاً على طيب الأخبار المنتشرة من كافور صبحه ومسك مسائه ، وليتفقد أحوال بره وبحره ، ويتيقظ لذلك البر وجهره ، وذلك البحر وسره حتى يتحدث البحر عن عزمه ولا حرج ، ويسير ذكره كنسيم الروض لا ضائع الصنع ولكن صنائع الأرج ، ويعتمد مصالح النواحي وسكانها ، والأموال وديوانها ، والجهات وضمائها ، ونجوم التقسيطات في البلدة ، وتحرير ميزانها ، ويجمع بين الدين والشدة لسياسة لا يخرج بها الرأي عن إبانها ، وتقوى الله تعالى هي العمدة فعلها يعتمد ، وعلى ركنها يستند ، حتى تجعل له على المصالح أيداً ، وحتى تثني نحو الثناء عليه عمراً وزيداً ، وحتى تجعل له بأساً في الأعداء يكيد كيداً ، وحسن ذكر في البلد يصيد صيداً^(١).

ولم يصلنا من أسماء ولاية صيدا في العصر المملوكي إلا عدد قليل جاء ذكرهم عرضاً في صفحات المصادر ، على أن ولاية صيدا كان معظمهم من أمراء الغرب من بني مجتد ، وكانوا يجمعون عادة بين ولاية بيروت وصيدا ، وفيما يلي بعض أسماء هؤلاء الولاة :

١ - **الدمياطي** : وقد تولى بيروت وصيدا بعد فتح صيدا على يد الأشرف خليل في سنة ٦٩٠ هـ ، ويبدو من اسمه أنه ينتسب إلى مدينة دمياط التي كانت على اتصال وثيق بصيدا في العصر الإسلامي ، وقد عهد

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٤

إليه الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بعمارة الجسر الخراب القائم على نهر الدامور أثناء مروره ببيروت . ولكن هذا الجسر سرعان ما تخرب بعد عمارته بثلاث سنوات على أثر سيل جارف ، وظل خرباً إلى أن قام الأمير سيف الدين تنكز بعمارة ، فعمر ، ثم تخرب من جديد بسبب السيول التي جرفت مياهها معظم حجارته إلى البحر ، كما انهار جانبه القبلي . وعمد والى صيدا ناصر الدين الحسين في سنة ٧٤٥ هـ إلى الاستعانة في ترميم وإعادة بنائه بمهندس طرابلس المشهور في الأعمال الساحلية أبي بكر بن البصيص البعلبكي^(١) .

٢ - سيف الدين تنكز : وقد سبق أن رأيناه يتولى ترميم جسر نهر الدامور فيما يقرب من سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) .

٣ - الأمير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين خضر : كان والياً على الغرب بما فيه صيدا ، وقد اشترك ناصر الدين في الحملة التي توجهت إلى الكرك في سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) لمحاصرة السلطان الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون^(٢) .

٤ - الأمير بهاء الدين داود بن علم الدين سليمان (ت ٨٠٣) : اشترك مع تنكز بغا نائب بعلبك وكاشف على صيدا وبيروت في الحملة التي جردها السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق لمحاربة تيمورلنك عندما غزا بلاد الشام في سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) ، وقد فقد الأمير بهاء الدين داود في حملة المفقودين عندما فرت جيوش السلطان قبل لقاء جيوش تيمورلنك (٣) .

٥ - الأمير عساف الحبشي : كان نائباً على بيروت وصيدا في زمن

(١) صالح بن يحيى ، ص ١٠٣ ، ١٠٤

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٠

(٣) نفس المصدر ، ص ٢١٩

السلطان محمد بن قايتباي ، وقد قتل في ١٥ ذي الحجة سنة ٩٠١ هـ^(١) (١٤٩٥ م) في نفس العام الذي ارتقى فيه السلطان الناصر محمد أبو السعادات ابن قايتباي على دست السلطنة ، وكان الأمير عساف المذكور ، مشاهير الولاة .

٦ - ناصر الدين محمد بن الحنش : كان والياً على صيدا والبقاعين في زمن السلطان قانصوه الغوري منذ سنة ٩١٧ هـ (١٥١١ م) حتى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ، وتسجل هذه السنة خروجه على السلطان العثماني سليم الأول ونبذ لطاعته ، فاستولى جان بردي الغزالي نائب الشام على صيدا ، وغر ابن الحنش . وتمكن جان بردي من القبض على العصاة أتباع ابن الحنش وعلى رأسهم الأمير زين الدين والأمير قرقماس والأمير علم الدين سليمان ثم أرسلهم إلى صور ، فقلعة صغد فقلعة دمشق ومنها إلى قلعة حلب . ولما قتل ابن الحنش بعد ذلك أطلقهم الغزالي^(٢) .

٧ - محمد ابن قرقماس : تولى على بيروت وصيدا والتقدمة على البقاع من قبل السلطان سليم^(٣) .

وكانت صيدا من الناحية الإدارية أيضاً ، رغم كونها مجرد ولاية ، من أهم مراكز نقل الثلج من دمشق الى دمياط بجزراً في العصر المملوكي ، وكان الثلج ينقل بعد وصوله إلى دمياط « من مراكز بحر الملح الى مراكز بحر النيل » ثم يأتي به إلى بولاق ، ثم ينقل على البغال إلى الشرايخانة الشريفة ، وتخزن في صهريج^(٤) ، وظلت صيدا مركزاً رئيساً لشحن

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، القاهرة ،

١٩٦٢ ، ج ١ ص ١٦٧ ، ٣٦٧ - الدبس ، ج ٦ ص ٥٦

(٢) الشدياق ، ج ١ ص ٢٩٣ ، ج ٢ ص ٣٠٣

(٣) ابن طولون ، قسم ٢ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧

(٤) ان شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧

الثلوج إلى مصر حتى أيام السلطان الملك الظاهر بروجق ، وفي عهده استخدم الطريق البري بدلاً من البحري ، وأصبح الثلج يحمل من دمشق براً على الهجن في الفترة ما بين حزيران إلى آخر تشرين الثاني ما يقرب من إحدى وسبعين نقلة ، وكان يجهز مع كل نقلة بريدي بيده تذكرة وبرفته ثلج خبير بحمله ومداراته^(١).

كذلك كانت صيدا مركزاً هاماً من مراكز بطائق الأبراج الخاصة بالحمام في العصر المملوكي ، وكان الخلفاء الفاطميون أول من اعتنوا من حكام مصر بالحمام الزاجل ، وبالغوا في ذلك حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بالنسب الحمام ، ثم نهج نور الدين زنكي نهجهم في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) ، وكانت بصيدا عدة أبراج ومراكز حمام لها برّاجة وخدام متخصصون ، وأقفاص وأبغال للتدريج ، ومرتبات وأرزاق ، لتصدير الأخبار متصلة ساعة بساعة ، مع دمشق من جهة وبيروت وتربة وطرابلس من جهة ثانية^(٢).

ولما كانت صيدا مركزاً لبطائق الأبراج الخاصة بالحمام ، كانت أيضاً مركزاً بريدياً هاماً ، فكانت تمتد من دمشق عدة طرق برّدية تصل إلى صفد وجزّين وصيدا وبعلبك . أما طريق صيدا فكان ينتهي إلى بيروت ، في حين كان طريق بعلبك يمر بالزبداني وبورا وينتهي ببعلبك^(٣) ، وفي كل من هذه المواضع كانت تقام محطات لا تعدو أن تكون خانات ونزل للبريديين . ومن أمثلة الخانات الباقية خان دنون الواقع بين دمشق ودرعة ، ويتوسط الخان صحن فسيح تدور به بائكة تنفتح على الصحن ، وتطل عليها أروقة ذات قبوات متصلة ، ويكتنف جدران الخان في الأركان

(١) ابن شاهين ، ص ١١٨

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٧

(٣) نفسه ، ص ١١٩ ، ١٢٠ - Gaudefroy - Ira Marvin, Muslim cities, p. 12

Demombynes, op. cit. p. 246

أبراج نصف أسطوانية بينما يتوسط الجانب الغربي برج نصف دائري . ويرجع إنشاء هذا الخان إلى السلطان الملك الأشرف شعبان الذي أقامه في سنة ٧٧٨ هـ ، وبأشر البناء فيه علي بن البدري « مهندز الشام »^(١)

(ب) اضمحلال العمران في صيدا :

اضمحلت صيدا في عصر المماليك اضمحلالاً يشهد به الرحالة والجغرافيون الذين كتبوا عنها في هذا العصر ، وترجع أسباب هذا الاضمحلال الى ما يأتي :

١ - الضربات الشديدة التي تعرض لها العمران الصيداوي منذ أن استردها صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٨٣ هـ حتى بداية العصر المملوكي ، ومن المعروف أن هذه الضربات كان يوجهها إليها إما المسلمون في الفترة التي خضعت فيها صيدا للصليبيين ، أو الصليبيون في الفترة التي خضعت فيها للمسلمين ، وفي حالة واحدة تعرضت المدينة لغارة تآديبية انتقامية شنها المغول بقيادة كيوتبغا نويان ، وقد أدت هذه الضربات المتتالية الى تدمير الأسوار والمخسار العمران وتقلصه بسبب نزوح كثير من سكان المدينة عنها الى مدن ساحلية أكثر حصانة ومنعة مثل صور وعكا ، أو الى مدن داخلية أكثر أمناً مثل دمشق وبعبك .

٢ - غارات الجنوية والقبازصة على ساحل صيدا منذ طليعة القرن الثامن الهجري ، وستحدث عن هذه الغارات بالتفصيل عندما نتعرض لدراسة الأحداث الهامة في صيدا في العصر المملوكي .

٣ - الفناء الكبير الذي نكب به العالم فيما بين عامي ٧٤٢ ، ٧٥١ هـ (١٣٤١ ، ١٣٥٠ م) ، وبلغ ذروته في الأقطار الإسلامية في سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ، وقد كانت صيدا وسائر مدن الساحل بوجه خاص من

J. Sauvaget, un relais du Barid Mamelouk, dans Mélanges Gaudetroy - (١)
Demombynes, 1935, Le Caire, p. 24 - 45

أكثر المدن الشامية تعرضاً لهذا الوباء ، ويشير ابن الوردي الى ذلك بقوله : « ثم طوى (الوباء) المراحل ، ونوي أن يخلق الساحل ، فصاد صيدا وبغت بيروت كيدا » (١) .

٤ - عدم صلاحية مينائها الشمالي لإرساء السفن الكبيرة بسبب كثرة الرواسب الرملية ، وعدم اهتمام الولاة بتطهير هذا الميناء وتوسعته ، وقصر استخدامه على سفن الصيد والمراكب التجارية الصغيرة (٢) الأمر الذي أدى الى حصر النشاط التجاري الخارجي في صيدا الى أضيق نطاق ، واقتصاره على المجال الداخلي .

وهكذا تضامنت هذه العوامل جميعاً فيما بينها على اضمحلال صيدا عمرانياً وبالتالى اقتصادياً ، وكان وصف الإدريسي لها في سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٤ م) آخر وصف لها يعبر عن عظمتها ، إذ أن ما وصفها به الرحالة والجغرافيون في الفترات اللاحقة كان يعبر عن طبيعة هذا الاضمحلال الذي شملها كما شمل غيرها من مدن الساحل ، في الوقت الذي ظهرت فيه بيروت بصفة خاصة كميناء رئيسي لبلاد الشام (٣) : فأبو الفداء الذي وصف صيدا في سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) يقول : « تقع على البحر وهي مدينة صغيرة حصينة » (٤) ، ووصفها ابن بطوطة بعد ذلك بعدة سنين بقوله : « وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه ، يحمل منها التين والزبيب والزيت الى مصر » (٥) . وذكر الرحالة لودولف السدهيمي الذي زارها فيما يقرب من هذه الفترة ، بأنها « مدينة ساحلية تحيط بها أبراج وأسوار مرتفعة ولكنها مهجورة » (٦) . وذكر القلقشندي

(١) ابن الوردي ، تنمة المختصر ، ج ٢ ص ٤٩٨

(٢) Rey, les Colonies franques de Syrie, p. 520

(٣) منير الحوري ، ص ١٨٥

(٤) Marmardji, p 126

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، طبعة صادر ، ص ٦٢

(٦) Frederick, p. 103

أنها مدينة تقع على ساحل بحر الروم ومزودة بقلعة منيعة لا ترام^(١). أما جون بولونر الذي زار الأراضي المقدسة في عام ١٤٢١-١٤٢٢، فقد أشار إلى أنها «مدينة فينيقية تشهد خرائبها في الوقت الحاضر بمظمتها، وخارج أطلالها بنيت مدينة أخرى صغيرة حقاً ولكنها حصينة، وينقصها الرجال للدفاع عنها»^(٢). وعندما زار طافور مدن الساحل اللبناني لم يذكر اسم صيدا وإنما ذكر الرملة ويافا وبירות وصور وعسقلان وعكا^(٣).

ولستنتج مما سبق ذكره أن صيدا لم تبق طويلاً بدون أسوار منذ أن افتتحها المسلمون في سنة ٦٩٠ هـ وخرب الأمير علم الدين سنجر الشجاعي أسوارها وتحصيناتها، فقد أعيد بناؤها من جديد وجددت تحصيناتها، وأضيف إليها في زمن لاحق، وهو أمر أشار إليه أبو الفداء وابن بطوطة ولودولف والقلقشندي وچون بولونر ضمناً في وصفهم للمدينة، وستتحدث عن آثار التحصينات الإسلامية عند تعرضنا فيما بعد لدراسة مظاهر اهتمام المماليك بتحصين صيدا.

وظلت صيدا على الرغم من تجديد بناء حصونها وأسوارها مدينة قليلة الأهمية، وعندما زارها سنديس في سنة ١٦١٠/١٦١١ م كانت تبدو مدينة فقيرة^(٤)، ولم تنتعش صيدا وتتألق من جديد إلا منذ أن اتخذها الأمير فخر الدين المعني الثاني قاعدة لإمارته على النحو الذي سنشير إليه بعد ذلك.

(ج) الوضع الاقتصادي:

كانت صيدا في العصر الفاطمي مدينة زاهرة عرانياً واقتصادياً،

(١) القلقشندي، ج ٤ ص ١١١ (٢) Frederick, p. 103

(٣) طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة الدكتور حسن حبشي،

القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣

(٤) Frederick, p. 104

وكان أهلها من اليسار والثرء بحيث كان في إمكانهم شراء حرياتهم واستقلالهم بالأموال التي يبذلونها سواء لطفتكين أو لبلدوين ، وليس من شك في أن هذه الثروات الطائلة التي كانت تتدفق على مدينة ذات ميناء أو بمعنى أصح ذات موانئ ثلاث لا بد أن يكون مصدرها قيام نشاط تجاري واسع النطاق . غير أن حياة صيدا الاقتصادية لم تلبث أن مرت بتجربة قاسية إذ تأثرت بالنكسة العمرانية التي أصابتها منذ أن أخذت قوات المسلمين والصليبيين تتناوب حكمها أكثر من ثلاث مرات ، وفي كل مرة كانت أسوار المدينة ومنشآتها تتعرض للتدمير والتخريب الأمر الذي أثر على الوضع الاقتصادي في المدينة ، فساعد على تدهور التجارة والزراعة والصناعة منذ العهد الصليبي حتى الفتح العثماني . ومع ذلك فإن اضمحلال عمران صيدا لم يتضح تماماً في زمن ابن بطوطة الذي يذكر أنها كانت تصدر التين والعنب وزيت الزيتون . ونستنتج مما كتبه جاك دي فاري في القرن الثالث عشر الميلادي أنه كانت تتوافر في صيدا أشجار الفاكهة والكروم وغبابات وحقول وأرض محروثة . ويحدثنا بولور عن زراعة قصب السكر والكروم الجيد^(١) . ولا شك أن الفاكهة ولا سيما الحمضيات كانت وما تزال تشكل الثروة الزراعية الرئيسية في صيدا المملوكية ، وكانت هذه الفواكه تصدر عادة الى مصر . وبالإضافة الى هذه المنتجات الزراعية المحلية لعبت صيدا دور الوسيط التجاري — ولكن في نطاق محدود — بين الشام ومصر ، فكانت تقوم بتصدير منتجات المناطق السورية الداخلية ، فمن دمشق نفسها كانت ترد الى صيدا الأواني الخزفية والتحف الزجاجية والمعادن والحلل الموشية والمنسوجات الحريرية الفاخرة والشموع وبعض الدواب كالغنم والخيل^(٢) .

أما الصناعات فقد تدهورت نتيجة لتدهور التجارة ، واقتصرت

Frederick, p. 123 (١)

Ira Marvin, pp. 17 - 18 (٢)

الصناعات فيها على صناعة السكر^(١) ، كذلك استمرت صيدا في إنتاج الزجاج والخزف وهما صناعتان تقليديتان اشتهرت بهما عبر التاريخ . على أن أهم صناعات صيدا التي اشتهرت بها في العصر الوسيط هي صناعة المنسوجات الحريرية ، ولكن جارتها صور فاقتها في هذا المجال ، وعرفت أوروبا المنسوجات الحريرية المصبوغة بالأرجوان السوري التي كانت تصدرها صور في العهد الصليبي الى الآفاق ، وكانت سفن الجنوية والبنادقة التي تحمل حجاج المسيحية من أوروبا الى الأراضي المقدسة تعود موسقة بالمنسوجات الحريرية والتفتا الدقيقة التي كان الغرب يشتد في طلبها من صور وصيدا ، وطفى استعمالها الى دور البورجوازية والمصليات الكنسية ، وكانت الملونات الحريرية تغطي جدران المصليات ، واتخذت أعلاماً وأغطية للأسرة ، أو شطافات تتدلى على النوافذ في أيام الاحتفالات والأعياد . ومع ذلك فقد كسدت هذه الصناعة نتيجة لهجوم المغول على صيدا ، وتخريب قلاوون لطرابلس وتدمير الأشرف خليل لكل من صيدا وصور ، وتوقف نشاط هذه المدن اللبنانية في هذا المجال قرابة قرن من الزمان^(٢) .

(٣)

غارات القبارصة والجنوية على صيدا وأثره في اهتمام الممالك بإعادة تحصينها

(أ) غارات القبارصة على صيدا :

لم يؤد نجاح الأشرف خليل في طرد الفرنج نهائياً من أراضي الشام الى توقف الصراع الحربي بين المسلمين والصليبيين ، بل كان ذلك الحدث من العوامل التي أوجبت نيران هذا الصراع وقوت من حدته ، فإن قوى

(١) نقولا زيادة ، مدن عربية ، بيروت ١٩٦٥ ص ١٧٦

(٢) Maurice Chhab, Rôle du Liban dans l'histoire de la Soie, pp. 22 - 26

الصلبيين بارتكازها في قبرص ورودس وأرواد باتت تشكل خطراً متواصلاً على السواحل المصرية والشامية . وكانت الاعتداءات الصليبية على سواحل الشام من العوامل الرئيسية التي دفعت نواب السلطنة في الشام إلى تدمير أسوار المدن الساحلية وتخريبها حتى لا يتمكن المعتدون من احتلالها والتحصن فيها ، واتخاذها مراكز لتوجيه عدوانهم على بلاد الشام بغية تأسيس مستعمرات صليبية جديدة . وعلى الرغم من نجاح سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري في استرداد جزيرة أرواد في سنة ٧٠٢هـ^(١) (١٣٠٢ م) بعد أن فتحها عنوة ، فقد ظل فرسان الاسبتارية الذين اقتتلوا إلى جزيرة قبرص بعد قيام الأشرف خليل بتحرير الأراضي الشامية من المستعمرات الفرنجية يهددون السواحل الشامية تهديداً مباشراً بخاراتهم المتواصلة منذ سنة ٧٠٢هـ التي سقطت فيها أرواد في أيدي المسلمين ، وساعد موقع قبرص الاستراتيجي الهام في قبالة الساحل السوري على تزايد الغارات الصليبية على موانئ لبنان بوجه خاص^(٢) . وإذا كانت طرابلس الشام هي أول مدن الساحل الشامي التي تعرضت لغارات الفرنج في شعبان سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٨ م) فإن مدينة صيدا هي الأخرى كانت هدفاً رئيسياً للغارات البحرية القبرصية ، وكانت هذه الغارات أشبه بغارات القراصنة القصد منها السلب والنهب واختطاف الأهالي بغية المطالبة بفدياتهم .

وأول هذه الغارات التي شنها القبارصة غارة قام بها هؤلاء الفرنج على الدامور الواقعة إلى الشمال من صيدا في سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢ م) في نفس العام الذي فتح فيه المماليك جزيرة أرواد ؛ ففي ٨ جمادي الأولى

(١) النوري ، نهاية الارب في فنون الادب ، نسخة مصورة من المخطوط محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ج ٣٠ ص ٤ - ابن أبيك الدرداري ، الدر الفخر في سيرة الملك الناصر ، ج ٩ تحقيق هانز روبرت روبر ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٠ - أبو الفداء ، المختصر ، ج ٧ ص ٥٧ - ابن تغري بردي ، ج ٨ ص ١٥٦

(٢) طرابلس الشام ، ص ٣٣٩

من هذه السنة نزلت جماعات مسلحة من الفرنج على نهر الدامور ، فاشتبك معها الأمير فخر الدين عبد الحميد بن جبال الدين التنوخي وأخوه الأمير شمس الدين عبدالله مع عسكر المسلمين في معركة انتهت بتغلب الفرنج وسقط الأمير فخر الدين صريعاً في حين وقع أخوه شمس الدين أسيراً في أيدي القبارصة ، فاستبقوه خمسة أيام ثم افتداه الأمير ناصر الدين الحسين ابن خضر متولي الغرب بمبلغ من المال قدره ثلاثة آلاف دينار سورية^(١).

ولم يمض على هذه الغارة أربعة أعوام حتى تعرضت مدينة صيدا نفسها لغارة بحرية عنيفة . ويذكر صالح بن يحيى أنه « في العشر الأخير من جمادي الأولي جاز على بيروت تعميرة للفرنج ، ولم يتعرضوا لها وتوجهوا إلى صيدا ، فأخذوها وقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة ، ونهبوا منها شيئاً كثيراً ، وكذلك المسلمين قتلوا من الفرنج جماعة وبعثوا برؤوسهم إلى دمشق وعلقوا على القلعة ، فكانت بضع وثلاثين رأساً » . وبادر الأمير شهاب الدين بن صبح نائب صفد بالسير إلى صيدا سابقاً عسكر دمشق ، ولكنه أدرك السفن الصليبية وهي راسية على جزيرة صيدا بعد انتهاءها من الغارة ، فاقتدى جميع الأسرى من أموال ديوان الأسرى وقدرها ثلاثون ألف درهم افتدى بها ستين أسيراً^(٢).

ويروي الدويهي (ت ١٦٩٩) عن ابن سباط أن مراكب الإفرنج قصدت صيدا في سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) وهاجموا المدينة وقتلوا طائفة من أهلها وأسروا طائفة أخرى ، فقاتلهم أهل صيدا قتالاً شديداً وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ودمروا مركباً من مراكبهم ، واستنجد أهل صيدا بنائب دمشق ، فاحتشدت الأجناد من دمشق وصفد ووصلت بعد انتهاء المعركة ، وبادر المسلمون بافتداء الأسرى على أساس ٥٠٠ درهم لكل أسير ،

(١) الدويهي ، ص ١٦٠ - الشدياق ، ج ١ ص ٢٧٧

(٢) صالح بن يحيى ، ص ٢٩ - وينقل الاستاذ يوسف زهر التاريخ خطأ فيورخ الغارة في

١٣٠٤ م بدلاً من ١٣٠٦ (زهر ، ج ١ ص ٢٤٤)

وأنفقوا في ذلك مبلغاً قدره ٣٠ ألف درهم من مال ديوان الأسرى^(١).

ويذكر النويري السكندري في مخطوطة الإلام بما قضت به الأحكام أن ثلاثة أغربة قبرصية قدمت إلى ميناء أبي قير الواقعة إلى الشرق من مدينة الاسكندرية في فجر يوم ٢٧ شعبان سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٣ م) ، وأمر أصحابها من قصور البساتين ٧٦ من المسلمين ما بين رجال ونساء وصبيان ، ومضوا بهم إلى ساحل صيدا ، ففداهم أهل صيدا بمال وردوم إلى أوطانهم^(٢).

ثم توالى غارات القبارصة على صيدا منذ سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) على نحو يكاد يكون متواصلاً : ففي هذه السنة أغار ابراهيم بن الحجازة القبرصي أحد قواد القبارصة البحريين في غيبة صاحب قبرص بغرابين وشيطي على بلدة الصرفند الواقعة على بعد ١٥ كم. م. جنوبي صيدا ، بنى خطف نساءً ونهباً ، ولكنه لم يخرج من هذه الغارة التي قتل فيها ثلاثين نفراً من أهل الصرفند إلا بعدد قليل من الأسرى يصل إلى ١٣ أسيراً^(٣) . وقد أورد النويري تفصيلات عن هذه الغزوة نقلها عن الشيخ عبدالله ابن نجم الصرفندي الذي رحل إلى الاسكندرية بعد الواقعة المذكورة ، فذكر أن رجلين من أهل الصرفند تخاصما ، « فضى أحدهما يشكي الآخر من عند والي صيدا ، فلما كان في الليل ضرب البوق والزمر ، فظننت أهل البلد أن الرجل أتى بكبس الصرفند ، فخرجت أهل البلد منه هاربين ، فبينما هم خارجين من البلد وإذا بالناس يصيحوا ارجعوا إلى بلدكم ،

(١) الديهي ص ١٨٣ - الدبس ، ج ٦ ص ٤٠٥

(٢) النويري السكندري ، الإلام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية المقيمة برقم ١٤٤٩ تاريخ ، محفوظة بمكتبة آداب الاسكندرية برقم ٧٣٧ م ، ورقة ٧٢ ب ، ٧٣ أ

(٣) النويري ، المصدر السابق ، ورقة ٩٩ أ - ١٠٠ ب - Aziz Surial Atiya, The crusade in the later Middle Ages, London, 1938, p. 363 - سعيد عاشور، الحركة

الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٢٨

وقاتلوا عدوكم ، فلأنما هم إفرنج . فرجعت الناس ، فهربت الفرنج بعد أن قتلوا من المسلمين ثلاثين نفرأ من أدركوه في أزقة البلد وأسروا ثلاثة عشر منهم ثلاث نسوة وأربع صبيان وأربع بنات وطفلين على أكتاف أمهاتهما ، ولم ينالوا من البلد شيئاً غير المأسورين المذكورين « (١) .

وفي أواخر هذا العام خرج سنجوان دمرف القبرصي Jean de Morf عم بطرس الثاني دي لوزنيان بن هيو الرابع ملك قبرص (١٣٦٩ - ١٣٨٢) والوصي عليه ، في أربع بطسات وأغار على سواحل صيدا والبترون وأنظرطوس واللاذقية (٢) .

ثم انقطعت غارات القبارصة على صيدا فترة طويلة استمرت نحواً من ستة وأربعين سنة (من ١٣٦٧ حتى ١٤١٣ م) ، وذلك بعد أن عقدوا الصلح مع السلطان المملوكي المنصور علاء الدين علي بن شعبان في سنة ٧٧٢ هـ (أكتوبر ١٣٧٠ م) . ثم عاودوا الغزو في سلطنة المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) رداً على غارات المماليك على قبرص في عامي ٨١٣ ، ٨١٤ هـ . ففي سنة ٨١٦ (١٤١٣ م) أغار القبارصة على بلدة الدامور الواقعة الى الشمال من صيدا في منتصف الطريق الى بيروت ، فبادر الملك داود الجركسي بالنهوض إليهم من دمشق ، وانضم اليه الأمير قاسم بن محمد بن أبي بكر بن حسين الشهابي أمير وادي التيم ولبنان برجاله (٣) ، والأمير سيف الدين أبي المكارم يحيى بن نور الدين صالح أمير الغرب ، وبادر لنجدتهم السلطان الملك المؤيد شيخ الحمودي نائب السلطنة بدمشق ، وكان على مدينة بعلبك ، فركب من وقته ووصل الى بلدة الناعمة (٤) حيث يقع معسكر أمير الغرب ، وقاتل هو والأمراء الآخرين الفرنج بعد أن دخلوا في بلاد صيدا وبيروت وعاثوا فيها فساداً ، فتغلب عليهم وقتل منهم

(١) النويري ، المصدر السابق ، ورقة ١٠٠ أ

(٢) Aziz Surial Atiya, op. cit. p. 374 - عبدالعزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٣٦٤

(٣) الدويهي ، ص ٢٠١ - الشدياق ، ج ١ ص ٤٧ ، ج ٢ ص ٣٠١

(٤) تقع في الطريق بيروت - الدامور - صيدا على مسافة غير بعيدة من خلدة

سبعين شخصاً^(١) ، وأجلاهم في شوانبهم عن الساحل ، وفي ذلك يقول العيني :
له غزوات مع فرنج بساحل بصيدا وبيروت بعز تشيد^(٢)

وقد أدت هذه الغارة وغارات أخرى قام بها الكتيان والقبارصة على سواحل يافا والاسكندرية في سنة ٨١٩ هـ (١٤١٧ م) ، واعتدائهم على الاسكندرية من جديد في شعبان سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) وفي العام التالي ، الى قيام السلطان الملك الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) بالرد على هذه السياسة العدوانية رداً حاسماً ، ففكر جديداً في فتح جزيرة قبرص ، وبدأ في سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ م) بتسيير حملة استطلاعية تمهيداً لافتتاح الجزيرة المذكورة سماها العيني الغزوة الصغرى^(٣) ، ثم سير في العام التالي أسطولاً يتألف من ٤٠ سفينة بقيادة الأمير جرباش الكريمي ، اشتركت فيه قوة تونسية من قبل السلطان الحفصي أبي فارس (ت ١٤٣٤) ، وأرست الحملة بالماغوصة ، وهزم المالك القبارصة في عدة مواقع ، وعادت السفن المصرية الى قواعدها وهي تحمل ما يزيد على ألف أسير^(٤) . وتم فتح جزيرة قبرص في صيف سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥ م)^(٥) .

(ب) غارات الجنوية على صيدا :

أدى احتكار البنادقة لمعظم النشاط التجاري في حوض البحر المتوسط الى قيام نزاع بينهم وبين الجنوية منافسيهم في التجارة البحرية ، وعمد

(١) بدرالدين العيني ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق الاستاذ فهم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٩٦٧ ص ٢٢٨ - ابراهيم الأسود ، ذخائر لبنان ، ص ١٨٥

(٢) العيني ، المصدر السابق ، ص ٤ - الشدياق ، ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢

(٣) نفس المصدر ، ج ٢٥ قسم ٣ من المخطوطة وعنوانها « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ ، ورقة ٥٧٢ - Ziada (M. M.) ،

The Mamluk conquest of Cyprus, Bulletin de la Faculté des Lettres, Univ. d'Egypte, vol. I, partie 1 ère, Mai, 1933, p. 93

(٤) العيني ، ج ٢٥ قسم ٣ ص ٥٧٦

(٥) نفسه ، ص ٥٨٠ - Ziada, op. cit. p. 100 - طرابلس الشام ، ص ٣٩٠ .

الجنوبية الى وقف هذا النشاط وعرقلته عن طريق شن الغارات على سواحل الشام ومصر ، وانضم الى الجنوبية في هذه الغارات طوائف من قراصنة الكتيلان والروادة والقبارصة ، وتعرض ثغر صيدا لاعتداءاتهم عدة مرات ، أولها في جمادى الآخرة سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) وذلك عندما قام الجنوبية بعملية إنزال على الساحل الصيداوي ، واستولوا على المدينة ، وعاثوا فيها فساداً ، وتمكنوا من الاستيلاء على بضع مراكب صفار ، ثم توجهت سفنهم بعد ذلك الى بيروت . وبلغ سيف الدين بيدمر الخوارزمي نائب السلطنة في الشام نبأ نزولهم في صيدا ثم خروجهم عنها الى بيروت فقال : « صيدا ما بقينا نلحقها ، نروح نلحق بيروت » ، فسار في حشوده الى بيروت في الوقت الذي وصلت فيه سفن الجنوبية ، فأحجم هؤلاء عن النزول ، وعادت سفنهم الى قبرص^(١) .

واستمر الصراع قائماً بين الجنوبية والبنادقة حتى طليعة القرن التاسع الهجري ، ففي ٢٠ من المحرم سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٤ م) أغار الجنوبية على بيروت في ٣٧ شني و ٩ مراكب صفار بقيادة أمير البحر الفرلسي بوسيكو^(٢) ، وتوجهوا في نفس الليلة الى جهة صيدا ، حيث نزلوا الى البر على مسافة لا تزيد على ميل من المدينة ، وكان قد اجتمع على صيدا العشران^(٣) وغيرهم ، ولم يحسر الجنوبية على دخول صيدا لكثرة من احتشد فيها من جيوش المسلمين ، وكان شيخ الخاصكي نائب السلطنة في دمشق قد خرج منها في دورته بالبقاع وبعلبك ، فبلغه نبأ نزول الجنوبية على

(١) القلقشندي ، مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، تحقيق الاستاذ عبد الستار أحمد فراج ، الكويت ١٩٦٤ ، ج ٢ ص ١٨٨ - صالح بن يحيى ، ص ٣١ ، ٣٣ - الدبس ، ج ٦ ص ٤١٥ -

Lammens, t. II, p. 19

Lammens, p. 19 (٢)

(٣) العشران بمعنى الاحزاب مفردا عشير ، وقد اشتهر من العشران عشير البقاع وعشير صيدا وبيروت (راجع : عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، بيروت ١٩٦٦ ص ٥٦ حاشية رقم ٢)

طرابلس ، فتوجه إليها ، ولكنه وصل بعد فوات الأوان ، ثم مضى الى بيروت وقد خرج الجنوبية منها الى صيدا ، فهاجمهم واشترك معه في الهجوم بنو بختر أمراء الغرب ، فرماهم الجنوبية بالجروح ، وأصيب فرس الأمير شيخ ، كما أصيب جماعة من المسلمين ، واضطر الجنوبية الى التراجع نحو سفنهم التي انسحبت من الشاطئ الى ميناء الجزيرة (الميناء الخارجي) ، وأقام المسلمون يراقبونهم طوال الليل على الساحل ، واستعد الأمير شيخ لتلقيهم في الصباح إذا عاودوا النزول الى البر ، وأمر بإحضار مصاريح الأبواب واتخاذها زحافات وستائر للزحف عليهم عند نزولهم ، ولكنهم إدركوا تأهب المسلمين لتلقيهم ومنازلتهم أحجموا عن النزول الى البر . واتجهوا بسفنهم الى شمال بيروت قاصدين نهر الكلب بقصد أن يتزودوا بالمياه ، ثم انسحبوا بعد ذلك الى سفنهم ، وعادوا من حيث أتوا الى بلاده (١) .

(ج) اهتمام االيك باعادة تحصين صيدا

كان من أثر الغارات سالفة الذكر على ثغر صيدا ، أن وجه نواب السلطنة في دمشق ، لاتهم على صيدا اهتماماً خاصاً بتحسين المدينة وترميم أسوارها وقلاعها تمكياً للدفاع عنها ضد المغيرين من القبارصة أو الجنوبية ، وقد رأينا فيما رودنا به 'لرحالة العرب والغربيين ما يدل على أن المدينة زودت بتحسينات هامة في العصر المملوكي ، ويتجلى الطابع الإسلامي المملوكي في بعض القبوات المتأخرة في هو البرج الكبير بالقلمة البرية ، وهي قبوات تقوم على دعائم من البناء قطاعها مربع الشكل (٢) . ونرى الأثر الإسلامي المملوكي واضحاً في الجانب الجنوبي الغربي من قلعة البحر ، ويتجلى ذلك بصورة لا تخفى على الباحث في البرج الرئيسي (أ) ، وهو برج كبير الحجم ذو طابقين ثم يعلوه سطح كان مشرف الذروة ثم

(١) صالح بن يحيى ، ص ٣٣ ، ٣٤

(٢) Deschamps, p. 229

فقدت هذه الشرفات مع ما تخرب من القلعة عندما تعرضت للمدافع
الانجليزية في سنة ١٨٤٠^(١).

ويبدو هذا البرج الضخم في وجهه القبلي المطل على المدينة مدوراً
بينما يبدو في الجهات الأخرى مستطيل الشكل ، وتفتح في الطابق الاول

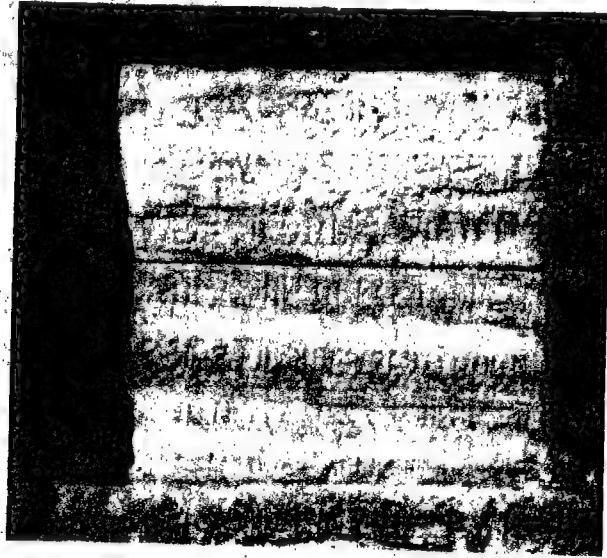


عقد النافذة البحرية بالبرج الاسلامي في قلعة البحر

منه في كل وجه من وجوه نافذة معقودة بعقد منكسر الرأس ، ويتخلل
وجوه منافذ للسهم ، ويمكن للمرء أن يصعد من هذا الطابق الى الطابق
الثاني عن طريق درج ضيق يدور في الجانب الشمالي منه . ويتمثل الاثر
الاسلامي المملوكي في القبوات المتعارضة التي تكوّن سقوفه ، ونجد لهذه
القبوات نظائر في سائر منشآت الممالك الحربية والمدنية ، كما يتمثل هذا
الاثر الاسلامي في طابع منافذ السهم من الداخل ، وفي العقود المدببة
التي تعلو النوافذ المستطيلة الشكل لاسيما العقد ذي الوسائد المتصلة وهو

(١) أحمد عارف الزين ، ص ١٠٣

المروف بالمحدد الذي يطوق فتحة النافذة الشمالية من البرج المذكور ، وهو عقد تشاهد نماذج منه في بوابة الفتوح في القاهرة ، وفي مدخل جامع الظاهر بيبرس ، ومدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير و نافذة مثذنة سنجر الجاولي في القاهرة ، وفي مثذنة جامع الامير سيف الدين طينال بطرابلس ومنظرة المدرسة الشمسية المطلة على مدخل الجامع المنصوري الكبير بطرابلس^(١) . ويؤكد الاثر الإسلامي الواضح للبرج نقش تاريخي على لوحة من الرخام الابيض صغيرة الحجم مثبتة بأعلى النافذة المذكورة بقلعة صيدا البحرية ، يتضمن عدداً من السطور الكتابية بالخط النسخي قرأتها بصعوبة شديدة بسبب اختفاء ومحو كثير من الكلمات ، وتأكل الكتابة في السطر الاخير كله ، ونطالع في هذه اللوحة التذكارية النص الآتي :



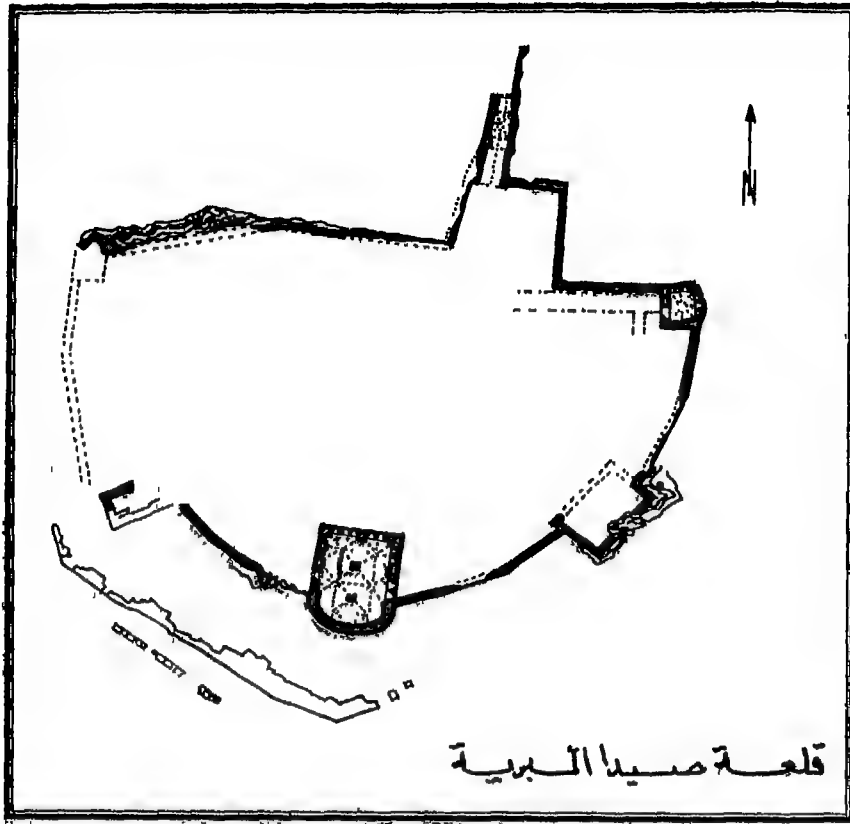
النقش الكتابي التذكاري بقلعة البحر

[(أ) بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا الحصن (ب) السعيد المقر الكريم العالي المولوي الإمامي العا (ج) دلي العالمي ... (د) جلبان الظاهري ... (هـ) أنصاره على نية الغزاة في سبيل الله تعالى في سنة اثنين (و) وخسين (وسبعمائة) ...] .

(١) طرابلس الشام ، ص ٤١٩

ونستدل من الالقاء الواردة في النص المذكور على أن البناء أقيم في العصر المملوكي ، وأن منشئ الحصن هو الأمير جلبان الظاهري الذي لا نعرف عنه شيئاً . وقد استطعنا أن نطالع بصعوبة باللغة الرقمية الأولى من تاريخ الإنشاء وهما اثنين وخمسين ، أما الرقم الثالث الذي يدل على المئات ، ويقع في السطر الأخير من النقش فقد حيت معالمة ومعالم ما بقي من كلمات النقش حتى نهاية السطر تماماً ، ولذلك كان علينا أن نفترض لتكثرة التأريخ الإنشائي ثلاث افتراضات نعني بها أرقام ستائة وسبعائة وثمانمائة . أما الافتراض الأول فنستبعده لأن صيدا كانت في التاريخ الذي يسجله هذا الافتراض الأول وهو ٦٥٢ هـ ما تزال خاضعة للصليبيين ، ولهذا فإننا نحصر الاختيار بين ٧٥٢ هـ و ٨٥٢ هـ . ويبدو لنا تأريخ ٧٥٢ هـ أكثر الافتراضين احتمالاً وذلك لعاملين : الأول ، أن معظم الرحالة العرب والأوروبيين الذين زاروا صيدا في القرن الثامن الهجري أو الرابع عشر الميلادي يؤكدون أن المدينة كانت حصينة ، بل إن القلقشندي المتوفي في سنة ٨٢١ هـ يؤكد أن المدينة كانت مزودة بقلعة منيعة لا ترام . والثاني ، أن صيدا شهدت في هذا القرن الثامن الهجري عصر الغارات القبرصية والجنوية المتواصلة التي استهدفت نهب المدينة وتدمير منشآتها وقتل وأسر سكانها ، واستلزم الأمر ضرورة ترميم القلاع والاسوار القديمة ، لاسيما القلعة البحرية التي تحمي الساحل حتى تقوى المدينة على الصمود أمام الغزاة ورد المغيرين عليها . والرقم الثالث الذي افترضناه وهو (ثمانمائة) يجعل تأريخ إنشاء البرج في سنة ٨٥٢ هـ أي بعد انتهاء عصر الغارات . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الأشرف برسباني استولى على جزيرة قبرص ، المركز الرئيسي للاعتداءات القبرصية والجنوية على سواحل مصر والشام ، في سنة ٨٢٩ هـ ، فيكون بناء البرج في سنة ٨٥٢ هـ قد جاء متأخراً للغاية .

وعلى هذا الأساس نرجح تأريخ سنة ٧٥٢ هـ ليكون تاريخ إنشاء البرج المذكور . وعلى أساس صحة افتراضنا يمكننا أن ننسب الأمير



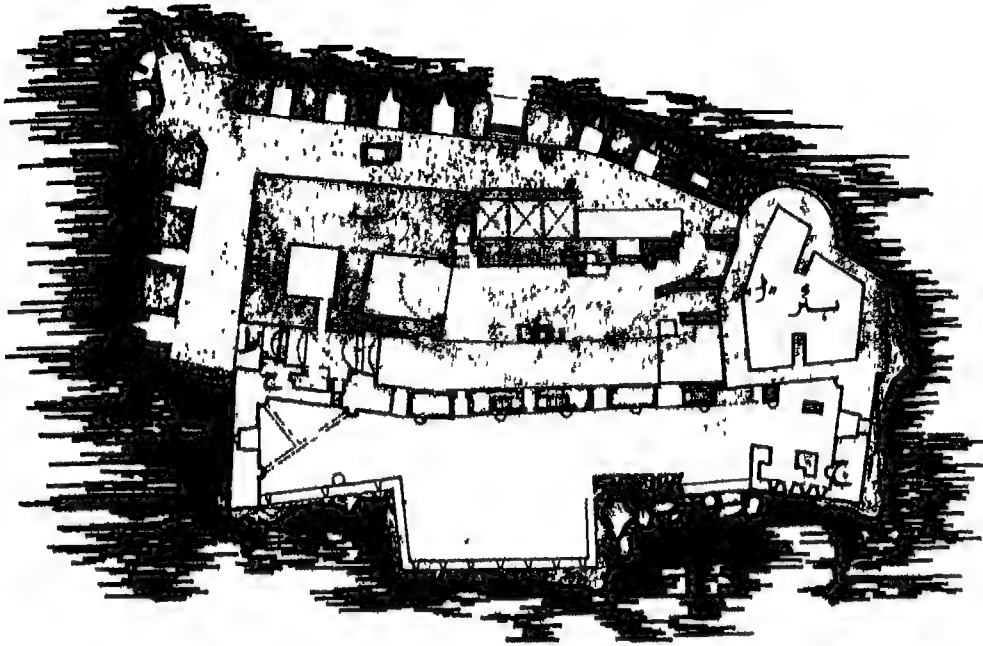
خريطة رقم ٣

جلبان الظاهري الذي ورد اسمه في النقش الى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس المتوفي سنة ٦٧٦ هـ .

أما الاسوار الباقية ، فقد اتخذت جدراناً لصف من الدور تمتد من البوابة الفوقا حتى البوابة التحتا في الشمال ، ويتجلى من آثار هذه الاسوار أنها أقيمت على عجل ، وأنه لم يراع في بنائها النظم المعمارية الحربية المتبعة في التحصينات الضخمة التي أقيمت في عصر المماليك . ولم يتبق من البوابتين الفقيرتين المتبقيتين من بوابات صيدا سوى منبتا عقديهما بالإضافة الى عضادتي كل منهما ، ويحتاج الامر الى دراسة تفصيلية دقيقة لبقايا التحصينات المملوكية بصيدا .

قَلْعَةُ الْبَحْرِ

صَيْدَا



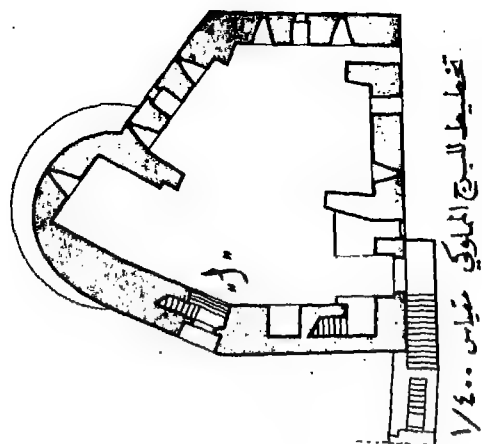
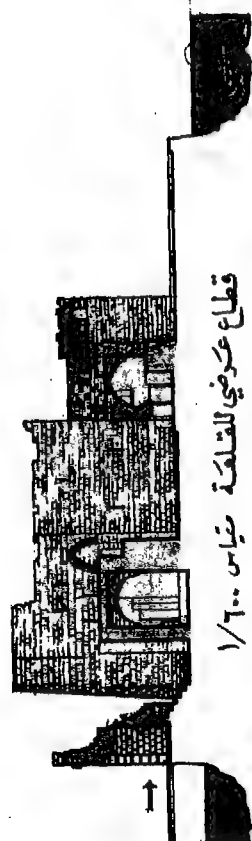
تخطيط عام للقلعة مقياس ١/٨٠٠



قطاع طولي من الجهة الشمالية مقياس ١/٨٠٠



١٨١



خاتمة
نهوض صيدا في عصر الأمير فخر الدين المعني الثاني

خاتمة

نهوض صيدا في عصر الأمير فخر الدين المعني الثاني

حسنت موقعة مرج دابق (رجب ٩٢٢/١٥١٦ م) مصير الشام ومصر فأصبحتا تابعتين للدولة العثمانية ، وأصبحت دمشق التي أسندت نيابتها إلى جان بردي الغزالي إيالة عثمانية تضم عشر سنجقيات ، من بينها صيدا . وزاد اضمحلال صيدا في العصر العثماني وفقدت أهميتها ، وأصبحت أقرب ما تكون الى القرية منها الى المدينة ، وقد اعتبرها صاحب الكواكب السائرة قرية عندما ترجم للشيخ كمال الدين محمد الخطيب ، سبط الشيخ البرهان الباعوني المتوفي في صيدا في ١٢ جمادي من سنة ٩٢٣ هـ^(١).

وفي بداية العصر العثماني خرج الأمير ناصر الدين محمد بن الحنش صاحب صيدا والبقاعين عن طاعة السلطان العثماني ، فاستولى جان بردي الغزالي على صيدا ، وفر الأمير ابن الحنش^(٢) ، ثم قتل . فولى السلطان سليم الأمير محمد بن قرقاس على بيروت وصيدا بالاضافة الى التقدمة على بلاد البقاع ، وذلك في ٢٨ ذي الحجة سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)^(٣).

ثم أخذت الحياة تدب في صيدا من جديد منذ أن اتخذها الأمير

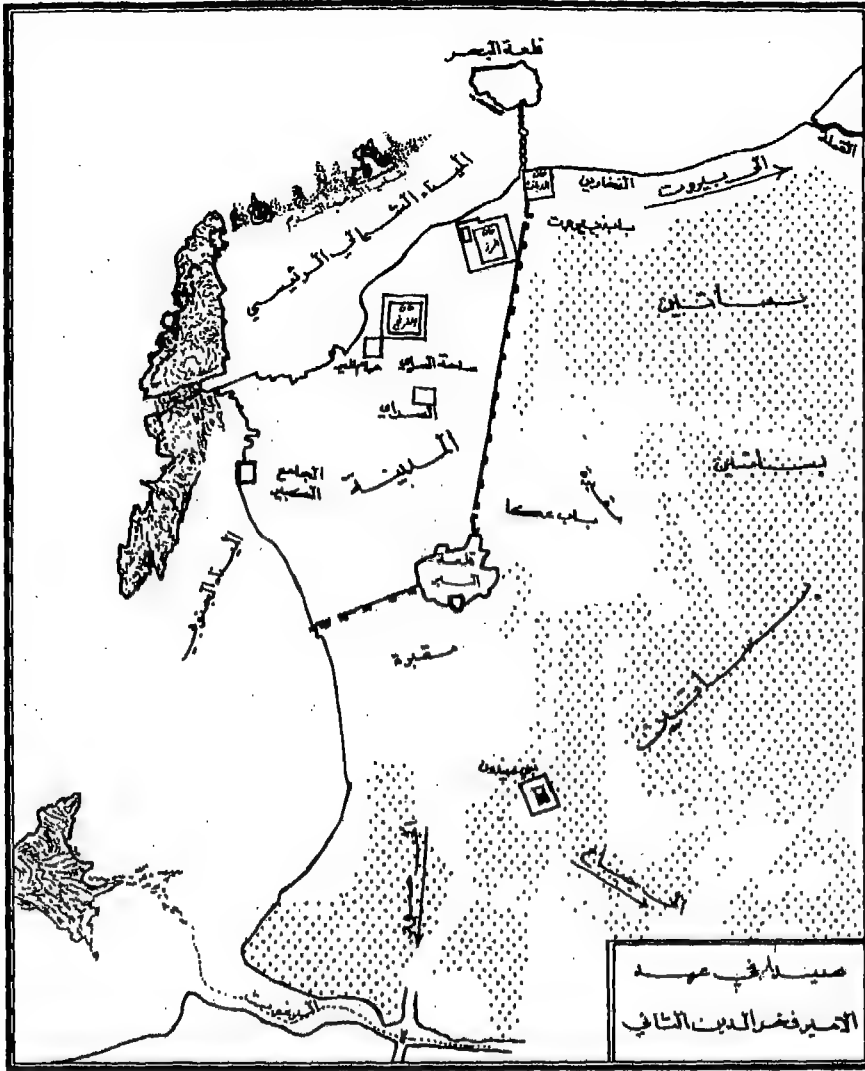
(١) الغزي ، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، تحقيق الاستاذ جبرائيل سليمان جبور ،

بيروت ، ١٩٤٥ ، ج ١ ، ص ٨٨

(٢) الشدياق ، ج ١ ص ٢٩٣ ، ج ٢ ص ٣٠٣

(٣) شمس الدين محمد بن طولون ، مفاكهة الحلان في حوادث الزمان ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ،

قسم ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧٧



خريطة رقم ٤

فخر الدين المعني الثاني بن قرقاز بن فخر الدين الاول في سنة ١٥٩٤ حاضرة
لإمارته ومقرأ له . ولم تلبث إمارة الشوف التي يتولاها أن اتسعت بعد
أن ضم إليها بيروت وكسروان لمدة عام واحد ، وذلك بعد انتصاره على
يوسف باشا سيفا والي طرابلس في موقعة جرت عند نهر الكلب في سنة

١٥٩٨ ، ثم تركها له برضائه^(١). وفي فترة رحلته الى توسكانا بإيطاليا فيما بين عامي ١٦١٢ - ١٦١٧ م انتزع أحمد باشا الحافظ ولاية بيروت وكسروان من أتباع فخر الدين وسلمها الى حسين باشا بن يوسف سيفا ، كما أسند سنجقية صيدا الى ابن البستنجي . ولما عزل الحافظ من منصبه في أواخر سنة ١٦١٤ بعد صدور فرمان العفو عن فخر الدين ، أنعم چركس محمد باشا نائب دمشق الجديد على الامير يونس المعني ، شقيق فخر الدين ، بسنجقية صيدا وبيروت وبلدانها كما أنعم على الامير علي بن فخر الدين بسنجقية صفد في سنة ١٦١٤ . وعندما عاد فخر الدين من رحلته في ايطاليا عهد الى توسيع منطقة نفوذه ؛ ففي سنة ١٦١٨ استولى على جبيل وهدمها وولى عليها الشيخ أبانادر الخازن^(٢)، وتمكن من استعادة عدة سنجقيات مثل صيدا وصفد ونابلس وبعلبك والبقاع وطرابلس وحوران وعجلون والكرك ، فاتسع سلطانه وأدخل في امارته أنواعاً جديدة من الزراعة كالتوت اللازم لتربية دود القز ، كما طوّر الصناعات ونشط التجارة البحرية ، فكثرت موارده . وفي سنة ١٦٢٠ ، حاصر فخر الدين قلعة طرابلس وكاد ينتزعها من يوسف باشا سيفا^(٣) ، وفي العام التالي ولاء محمد باشا الكرجي على جبيل والبترون وبشري والضنية وعكار بالاضافة الى امارة الشوف وسنجقية صيدا^(٤). ولم يمض على ذلك عامان (١٦٢٤) حتى أنعم عليه السلطان بولاية عربستان وتمتد من حدود حلب الى حدود العريش^(٥). وتلقب بلقب « سلطان البر » وهو اللقب الذي كان يحمله

- (١) الدويهي ، ص ٢٩١ - عيسى اسكندر المعلوف ، ص ٦٩ ، ٧٠ - الشدياق ، ج ١ ص ٢٩٤
- (٢) نفس المرجع ، ص ٣١١ - عيسى المعلوف ، ص ١٧٧ ، ١٧٨
- (٣) نفس المرجع ، ص ٣١٣ - عيسى المعلوف ، ص ١٨٠
- (٤) الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين المعني ، تحقيق الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ١٩٦٩ ص ١٠١ - عيسى المعلوف ، ص ١٨١
- (٥) الدويهي ، ص ٣١٨ - عيسى المعلوف ، ص ١٨٠

جده فخر الدين الاول^(١). وإلى هذه الفترة ترجع معظم منشآته وأعماله الداخلية ، فقد شيد القصور وغرس الحدائق وأسس الفنادق ، وحسن القلاع ، ونهض بالزراعة والصناعة والتجارة ، وعقد المعاهدات التجارية مع قناصل الفرنج^(٢).

غير أن الدولة العثمانية لم تلبث أن ارتأبت في نوايا الأمير فخر الدين بسبب سعيه المتواصل لتخليص الشام من السيطرة العثمانية وإقامة دولة مستقلة ، بالإضافة إلى ارتباطه بصلات سياسية مع بعض الدول المناهضة للدولة العثمانية ، فعمدت إلى محاربته والقضاء عليه . وعهد السلطان مراد إلى الوزير الكجك أحمد باشا بقيادة حملة هدفها القبض على الأمير فخر الدين . وتم أسره في آخر جمادى الثاني سنة ١٦٣٣ ، وحمل إلى القسطنطينية مع ثلاثة من أولاده هم منصور وحيدر وبلك وزوجاته الأربعة ، ثم قتل بأمر السلطان مراد هو وأولاده الثلاثة وزوجاته في ١٣ مارس سنة ١٦٣٥ .

وشهدت صيدا في عهد الأمير فخر الدين الثاني ازدهاراً لم تشهده منذ أيام الدولة الفاطمية ، فقد تهتم بها الأمير وخصها بعنايته منذ اتخذها قاعدة لولايتها ، وكانت صيدا قبل ذلك مجرد قرية صغيرة تقوم في نواحيها أطلال دارة من تاريخها القديم والوسيط ، فعمل على تجديد رسومها وترميم ما عفى من أبنيتها وقلاعها وتحسين مرفئها وترويج تجارتها ، واهتم بتنمية مواردها عن طريق تنشيط الحركة التجارية وحماية التجار من القراصنة ، وتشجيع الصناعة وعلى الأخص صناعة الحرير والصابون والصباغة^(٣) ، وربط صيدا تجارياً بتسكانا وغيرها ، وزودها بالفنادق

(١) الملعوف ، ص ١٨٨ - إبراهيم الاسود ، ذخائر لبنان ، ص ٢٣٥

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٩

(٣) عيسى الملعوف ، ص ٩٠



البزبحان الافرنج

والخانات لنزول تجار الافرنج . ومن أهم منشآت فخر الدين المدنية والاقتصادية : انشاء جسرين أحدهما على نهر الاولى من عقد واحد أقامه المهندس فرنسيسكو شيولي ، والثاني على نهر القاسمية ^(١) جنوبي صيدا ، بينها وبين بلدة الصرند ، وانشاء الخانات لنزول التجار الاجانب وأهمها خان الافرنج أو الخان الفرنساوي الذي أصبح اليوم داراً للبيات تحت ادارة راهبات مار يوسف ^(٢) ، وخان الرز . كذلك أسس قصراً لم يستكمل بناؤه يقع بإزاء خان الافرنج ، وأسس قصوراً أخرى تحيط بها الحدائق والبساتين . ومن أهم منشآته المدنية أيضاً توسيعه لمرفأ صيدا ، وانشائه الحمام البراني المعروف بحمام المير . أما أعماله الحربية فتقتصر على ترميم قلعة البحر واقامة مسجد بها بقيت كثير من عناصره في وقتنا الحاضر . وقد اجتذبت هذه الانشاءات وما أجراه من تسهيلات ، التجار الاجانب وعلى الاخص التجار الفرنسيين ^(٣) . ولكن كل هذا الازدهار الذي نعمت به صيدا لمدة ثلاثين سنة لم يلبث أن غربت شمسها عندما طمر فخر الدين الميناء بالرمال والحجارة وحطام السفن حتى يوعر على الاتراك الطريق الى اقتحامها بأساطيلهم ^(٤) .

ثم تولى على صيدا وبيروت بعد آل معن أحمد آغا الشمالي ، ولكنه لم يلبث أن قتل في أرض خلدة على يد ابن علم الدين في سنة ١٦٣٨ ابان الصراع بين القيسية واليمنية ^(٥) ، ثم تسلمها محمد باشا الارناؤوط والى طرابلس الذي أسند حكمها الى زلفي آغا ^(٦) ، ثم ولي عليها محمد باشا الارناؤوط اسماعيل آغا ^(٧) .

(١) نفس المرجع ص ٢٥٤ - يوسف مزهر ، ج ١ ص ٣٣٨ - فيليب حقي ، ص ٤٥٧

(٢) نفسه ، ص ٢٦٣

(٣) Frederick, p. 105, 106

(٤) عيسى العلوف ، ص ٢٤٠ - Frederick p. 106 - مزهر ، ج ١ ص ٣٥٠

(٥) الدويهي ، ص ٣٣٨

(٦) نفسه ، ص ٣٤١

(٧) نفسه ، ص ٣٥٢

ومنذ سنة ١٦٥٨ أصبحت صيدا نيابة يتولاها الباشا ، فتولاها في سنة ١٦٦٠ علي باشا الدفتردار ، ولما عزل في سنة ١٦٦٢ تولاها محمد باشا الارناؤوط . وظلت كذلك ما يقرب من قرن ، ولكن المدينة اضمحلت اضمحلالاً شاملاً ، ولم تهض من عثرتها الا بعد الاستقلال عندما أصبحت قاعدة جنوب لبنان .

كلمة شكر وتقدير

فاتني في ختام المقدمة أن أقدم شكري العميق
وتقديري البالغ للمهندس نور الدين الشرفاء على تفضله بإعازتي
التخطيطات والرسوم المتعلقة بقلعة صيدا البحرية ، وإلى
الأخ الكريم أمين منيمنة على تفضله بتنفيذ الخرائط الجغرافية .

مراجع البحث

أولاً - المصادر العربية والمعرية :

- ١ - ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) :
كتاب الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر في ١٣ مجلد ، بيروت ، ١٩٦٥
- ٢ - الإدريسي (الشريف محمد بن عبد العزيز) :
وصف فلسطين والشام من كتاب نزعة المشتاق في اخراق الآفاق ، نشره جوانيس جيلدميستر ، بعنوان Palaestina et Syria ، بون ١٨٨٥
- ٣ - الأصفهاني (العماد أبو عبد الله محمد بن صفى الدين) :
الفتح القسي في الفتح القدسي ، نشره الاستاذ محمد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥
- ٤ - الأنطاكي (يحيى بن سعيد) :
صلة تاريخ سعيد بن بطريق ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ١٩٠٩
- ٥ - ابن أبيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله) :
الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، ج ٩ ، تحقيق هانز روبرت ووير ، القاهرة ، ١٩٦٠
- ٦ - البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي) :
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق الاستاذ مصطفى السقا ، ج ٣ القاهرة ، ١٩٤٩
- ٧ - البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) :
كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٦
- ٨ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) :
رحلة ابن بطوطة ، المسماة « تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، طبعة صادر ، بيروت ، ١٩٦٠
- ٩ - ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزء ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨

- ١٠ - جوائيل : القديس لويس :
رحلاته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٨
- ١١ - ابن حوقل النصيبي :
صورة الارض ، بيروت
- ١٢ - الخالدي (أحمد بن محمد الصفدي) :
تاريخ الامير فخر الدين المني ، تحقيق الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٦٩
- ١٣ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :
كتاب العبر ودوان المبتدأ والخبر ، طبعة بيروت ، المجلد الخامس
- ١٤ - الدبس (المطران يوسف) :
تاريخ سورية ، المجلد السادس ، بيروت
- ١٥ - الدمشقي (شمس الدين أبو عبد الله محمد) :
كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، تحقيق مهن ، لبيزج ، ١٩٢٨
- ١٦ - الدويهي (البطريرك اسطفانوس) :
تاريخ الازمنة ، تحقيق الاب فردينان توتل اليسوعي ، بيروت ، ١٩٥١
- ١٧ - الدويهي (البطريرك اسطفانوس) :
تاريخ الطائفة المارونية ، بيروت ، ١٨٩٠
- ١٨ - الذهبي (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد) :
المعبر في خبر من غير ، تحقيق الاستاذ فؤاد سيد ، الكويت ، ١٩٦١
- ١٩ - الزبيدي (محمد مرتضى) :
تاج العروس
- ٢٠ - ابن الساعاتي (بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم الخراساني) :
ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق الاستاذ أنيس المقدسي ، بيروت ، ١٩٣٨
- ٢١ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) :
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، طبعة مصر ، ١٣٢١ هـ
- ٢٢ - أبو شامة (عماد الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل) :
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٦
- ٢٣ - ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل) :
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك ، تحقيق مول رافيس ، باريس ، ١٨٩٤

- ٢٤ - ابن شداد (القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف) :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤
- ٢٥ - ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد الحلبي) :
الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ،
١٩٥٦ - ١٩٦٢
- ٢٦ - الشدياق (الشيخ طنوس بن يوسف) :
أخبار الاعيان في جبل لبنان ، جزءان ، بيروت ، ١٩٥٤
- ٢٧ - صالح بن يحيى :
تاريخ بيروت ، وهو أخبار السلف من ذرية بجتر بن علي أمير الغرب ببيروت ، تحقيق
فرنسيس هورس اليسوعي ، وكال سليمان الصليبي ، طبعة دار المشرق ، بيروت ، ١٩٦٨
- ٢٨ - طافور :
رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ،
القاهرة ، ١٩٦٨
- ٢٩ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) :
تاريخ الامم والملوك ، طبعة دار القاموس الحديث ، بيروت (بدون تاريخ)
- ٣٠ - ابن طولون الدمشقي (شمس الدين) :
مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، جزآن ، القاهرة ،
١٩٦٢ - ١٩٦٤
- ٣١ - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله القرشي) :
فتوح مصر والمغرب والاندلس ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١
- ٣٢ - ابن عبد الظاهر (يحيى الدين) :
تشریف الايام والعصور في سيرة الملك النصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل ،
القاهرة ، ١٩٦١
- ٣٣ - ابن العديم الحلبي (كمال الدين أبو القاسم عمر) :
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، نشره الدكتور سامي الدهان ، ج ١ ، دمشق ، ١٩٥١
- ٣٤ - العيني (بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد) :
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، نسخة مصورة من مخطوطة أسطنبول ، محفوظة بدار
الكتب المصرية ، برقم ١٥٨٤ تاريخ (جزء ٢٥)
- ٣٥ - العيني :
السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق الاستاذ فهم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٩٦٧

- ٣٦ — الغزي (نجم الدين) :
الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، ٣ أجزاء ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ،
بيروت ، ١٩٤٥
- ٣٧ — أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) :
المختصر في أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩
- ٣٨ — أبو الفداء :
تقويم البلدان ، تحقيق دي سلان ، باريس ، ١٨٤٠
- ٣٩ — ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) :
تاريخ ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ونحلاء عز الدين ، الأجزاء : السابع
والثامن والتاسع ، بيروت ، ١٩٣٩ - ١٩٤٢
- ٤٠ — ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن محمد) :
مختصر كتاب البلدان ، لندن ، ١٨٨٥
- ٤١ — ابن القلاسي (أبو يعلى حمزة) :
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨
- ٤٢ — القلقشندي (أحمد بن علي) :
صبح الاعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٥
- ٤٣ — القلقشندي :
مآثر الإفاة في معالم الخلافة ، ج ٢ تحقيق الاستاذ عبدالستار أحمد فراج ، الكويت ، ١٩٦٤
- ٤٤ — الكتاب المقدس :
العهد العتيق ، بيروت ، ١٩٦٠
- ٤٥ — الكتاب المقدس :
الانجيل الاربعة وأعمال الرسل ، بيروت ، ١٩٦٧
- ٤٦ — ابن كثير الدمشقي (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر) :
البداية والنهاية في التاريخ ، ١٤ جزءاً ، بيروت ، ١٩٦٦
- ٤٧ — المعلوف (عيسى اسكندر) :
تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، بيروت ، ١٩٦٦
- ٤٨ — المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد) :
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة دي غوية ، لندن ، ١٩٠٦
- ٤٩ — المقرئزي (تقي الدين أحمد بن علي) :
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٣ أجزاء ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩

- ٥٠ - المقرئ :
اتعاط الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفاء ، ج ١ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ،
القاهرة ، ١٩٤٨
والقسم المخطوط ، صورة مصورة من مخطوطة مكتبة سراي أحمد الثالث ماسطنبول
محفوظة بمكتبة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، برقم ٢٠ م
- ٥١ - المقرئ :
السلوك لمعرفة دول الملوك ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٥٥ تاريخ -
وجزآن مطبوعان في ستة أجزاء ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ج ١ قسم ٢٠١ ،
القاهرة ، ١٩٥٦ ، ج ١ قسم ٣ ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ج ٢ القاهرة ١٩٢١
- ٥٢ - ابن منظور (جمال الدين محمد) :
لسان العرب ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥
- ٥٣ - ناصر خسرو (علوي) :
سفرنامه (بالفارسية) ، طبع برلين ، ١٣٤٠ هـ
- ٥٤ - النويري (شهاب الدين احمد) :
نهاية الارب في فنون الادب ، نسخة مصورة للمخطوطة ، محفوظة بدار الكتب المصرية ،
ج ٣٠ ، رقم ٥٤٩ معارف عامة
- ٥٥ - النويري (محمد بن قاسم) :
الامام بما جرت به الاحكام المقتضية في وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من مخطوطة
دار الكتب المصرية ، المقيمة برقم ١٤٤٩ تاريخ ، محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة
الاسكندرية ، برقم ٧٣٧ م
- ٥٦ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، ٣ أجزاء ،
القاهرة ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦١
- ٥٧ - ابن الوردي (زين الدين عمر) :
تاريخ ابن الوردي المسمى « تنمة المختصر في أخبار البشر » ، جزآن ، بيروت ، ١٩٧٠
- ٥٨ - ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبدالله بن عبد الله) :
كتاب المشترك وضما والمفترق صقما ، نشره فردناند وستنفلد ، جوتنجن ، ١٨٤٦
- ٥٩ - ياقوت الحموي :
معجم البلدان ، خمس مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥
- ٦٠ - ياقوت الحموي :
معجم الادباء ، طبعة دار المأمون (بدون تاريخ)

- ٦١ - اليعقوبي (احمد ابي يعقوب جعفر) :
تاريخ اليعقوبي ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠
- ٦٢ - اليعقوبي :
كتاب البلدان ، لندن ، ١٨٩٦
- ٦٣ - يني (جرجي) :
تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١
- ثانياً - المراجع العربية الحديثة والأوروبية المعربة :
- ٦٤ - الأسود (ابراهيم بك) :
ذخائر لبنان ، بعبدا ، ١٨٩٦
- ٦٥ - ابو العنين (دكتور حسن) :
دراسات في جغرافية لبنان ، بيروت ، ١٩٦٨
- ٦٦ - بسيسو (الأستاذ سليم) :
صيدا سيدة البحار وسيدة الدنيا ، مجلة العربي ، عدد ٤٨ ، تشرين ثاني ، ١٩٦٢
- ٦٧ - بطرس عبد الملك وچون الكسندر طمسن و ابراهيم مطر :
قاموس الكتاب المقدس ، بيروت ، ١٩٦٤
- ٦٨ - الترك (الاستاذ غالب) :
لبنان في معافطاته ، معافطة الجنوب ، من سلسلة محاضرات دار الندوة اللبنانية ،
بيروت ، ١٩٦١
- ٦٩ - توفيق (دكتور عمر كمال) :
مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي ، الامبراطور حنا تريمسكس وسياسته
الشرقية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧
- ٧٠ - توفيق :
تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧
- ٧١ - حبشي (دكتور حسن) :
الشرق العربي بين شقى رحى ، القاهرة ، ١٩٤٩
- ٧٢ - حبشي :
الحرب الصليبية الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٧
- ٧٣ - حقي (دكتور فيليب) :
لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجه والدكتور نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩

- ٧٤ - خليفة (الاستاذ امين) :
تاريخ سوريا قبل الفتح الإسلامي ، بيروت ، ١٩٣٠
- ٧٥ - الخوري (الاستاذ منير) :
صيدا عبر حقب التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٦
- ٧٦ - دروزة (الاستاذ محمد عزة) :
العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري ، دمشق ، ج ١ ،
١٩٥٩
- ٧٧ - دو كوسو (جاستون) :
تاريخ الحرير في بلاد الشام ، مجلة المشرق ، السنة ١٥ ، بيروت ، ١٩١٢
- ٧٨ - رستم (دكتور اسد) :
تاريخ اليونان ، بيروت ، ١٩٦٩
- ٧٩ - رنسيان (ستيفن) :
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريفي ، ٣ مجلدات ، بيروت ،
١٩٦٧ - ١٩٧٠
- ٨٠ - زكي (دكتور عبد الرحمن) :
القلاع في الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس عشر ، القاهرة ،
١٩٦٩ (ص ٤٩ - ٨٩)
- ٨١ - زيادة (دكتور نقولا) :
رواد الشرق العربي في القرون الوسطى ، القاهرة ، ١٩٤٧
- ٨٢ - زيادة :
مدن عربية ، بيروت ، ١٩٦٥
- ٨٣ - الزين (الاستاذ احمد عارف) :
تاريخ صيدا ، صيدا ، ١٩٣١
- ٨٤ - سالم (دكتور السيد عبد العزيز) :
المساحد والقصور في الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٨
- ٨٥ - سالم :
المغرب الكبير ، الجزء الثاني : المغرب الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٦
- ٨٦ - سالم :
طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٧
- ٨٧ - سالم :
تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ، ١٩٦٩

- ٨٨ — سالم :
تاريخ العرب في العصر الجاهلي منذ أقدم المصور حتى قيام الدولة العربية الإسلامية ،
بيروت ، ١٩٧٠
- ٨٩ — سرور (دكتور محمد جمال الدين) :
التفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة ، ١٩٥٩
- ٩٠ — سرور :
دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية في العصور
الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٠
- ٩١ — شهاب (الأمير موريس) :
الاسكندر الأكبر في صيدا ، مجلة المشرق ، السنة ٢٧ ، بيروت ، ١٩٢٩
- ٩٢ — الشيال (دكتور جمال الدين) :
المجلد في تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩
- ٩٣ — الصياد (دكتور فؤاد عبد المعطي) :
المغول في التاريخ ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٧٠
- ٩٤ — عاشور (دكتور سعيد عبد الفتاح) :
الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٣
- ٩٥ — العبادي (دكتور أحمد مختار) :
قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، بيروت ، ١٩٦٩
- ٩٦ — العبادي (دكتور أحمد مختار) وسالم (د. السيد عبد العزيز) :
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩
- ٩٧ — العريني (دكتور السيد الباز) :
الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٥
- ٩٨ — العريني :
المغول ، بيروت ، ١٩٦٧
- ٩٩ — غلاب (دكتور محمد) :
الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ ، بيروت ، ١٩٦٩
- ١٠٠ — فريحي (دكتور أنيس) :
أسماء المدن والقرى اللبنانية ، بيروت ، ١٩٥٦
- ١٠١ — كنعان (الاستاذ داود خليل) :
بيروت في التاريخ ، جزآن ، بيروت ، ١٩٦٣

- ١٠٢ — لامنس (الاب هنري) :
السواحل اللبنانية ، مجلة المشرق ، السنة السابعة عدد ٢٠
- ١٠٣ — لامونت (جون) :
الحروب الصليبية والجهاد ، مقال في « دراسات إسلامية » ترجمة الدكتور أنيس فريجه وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠
- ١٠٤ — ماجد (دكتور عبد المنعم) :
تاريخ الحضارة الإسلامية في المصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٣
- ١٠٥ — مجدلافي (الاستاذ سليم) :
دليل صيدا الاثري
- ١٠٦ — مزهر (دكتور يوسف) :
تاريخ لبنان العام ، ج ١ ، بيروت
- ١٠٧ — المنجد (دكتور صلاح الدين) :
مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين ، بيروت ، ١٩٦٧
- ١٠٨ — ميخائيل (دكتور نجيب) :
مصر والشرق الادنى القديم ، ج ٣ : سورية ، الاسكندرية ، ١٩٦٤

ثالثاً — المراجع باللغات الأوروبية :

- 109 — ABEL :
Géographie de la Palestine, t. I, Paris, 1933.
- 110 — AHARONI (Y.) :
The Land of the Bible (a historical Geography), London, 1968.
- 111 — BARAMKI (Dimitri) :
Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961.
- 112 — CAHEN (Claude) ;
La Syrie du Nord à l'époque des Croisades, Paris, 1940.
- 113 — CAHEN :
Une chronique syrienne du VI siècle : « le Bustan al Jâmi », extrait du Bulletin d'études orientales de l'Institut Français de Damas, t. VII, VIII.
- 114 — CONDÉ (Bruce) :
See Lebanon, Beirut, 1960.
- 115 — CHEIRA (M. A.) :
La Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947.
- 116 — CHAMI (Joseph Michel) :
De la Phénicie, Beyrouth, 1967.
- 117 — CHEHAB (Maurice) :
Rôle du Liban dans l'histoire de la soie, Beyrouth, 1967

- 118 - DEMOMBYNES (Gaudefroy) :
La Syrie à l'époque des Mamelouks, Paris, 1923.
- 119 - DESCHAMPS (Paul) :
La défense du Royaume de Jérusalem, Paris, 1939.
- 120 - Dictionnaire de la Bible, pub. Vigouroux, t. V, Paris, 1928.
- 121 - DOZY (R.) :
Supplément aux dictionnaires arabes, 2 Vols., Beirut, 1968
- 122 - DUSSAUD (René) :
Un nom nouveau de verrier sidonien, dans Syria, t I, Paris, 1920.
- 123 - DUSSAUD :
Topographie historique de la Syrie antique et médiévale, Paris, 1927.
- 124 - FEDDEN (Robin) :
Syria, London, 1954.
- 125 - FEDDEN & THOMSON :
Crusader Castles, London, 1957.
- 126 - FREDERICK CARL EISLEN :
Sidon, a study in Oriental history, New-York, 1907.
- 127 - GIBBON (Ed.) :
The history of the decline and fall of the Roman Empire, London, 1903.
- 128 - GROUSSET (René) :
Histoire des Croisades, 3 vol., Paris, 1934-1936.
- 129 - HARDEN (Donald) :
The Phœnicians, London, 1963
- 130 - HÉRODOTUS :
t. III, Book VII, trans. Godley, London, 1963.
- 131 - HEYD (W.) :
Histoire du Commerce du Levant, t. I, Leipzig, 1936.
- 132 - HILL (G. Francis) :
Catalogue of the Greek coins of Phœnicia, London, 1910.
- 133 - HOMÈRE :
Iliade, trad. Paul Mazon, t. IV, Paris, 1938.
- 134 - KING (E. J.) :
The Knights of Hospitallers in the holy Land, London, 1931.
- 135 - LAMMENS (H.) :
La Syrie : Précis historique, 2 tomes, Beyrouth, 1921.
- 136 - MARMARDJI (O. P.) :
Textes géographiques arabes sur la Palestine, Paris, 1951.
- 137 - MARVIN LAPIDUS (Ira) :
Muslim cities in the later middle ages, Cambridge, 1967.
- 138 - MICHAUD :
Histoire des Croisades, vol. IV, Paris, 1822.
- 139 - MÜLLER-WIENER (Wolfgang) :
Castles of the Crusaders, New-York, 1966.

- 140 — PLINY :
Natural history, Vol. X, Libri XXXVI, ed. E. Eichholz, London, 1962.
- 141 — POIDEBARD et LAUFFRAY :
Sidon : aménagements antiques du port de Saida. Beyrouth, 1951.
- 142 — Recueil des Historiens des Croisades : Historiens Orientaux, 4 vols
- 143 — REY (R.) :
Les colonies franques de Syrie aux XIIe. et XIIIe. siècles, Paris, 1883.
- 144 — RICHARD (J) :
Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine. Paris, 1945.
- 145 — ROBINSON :
Biblical researches in Palestine, 2^d edition.
- 146 — ROUSSET (R.) :
Histoire des Croisades, Paris 1957.
- 147 — SAUVAGET (J.) :
Un relais du Barid Mamelouk, dans Mélanges Gaudéfroy-Demombynes, Le Caire, 1935.
- 148 — SCHULIM (Ochser) :
Sidon, in : The Jewish Encyclopaedia
- 149 — SEEDEN (Helga) :
Coastal Lebanon ; The ancient Sea-Ports of Phœnicia, in Cultural Resources in Lebanon, Beirut, 1969.
- 150 — STEVENSON (W. B.) :
The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.
- 151 — LE STRANGE (Guy) :
Palestine under the Moslems, Beirut. 1965.
- 152 — STRABO
The Geography of Strabo, trans. Horace Leonard Jones, London, 1961.
- 153 — SURIAL (A. A) :
The Crusade in the later Middle age, London, 1938.
- 154 — ZIADA (M. M) :
The Mamluk conquest of Cyprus, Bulletin of the Faculty of arts, Univ of Egypt, vol. I, Part I, May 1933.

فهرس الأعلام

(أ)

- ابن العديم ٧٨ - ٧٩
 ابن عصودا (راجع « أبو محمد »)
 ابن الفرات ١٣٣
 ابن فضل الله العمري ١٦
 ابن القلانسي ٧١ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٩ ،
 ١١١
 ابن كوجك (راجع « أبو عبدالله »)
 ابن واصل ١١٤ - ١١٥ ، ١٢٥
 ابن الوردي ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٦٥
 أبو بكر بن البصيص البعلبيكي ١٦١
 أبو جعفر المنصور ٦٤
 أبو الحسن محمد بن أحمد بن جميع الفساني
 ٦٧
 أبو طاهر بن ذكوان البعلبيكي ٦٦
 أبو عبدالله المحسن بن علي بن كوجك ٦٧
 أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي ١٨
 أبو عبيده بن الجراح ٥٥ ، ٦٢
 أبو العساكر جيش (الأمير) ٦٦
 أبو فارس (السلطان الحفصي) ١٧٣
 أبو الفتح بن الشيخ ٦٩ ، ٧١ ، ٧٦
 أبو الفداء ١٦٥ - ١٦٦
 أبو القاسم الأفضل شاهنشاه ٨٥ ، ٨٨
- ابراهيم بن الحبازة القبرصي ١٧١
 ابن أبي سلمة (راجع « أبو نصر »)
 ابن الاثير ٥٦ ، ١٠٧ ، ١٣٠
 ابن بطوطه ١٦٥ - ١٦٦
 ابن البصيص (راجع « أبو بكر »)
 ابن جميع (راجع « أبو الحسن »)
 ابن الجوزي ١٠٧
 ابن حوقل ٦٧
 ابن خالويه ٦٧
 ابن الحبازة القبرصي (راجع ابراهيم)
 ابن ذكوان (راجع « أبو طاهر »)
 ابن الروقليه ٨١
 ابن الساعاتي ١٤٢
 ابن سباط ١٧٠
 ابن شداد (عزالدين) ١٢٥ ، ١٣٣ - ١٣٤
 ابن شداد (بهاء الدين) ١١٥ ، ١٢٣
 ابن الشمشيق (الامبراطور البيزنطي
 حنا تريمسكس) ٧١
 ابن الشيخ (راجع « أبو الفتح »)
 ابن طولون (راجع أحمد)

- استكين الأفضلي (سعد الدولة) ٨٨، ٨٧
 اسرحدون ٦٢، ٣٢
 الاسكندر الأكبر ٣٧-٣٨، ٥٢، ٥٩
 اشمنغازار ٥١، ٥٠، ٢٤
 الاشرف برسبائي (السلطان الملك)
 ١٧٣، ١٧٨
 الأشرف خليل (السلطان الملك) ١٥٥-
 ١٥٨، ١٦٠، ١٦٨ - ١٦٩
 الاشرف موسى بن العادل (الملك) ١٣١،
 ١٣٣
 اشمون ٥٠، ٢٤
 اشور نصر بال الثاني ٣١
 آشوط الثالث ٧٢
 اغسطس قيصر ٤٠
 افتكين التركي (راجع أبو منصور)
 افرير كليام ديباجوك ١٥٤
 افرير كورات ١٥٤
 افرير نيكول للورن ١٥٤
 الأفضل شاهنشاه (راجع أبو القاسم)
 الافضل نور الدين علي ١٢٤
 ألب أرسلان (السلطان) ٨٣
 البيرد اكس ١٠٦
 الكسندروس ٤٤
 الكسيس كومنين (الامبراطور)
 البيزنطي ١٠٧
 اماجور التركي (القائد) ٦٥
 الامر بأحكام الله (الخليفة الفاطمي) ١٠٩
 المقدسي البشاري ٦٧
- ابو محمد الحسن القرمطي ٦٩
 ابو محمد بن عصودا ٦٩
 أبو محمود بن ابراهيم بن جعفر بن فلاح ٧٠
 ٧٢
 أبو منصور التركي ٧٠ - ٧٤
 أبو نصر علي بن الحسين بن احمد
 ابن ابي سلمة ٦٧
 اتسر التركي ٨٣ - ٨٤
 أثبعل الثاني ٣٢
 اثبعل الثالث ٣٣
 احشوريش ٤٨، ٣٤
 احمد أبو القاسم (راجع المستعلي بالله)
 احمد آغا الشهابي ١٩٠
 احمد باشا الحافظ ١٨٧
 احمد بن طولون (الأمير) ٦٥
 ادنبراري الثالث ٣٢
 الادريسي ١٨، ٦٠، ١٠٥، ١٦٥
 أودوسنت اماند (المقدم) ١١٤
 أرتمششتا الأول ٣٥
 أرتمششتا الثاني ٣٥
 أرتمششتا الثالث أوخوس ٣٥-٣٧
 ٥٩، ٥٢
 أرستون الصيداوي (الزجاج) ٤٧
 أرسطو ٥٠
 ارناط ١١٤، ١١٦، ١١٨ - ١٢٠
 ١٢٣ - ١٢٤، ١٣٧
 أسامه بن منقذ ١٢٦
 استرابو ٤٧، ٥٠

برسباي (السلطان الملك الأشرف)

١٧٣ ، ١٧٨

برنار الصيداوي ١١٣

البرهان الباعوني (الشيخ) ١٨٥

بطليموس بن لاجوس ٣٨ - ٣٩

بلدوين (الملك الصليبي) ٩٣ - ٩٦ ، ٩٨ -

١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١٠٨ - ١٠٩ ، ١١١ ، ١٣٧ ،

١٦٧

بلك بن فخر الدين (الأمير) ١٨٨

بلتيوس سيجوندوس ٤٦ - ٤٧

بهاء الدين داود بن علم الدين سليمان

(الأمير) ١٦١

بوسيكو (أمير البحر) ١٧٤

بولس الرسول ٤١

بولس الانطاكي ٦٤

بولونر ١٦٦ - ١٦٧

بوتوميتس ١٠٧

بومبونيوس ميلا ٤٢

بوثيوس ٥٠

بوهمند السادس (صاحب انطاكية)

١٣٧ ، ١٣٩ - ١٤٠ ، ١٥١

بوهمند السابع ١٥٣ - ١٥٤

البلاذري ٥٦ ، ٦١

بيلوس ١٧

(ت)

تبنيث بن اشمونعزار ٥١

اماريك (الملك الصليبي) ١١٣ ، ١٢٥

١٢٧ - ١٢٨

انتيباتر الصيداوي ٥٠

انتيجوناس ٣٨ - ٣٩

انطيوخوس الثالث ٣٩

انطونيوس مارتير ٤٢

انوسنت الثاني (البابا) ١١٣

انوشكين الأفضل (عز الملك) ٩٥ ،

١٠٦

اوشكين الذبري (القائد) ٧٩ ، ٨٠

اوريلوس كلوديوس (الامبراطور

الروماني) ٤٠

اينون الصيداوي (الزجاجة) ٤٧ ، ٤٩

ايتامش (الأمير) ١٥٢

ايرانوس (الزجاجة) ٤٧

ايوستاثيوس ١٧

ايوستاش جاريثيه (الفارس الصليبي)

١٠٣ ، ١٠٧

(ب)

باليان ابلين ١١٥ ، ١٢٠

باليان بن أرناط ١٣٢

بدر الجمالي (أمير الجيوش) ٨١ ،

٨٣ - ٨٤

بدر الدين بن رحال ١٥٢

بدر الدين العيني ١٧٣

بدعشرت ٢٦ ، ٥٢

برتران الصنجيلي (كوند طرابلس)

٩٨ ، ١٠٠

جروسية ١٢٠
جستان ١٨
جستنيان (الامبراطور البيزنطي) ٤٥
جعفر بن فلاح الكتامي (القائد) ٦٨ ، ٦٩
جلبان الظاهري ١٧٧ ، ١٧٩
جلبرت دي لانوي ١٤٢
جمال الدين حجي (الأمير) ١٥٢
جوانفيل ١٣٥ - ١٣٦ ، ١٤٤
جودفري دي بويون (الملك الصليبي) ٩٣
جورموند ١١٢
جوليان الصيد داوي (الأمير) ١٣٥ - ١٤٠
جون بولونر ١٦٦ - ١٦٧
جوهر الصقلي (القائد) ٦٨ ، ٧٤ - ٧٥
جي دي لوزنيان ١١٥
جيرار بن إيستاش ١٠٨
جيل بن باليان ١٣٧
جيوم دي بوجيه ١٥٣ ، ١٥٦

(ح)

الحاكم بامر الله (الخليفة الفاطمي)
٧٥ - ٧٧
حسان بن مفرج بن الجراح ٧٨ - ٨٠
الحسن بن احمد القرمطي ٧٤
الحسن بن عبدالله بن طنج ٦٨
حسين باشا بن يوسف سيفا ١٨٧
حيدر بن فخر الدين (الأمير) ١٨٨
حيرام الاول ٣٠

تقوام نستوس الصيد داوي بن انيسوس
(القائد) ٣٤ ، ٤٨
تجلات بلاسر الاول ٣١
تجلات بلاسر الثالث ٣٢
تريفون الصيد داوي (الزجاج) ٤٧
تساليون ٣٦
تقي الدين عمر (الأمير) ١١٥ - ١١٦
تميم بن المنذر بن النعمان الارسلاني
(الأمير) ٧٠
تنس (ملك صيد) ٣٤ ، ٣٦
تتكريد (صاحب أنطاكية) ٩٧
تيمورلنك ١٦١

(ث)

ثيبوت جودان ١٥٦
ثيودوروس ٤١
ثيودوسيوس الثاني (الامبراطور
البيزنطي) ٤١

(ج)

جازون (الزجاج) ٤٧
جاك دي فكري ١٦٧
جالينيوس ٤٠
جان بردي الغزالي ١٦٢ ، ١٨٥
جان دي ابلين ١٣٢ ، ١٣٧
جان دي بريين ١٢٩
جرباش الكرمي (الأمير) ١٧٣
جر كس محمد باشا ١٨٧

زلفا آغا ١٩٠

زينوبيا ٤٠

زنوبيوس (القديس) ٥٠

زهر الدولة الجيوشي ٩٣ ، ٩٥

زياد بن ابي الورد ٦٤

زين الدين آقوش النجبي ١٥٢

زين الدين صالح ١٥٢ ، ١٦٢

زينون ٥٠

(س)

سان جيروم ٤٤

سبتيوس سفروس (الامبراطور

الروماني) ٤٠ ، ٥٠

ستراتون الاول ٣٤ - ٣٥

ستراتون الثاني ٣٧

سعد الدولة الحمداني ٧٦

سعد الدين بن نزار ١٣٤

سعد الدولة ابو منصور استكين الافضلي

٦٠ ، ٨٧ - ٨٨

سعيد الدولة ابي الفضائل ٧٦

سليم الاول (السلطان) ١٦٢ ، ١٨٥

سليمان بن داود ٣٠

سناف (راجع راشد الدين)

السنجال اودو ١٥٤

سنجوان دمرف ١٧٢

سنحريب ٢٦ ، ٣٢

سنديس ١٦٦

سيف الدولة المنذر ٦٨ - ٦٩

(خ)

خالد بن الوليد ٦٢

خليل (السلطان الملك الأشرف)

١٥٥ - ١٥٨ ، ١٦٠ ،

١٦٨ - ١٦٩

(د)

داريوس ٣٥ - ٣٧

داوود الجركسي ١٧٢

الذبري ٧٩ - ٨٠

الديمياطي ١٥٨ ، ١٦٠

ديودور الصقلي ٤٩

ديشام ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧

(ر)

راشد الدين سنان ١١٣

ركن الدين بيبرس (السلطان) ١٥١

١٥٢ ، ١٧٧ ، ١٧٩

ري (Rev) ١٤٤ - ١٤٥ ، ١٤٧

ريتشارد فلانجيري ١٣٢

ريتشارد قلب الاسد (الملك) ١٢٢ - ١٢٤

ريمون الثالث (صاحب طرابلس) ١١٥

ريمون الصنجيلي ٨٥

ريمون كونت دي تولوز ٩١ - ٩٢

رينان ٥١

رينيه ديسو ٤٦

(ز)

زروبابل ٣٠ ، ٣٤

شيخ الربوه الدمشقي ١٥٧

(ص)

الصالح اسماعيل (الملك) ١٣٢ - ١٣٤

الصالح علاء الدين علي ١٥٤

صالح بن مرداس (الأمير أسد الدولة)

٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢

الصالح نجم الدين ايوب (السلطان)

١٣٢ - ١٣٣

صالح بن يحيى ١٥٢ - ١٧٠

صلاح الدين الايوبي (السلطان) ١٠٩ ،

١١١ ، ١١٥ - ١١٦ ، ١١٨ -

١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٤٤

صلاح الدين خليل بن عرام (الأمير) ٦٥

صيدوس بن ايجيتوس ١٧

صيدون بكر كنعان بن حام - ٢٩

(ط)

الطائع أبو عبد الكريم بن المطيع (الخليفة

العباسي) ٧١ - ٧٢

طافور ١٦٦

طفتكين (أتابك) ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٦ -

١٠٩ ، ١٦٧

طنوس الشدياق (الشيخ) ٧٥ ، ٨٥

(ظ)

ظالم بن موهوب العقيلي (الأمير) ٦٩ -

٧٠ ، ٧٣ - ٧٥

الظاهر (الملك صاحب حلب) ١٢٥

سيف الدين ابي المكارم يحيى بن نور الدين

صالح ١٧٢

سيف الدين بيدمر الخوارزمي ١٧٤

سيف الدين تنكز ١٦١

سيف الدين علي بن محمود بن المشطوب

الهكاري ١٢٠ - ١٢١

سيف الدين قلاوون (السلطان) ١٥٤ -

١٥٦ ، ١٥٨

سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري

١٦٩

سيمون دي مونتسيليار ١٣٥

(ش)

شاوور الاول ٤٠

شارل الأنجوي ١٥٤

شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ٨٤

الشريف الادريسي ٨٧

شعبان (السلطان الملك الأشرف) ١٦٤

شلمنصر الثالث ٣١

شلمنصر الخامس ٣٢

شمس الدين سنقر ١٢٥ ، ١٥١

شمس الدين عبد الله ١٧٠

شهاب الدين بن صبح ١٧٠

شهر براز ٤٢

شيركوه (اسد الدين) ١١٠

شيخ الخاصكي (السلطان المؤيد) ١٧٤

- ١٧٥

(ع)

- العادل (السلطان الملك) ١٢٣ - ١٢٤ ،
١٢٨ ، ١٢٦
عباده بن الصامت ٥٧
عبد الغني بن سعيد الحافظ ٦٧
عبدالله ابن نجم الصرغندي ١٧١
عبد ملكوت ٣٢
عبدولونيم ٣٧
عثمان بن عفان (الخليفة الراشد) ٥٥ ،
٥٧ - ٥٩
العذراء (السيدة) ٤١
عز الدولة تميم ٦٩
عز الدين اسامه ١٢٥
عز الدين الوشتكين الافضلي ٩٥
العزير بالله (الخليفة الفاطمي) ٧٣ - ٧٥
العزير عثمان ابو الفتح (السلطان الملك)
١٢٤ - ١٢٥ ، ١٢٧
عساف الحبشي (الأمير) ١٦١ - ١٦٢
عشروت ٢٤ ، ٥١
عضد الدولة (الأمير) ٨٥ ، ٨٧
علم الدين بن سليمان (الأمير) ١٦٢
علم الدين سنجر (الأمير) ١٤٥ ،
١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٦
علي باشا الدفتردار ١٩١
علي بن دبيس بن يوسف الحميدي ١٣٣
علي بن فخر الدين (الأمير) ١٨٧

المعاد الاصفهاني ١١٧ ، ١٢١

- عمر بن الخطاب (الخليفة الراشد) ٥٧ ، ٥٩
عمرو بن العاص ٥٥ ، ١٥٨
علاقة ٧٦ ، ٧٧

(غ)

- غالب مسعود بن المنذر (الأمير) ٧٦
غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري
١٥٩
الغساني (راجع أبو الحسن محمد)

(ف)

- فالريان (الامبراطور الروماني) ٤٠
فخر الدين بن عبد الحميد بن جمال الدين
التنوشي (الأمير) ١٧٠
فخر الدين المعني (الامير) ٢٢ ، ٢٤
١٤٧ ، ١٦٦ ، ١٨٦
فرج بن برقوق (السلطان) ١٦١
فرنسشينو جريمالدي ١٣٨
فرنسيسكو شيولي ١٩٠
فريجة (الأستاذ أنيس) ١٩
فريدريك كارل ايسلين ١٧ - ١٨
فريدريك بربروسه (الامبراطور) ١٢٢
فريدريك الثاني (الامبراطور) ١٢٠ ،
١٢٩ - ١٣٣
فيليب اغسطس (الملك) ١٢٢
فيليب دي مونتفورت ١٣٩

(ق)

قامم بن محمد بن ابي يكن بن حسين
الشهابي ١٧٢

قانسوه الغوري (السلطان) ١٦٢

القفي مختص بن ابي الجن ٨١

قرقاس (الأمير) ١٦٢

قرلو (الأمير) ٨٢

القرمطي (راجع أبو محمد)

القلقشندي ١٥٩ ، ١٦٥ - ١٦٦ ، ١٧٨

قبيز ٣٣ - ٣٤

قنسطانز الثاني (الامبراطور البيزنطي)

٥٧

قسطنطين (الامبراطور الروماني) ٤١

(ك)

الكامل محمد (السلطان الملك) ١٢٨ -

١٢٩ ، ١٣١ - ١٣٢

كيتبغا ١٣٧ - ١٤١

الكتيلة ٨٥

الكجك احمد باشا ١٨٨

كليام ديباجوك (راجع افرير)

كمال الدين محمد الخطيب ١٨٥

كميل انلار ١٤٦

كنعان بن حام بن نوح ١٧

كنراد (صاحب صور) ١٢٣

كوبل ١٤٦ - ١٤٧

كورات (راجع افرير)

كورش ٣٠

كونتينو ٥١

(ل)

لودولف السدهيمي ١٦٥ - ١٦٦

لويس التاسع (الملك) ١٣٤ - ١٣٦

١٤٤ ، ١٤٦

لاوميدون ٣٨

(م)

المتقي بالله (الخليفة العباسي) ٦٦

المتوكل على الله (الخليفة العباسي) ٦٤

مجد الدولة (الأمير) ٧٥

محمد باشا الكرجي ١٨٧

محمد باشا الارناؤوط ١٩٠ - ١٩١

محمد بن قايتباي (السلطان) ١٦٢

محمد بن قرقاس (الأمير) ١٦٢ ، ١٨٥

محمد بن طنج (الأمير) ٦٦

محمود بن تقي الدين عمر (الأمير) ١٢٥

محمود بن نصر بن صالح المرداسي (الأمير)

٨١ ، ٨٣

مذحج (الأمير) ٧٦

مراد (السلطان) ١٨٨

مروان بن محمد (الخليفة الأموي) ٤٤

المستعلي بالله (الخليفة الفاطمي) ٦٠ ،

٨٥ ، ٨٧

الناصر احمد بن الناصر محمد بن قلاوون
(السلطان) ١٦١

ناصر خسرو ٦٠ ، ٦٨ ، ١٤٣

ناصر الدولة بن حمدان (الأمير) ٨١-٨٢

ناصر الدين الحسين بن خضر (الأمير)

١٦١ ، ١٧٠

ناصر الدين محمد بن الحنش (الأمير)

١٦٢ ، ١٨٥

نبوخذ نصر ٣١ ، ٣٣

نجم الدين ايوب (السلطان الملك الصالح)

١٣٢ - ١٣٣

نصير الدولة الجيوشي (القائد) ٨٤

النعمان بن عامر الارسلاني (الأمير) ٦٥

النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمي ٦٢

نور الدين محمود بن زنكي (السلطان)

١١٣ ، ١٦٣

النويري السكندري ١٧١

نيكون (الصيداي الصانع) ٤٧

(هـ)

هارون بن خارويه (الأمير) ٦٦ ، ٧٦

هايد ١٠١

هرقل (الامبراطور البيزنطي) ٤٢

هشام بن عبد الملك (الخليفة الأموي) ٦٣

هشام بن الغاز بن ربيعة الجرشي ٦٤

هكتور ٤٤

همفري ١٢٤

المستنصر بالله (الخليفة الفاطمي) ٨٣-٨٤

مسلم بن عبد الله ٦١

المسيح (السيد) ٤٠ - ٤١

المظفر قطز (السلطان) ١٣٩ ، ١٥١

معاوية (الخليفة الأموي) ٥٥ - ٥٧

٥٩ ، ٦١ - ٦٣

المعتضد بالله (الخليفة العباسي) ٦٦

المعتمد على الله (الخليفة العباسي) ٦٥

المعز (الخليفة الفاطمي) ٦٨ - ٧٠ ، ٧٣

المغيث يوسف (الملك) ١٢٥

المقريني ١٣٠

مكريدي بك ٥١

منتور ٣٥

منجوتكين (القائد) ٧٦

المنذر (الأمير) ٦٥

منصور (الأمير) ١٨٨

المنصور علاء الدين علي بن شعبان

(السلطان) ١٧٢

المهدي ٦٤

موسى بن العادل (الملك) ١٣٣

المؤيد شيخ الحمودي (السلطان الملك)

١٧٢

ملاسل ١٧

ميجس الصيداي (الزجتاج) ٤٧

(ن)

الناطقة الذبياني ١٦

(ي)
 يزيد بن ابي سفيان (الخليفة الأموي)
 ٥٥ - ٥٦
 يشوع بن نون ٣٠
 يعقوب ٦١
 يوحنا (القديس) ٢٢
 يوسف باشا سيف ١٨٦
 يوليوس قيصر (الامبراطور الروماني)
 ٣٩
 يونس المعني (الأمير) ١٨٧

هنري (الملك) ١٢٥ ، ١٥٥
 هولاكو خان ١٣٧ ، ١٤٠
 هومير ٤٣ ، ٤٥
 هينوم الاول ١٣٧ ، ١٤٠
 هيرودوت ٤٨
 هيكل ٤٤
 هيو الثالث ١٥٤
 (و)
 وهب اللات بن أذينة ٤٠

فهرس المدن والمواقع

بوسقوانوس (نهر) ١١	(أ)
بيت لحم ١٣١ ، ١٣٣	ابلون (مفارة) ٥١ ، ٢٤
بيت المقدس ١١٤ ، ١٢٢ - ١٢٥ ،	أبو الحسن (قلعة) ١٤٥
١٢٩ ، ١٣١ - ١٣٢ ، ١٣٥ ،	ابونكله (مسجد) ٢٢
١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٥٤	ادوم ٤١
بيروت ٢١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥	اربيل ١٦
٥٠ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٩١ - ٩٤ ،	ارسوف ٩٣ ، ١٢٢ - ١٢٣ ، ١٥٢
٩٧ - ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١١ ،	ارمينيا ١٣٧ ، ١٤٠
١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٤ - ١٢٧ ،	ارواد ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٥ ، ١٦٩
١٣٢ - ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ،	اسبرطه ٣٥
١٥٨ - ١٦٢ ، ١٦٥ - ١٦٦ ،	الاسكندرية ١٧ ، ٦٣ ، ١٧٣
١٧٢ ، ١٧٤ - ١٧٥ ، ١٨٦ - ١٨٧	اشمون (معبد) ٢٦
بيسان ١٢٩	انطاكية ٣٩ ، ٩٣ ، ١٣٩ - ١٤٠ ،
(ت)	١٥٣ ، ١٥١
تبين ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٣١	اورشليم ٣٣ ، ٤١
تدمر ٤٠ - ٤١	إيسوس ٣٧
تسكانا ١٨٨	(ب)
(ج)	بانياس ٣٩ ، ١١٩ ، ١٢٩
جبة ١١٢ ، ١٢٩ ، ١٤٦	براميه ١٨
جيبيل ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٩٢ ،	برقه ٣٨
١١١ - ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٨ ،	بعل (معبد) ٥١
١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٧ ، ١٤٦ ،	بعلبك ٤١ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧٢
١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٨٧	١٧٤ ، ١٨٧
الجليل ١٣٣	

(ش)

الشقيف (١) ارنون ١٤ ، ١١٠ ، ١١٦
١١٨ - ١٢٠
(٢) تيرون ١٢٩ ، ١٣٢ - ١٣٤
١٣٨ ، ١٥٢

(ص)

صرفند ٤٢ ، ٤٦ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١١٦
١١٧ ، ١٥٧ ، ١٧١ ، ١٩٠
صفد ١٢٤ ، ١٣٢ ، ١٦٢ - ١٦٣ ، ١٨٧
صفوريه ١١٦
صقليه ٤٨
صور ١٦ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤١ - ٤٢ ،
٤٥ - ٤٧ ، ٧٤ ، ٩٢ - ٩٤ ، ٩٧
٩٨ ، ١٠٥ ، ١١١ - ١١٣ ، ١٢٣ ،
١٢٩ - ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٦ ،
١٥٧ ، ١٦٦
صيدنايا ١٦

(ط)

طبريه ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٣
طرابلس ٣٤ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٦٢ ،
٩٧ - ٩٨ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٣٢ ،
١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠
طرواده ٤٤

(ع)

عثليث ١٥٤ - ١٥٥ ، ١٥٧
عدلون ١٠٣ ، ١٠٨
عرقه ٤١ ، ٥٥ ، ٩١

(ح)

حبيس ١٠٦
لب ١١١ - ١١٢ ، ١٦٢
لبا ١٥٢
لأه ١١١ - ١١٢
يقا ٩٣ ، ١١٦ ، ١٥٧

(خ)

ان دنون ١٦٣
ان الرز ١٩٠
نان الفرنساوي ١٩٠

(د)

كه ٦٩ ، ١٨٧
شق ١٦ ، ٤١ ، ٧٤ ، ١٠٨ -
١٠٩ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٢ -
١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،
١٨٥
ياط ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٥٨ ، ١٦٢

(ر)

كوتيس ١٧
مله ١٦٦
دس ٣٥ ، ١٥٨

(س)

جيت ١٨
يبيتا ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧
ن ميشال (كنيسة) ٢٢
ة المنطرة ٤١
ميس ٣٤

(ك)	عسقلان ٩٤، ٩٧-٩٨، ١٠٨-١٠٩
كاراسرحدون ٣٢	١٢٣-١٢٤، ١٢٩، ١٣٣، ١٦٦
الكرك ١١٤-١١٦، ١٢٩، ١٦١	عكا ٢١، ٢٤، ٣٢، ٤١، ٤٧
١٨٧	٦٥، ٧٤، ٩٣-٩٤، ١٠٤
كريت ٣٠، ٤٨	١٠٦، ١١٦، ١٢٠-١٢٣
(ل)	١٢٧-١٣٢، ١٣٤، ١٣٧-
اللاذقية ١٤٦، ١٧٢	١٣٨، ١٤٠، ١٥٣-١٥٦، ١٦٦
(م)	عين جالوت ١٤٠، ١٥١
مار الياس ٢٤	(ف)
مجدليابه ١١٦	فراديس (نهر) ١١
مرج دابق ١٨٥	الفنيدق (موقعه) ٨١
معرة النعمان ٩١	فورفيريون ٤٥
معليا ١١٦	الفوله ١١٦
مغدوشه ٢٤، ٤١	(ق)
ميلاتس ٣٤	قايتباي (قلعة) ١٤٣-١٤٤
(ن)	قبرص ٣٨، ٤٨، ٤٩، ٩٩، ١٣١-
نابلس ١٨٧	١٣٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨
الناصره ١١٦، ١٣١، ١٣٣	١٧١، ١٧٣
نيقيه ٤١	الاقحوانه ٧٩
(هـ)	قرطاجه ٢٦
الهلاله ١٠، ٢٤	القسطنطينية ٤٤، ١٢٨
(ي)	القليعات ١٥٢
يافا ١٠٤، ١١٦، ١٢٢، ١٢٧	قيساريه ٩٣، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧
١٣٤-١٣٥، ١٦٦، ١٧٣	١١١، ١١٦، ١٢٢، ١٣١
ياقوت (راجع أبو عبدالله)	١٣٤، ١٤٦، ١٥٢

الفهرس

صفحة	
٣	الاهداء
٥	مقدمة

دراسة تمهيدية - الموقع والاسم وطبوغرافية المدينة

٩	١ - موقع صيدا وأثره في دورها التاريخي
١٥	٢ - إسم صيدا ومدلوله
١٩	٣ - طبوغرافية صيدا التاريخية

الفصل الأول

التاريخ القديم والحضارة

٢٩	١ - عرض عام لتاريخ صيدا القديم
٤٢	٢ - المظاهر الحضارية

الفصل الثاني

العصر الاسلامي الاول

١٦ - ٥٠٤ هـ / ٦٣٨ - ١١١٠ م

٥٥	١ - صيدا من الفتح العربي حتى الفتح الفاطمي
٦٨	٢ - العصر الفاطمي : أزهى عصور صيدا الاسلامية

الفصل الثالث

صيدا في عصر الحروب الصليبية

صفحة	
٩١	١ - الفترة الأولى من الاحتلال الصليبي لصيدا
	٢ - صيدا في المرحلة الانتقالية بين الاسترداد الاسلامي الاول والاحتلال الصليبي الثاني
١١٤	٣ - الفترة الثانية من الاحتلال الصليبي لصيدا

الفصل الرابع

صيدا في عصر المماليك

١٥١	١ - معركة التحرير
١٥٩	٢ - وضع صيدا الاداري والاقتصادي
	٣ - غارات القبارصة والجنوية على صيدا وأثره في اهتمام المماليك بإعادة تحصينها
١٦٨	

خاتمة

١٨٥	نهوض صيدا في عصر الأمير فخر الدين المعني الثاني
١٩٣	المراجع : أولاً - المصادر العربية والمصرية
١٩٨	ثانياً - المراجع العربية الحديثة والأوروبية المعربة
٢٠١	ثالثاً - المراجع باللغات الأوروبية
٢٠٤	فهرس ايجدي للأعلام
٢١٣	فهرس ايجدي للمدن والمواقع
	ملخص باللغة الفرنسية

(Sâhât) relativement vastes aidaient à laisser infiltrer les rayons du soleil et la lumière dans les ruelles ombreuses.

CONCLUSION

LE DERNIER ÉCLAT DE SAÏDA

J'ai terminé l'ouvrage par une étude sommaire de Saïda sous l'émirat de Fakhr al Din II (1572-1635) qui la choisit en 1594 comme métropole, et fit ressusciter sa gloire et sa splendeur, en la dotant de murailles, de palais aux allées plantées de rosiers, de cedratiers et d'orangers, de bains publics, de Khâns et d'autres sortes de constructions.

Saïda connut sous le court règne de cet émir une ultime splendeur, semblable aux derniers feux du soir qui précèdent le crépuscule et rendent plus profondes les ombres de la nuit ; car, peu après sa mort, elle entra dans une longue, décadence qui durait encore, lors de l'indépendance du Liban.

E. SALEM

étude comment le sultan Khalîl reconquit Saïda et fit démolir au ras du sol ses fortifications à la suite de la Reconquête, et comment la ville subissait les agressions de pirates cypriots et génois au cours du XIV^{ème} et XV^{ème} siècles, raison pour laquelle le gouverneurs de Saïda tâchèrent de la doter de nouvelles fortifications pour faire face aux dites incursions.

J'ai procédé à l'étude d'une grande tour musulmane datant selon mon hypothèse de 752 de l'Hégire (1361). Selon l'inscription arabe sculptée dans la dalle de marbre blanc, encastrée au-dessus de la fenêtre ouverte dans le mur nord-est de la dite tour, la construction de celle-ci est l'œuvre d'un certain Galbân al-Zâhiri. D'autres caractéristiques purement mameloukes nous incitent à situer la construction de cette tour au XIV^{ème} siècle comme le suggèrent l'arc qui surmonte la dite fenêtre, les voûtes d'arêtes qui couvrent les deux étages de la tour et le type de meurtriers ouverts dans les murs de cette tour donnant sur la mer.

Rien d'autre ne subsiste de Saïda à l'époque des Mamelouks. En dépit de multiples remaniements amenés à la construction du château franc de Saint Louis qui révèlent des travaux de caractère hétérogène et de nature difficile à déterminer, j'ai essayé de délimiter les éléments architecturaux musulmans.

Saïda garde encore aujourd'hui le parfum de son passé médiéval représenté par le réseau des venelles étroites au tracé sinueux interrompues d'un intervalle à l'autre par de demi-arcs ou couvertes de voûtes d'arêtes ou en berceau. La plupart de ces venelles conduisent à la côte de Saïda. Elles servaient autrefois de faciliter la défense de la région contre les ennemis, car la vie à l'intérieur de la venelle répondait à merveille aux besoins de sécurité d'une population maritime menacée presque toujours par les ennemis. Dans ce dédale de rues, de venelles et d'impasses, des carrefours

musulman. La ville demeura sous la domination franque jusqu'à l'an 1187, date qui marque la réoccupation musulmane par Saladin.

Sous la domination franque Saïda allait tomber en décadence, mais elle ne cessait guère de se montrer comme une base importante pour les opérations que les Francs effectuaient contre les autres villes musulmanes. Elle participa au blocus naval des Croisés contre Tyr en 1112, aux attaques menés par les troupes de ceux-ci contre Damas en 1152 et à la chute de la ville d'Ascalan en 1154.

Saïda vit ériger sous la domination franque deux châteaux militaires : l'un construit en 1228 sur un îlot situé à peu de distance de la côte, et l'autre bâti par Saint Louis, roi de France en 1253. Elle vit également de nouveaux remparts constitués par des murs principaux précédés par des avant-murs et un fossé. Ces murailles renfermaient le foyer urbain de Saïda, devenu très restreint depuis que les Musulmans sous les Nourides et ensuite sous les Ayyoubides se mirent à harceler les Croisés et à attaquer Saïda.

Mais les fortifications furent exposées maintes fois à la destruction soit par les Musulmans, soit par les Mongols. Ceux-ci attaquèrent la ville en 1260 et firent détruire ses murailles et le château de Saint Louis.

En 1291, l'occupation franque de Saïda prit fin, grâce à la guerre de libération engagée par le sultan mamelouk al-Malik al-Ashraf Khalîl b. Qalâwôn.

CHAPITRE 4^{ème}

SAIDA A L'ÉPOQUE DES MAMELOUKS

J'ai consacré ce dernier chapitre à l'étude de l'histoire de Saida à l'époque des Mamelouks. J'ai signalé dans cette

sucres et des arbres fruitiers, et de son commerce florissant. Il admire son marché très décoré, sa grande mosquée dont la salle à prière était couverte de nattes colorées, ses remparts inaccessibles dans lesquels s'ouvraient trois portes, et sa forteresse construite de pierre de taille.

En utilisant les textes arabes, seuls documents accrédités, j'ai essayé de mettre en lumière les points les plus obscurs de l'histoire de la ville à l'époque musulmane (première période). Je conclus d'une inscription arabe trouvée à Saïda, datant de l'époque du Calife fatimide al-Mustali billâh, signalant la construction d'une forteresse à Saïda, que le Calife s'intéressait surtout à fortifier la ville pour qu'elle puisse faire face au danger permanent de la première croisade. De là vient la valeur réelle et inestimable, et l'importance documentaire des inscriptions et des textes arabes extrêmement éparpillés, les uns dans les ouvrages de biologie ou de littérature et les autres dans ceux de géographie et d'histoire.

3^{ème} CHAPITRE

LA DOMINATION FRANQUE

Dans le troisième chapitre j'ai exposé l'histoire de Saïda ou la Sagetta chez les Croisés, sous la domination des Francs. En 1110, Baudouin I, roi de Jérusalem s'empara de Saïda, grâce à l'aide que lui prêta Bertram de Saint-Gilles, comte de Tripoli, et le concours fructueux du Sigurd, roi de Norvège.

L'Egypte fatimide, après l'échec des tentatives de la flotte musulmane à munir Saïda de ravitaillements et d'instruments de guerre, laissa Saïda à son destin, espérant que les défenseurs pouvaient repousser les agresseurs. Les Saïdaniens, en fait, résistèrent courageusement pendant quelques mois, mais ils furent forcés de capituler le 5 Décembre 1110. La chute de Saïda provoqua une réaction douloureuse dans le monde

commence avec la conquête arabe en 637 et se termine avec le conquête franque en 1110.

Au début de l'ère islamique, Saïda, qui cessa de s'appeler Sidon, avait conservée jusqu'à un certain degré sa physionomie ancienne, bien que plusieurs portions de son mur d'enceinte antique eussent été détruites dès 346 A. J. ou peut-être en 551 et en 573 par l'action destructrice des tremblements de terre que la ville avait subi en ces années.

Avec la conquête de Saida en 637 par les troupes de Yazid b. Abî Sufyân, la ville subit un décroissement sensible de sa population qui fut peut-être dû à l'évacuation de la plupart des indigènes avec la garnison byzantine à la veille de l'entrée triomphale des Arabes.

Saïda constituait une des provinces de Damas, et par conséquent elle florissait sous la dynastie omeyyade puis abbaside. Le Calife Mu'âwiya essaya de la repeupler avec des éléments Perses et Arabes de Lakhm de Hira transportés de la Mésopotamie pour défendre la côte libanaise méridionale contre les agressions maritimes incessantes, effectuées par les Byzantins. Il fit reconstruire les anciennes fortifications où vint s'installer une garnison considérable. Selon une inscription arabe datant de l'an 132 de l'Hégire, trouvée à Saïda, Marwân b. Mohammad, dernier Calife omeyyade, restaura le port pour en faire un port marchand et une base navale importante.

Saïda connut, spécialement sous les Fatimides une véritable transformation urbaine, et atteignit le faite de sa splendeur, le sommet de sa gloire durant l'ère musulmane. Elle jouit d'une vie douce en particulier à l'époque des califes fatimides al Hâkim et al-Zâhir comme en témoigne la description d'un voyageur persan, Nâsir Khusrû. D'après ce voyageur, sa richesse agricole dépendait de la culture de la canne à

De même les sarcophages, richement sculptés de beaux reliefs humains tel que celui d'Alexandre le Grand, révèlent par la finesse des sculptures un degré très élevé de l'art sculptural classique.

La ville elle même, très peuplée, atteignit un développement urbain exceptionnel, grâce à l'activité commerciale de son peuple et à l'efficacité de ses trois ports. Le commerce maritime, tant intercontinental qu'avec l'Occident méditerranéen y fut intense, et les produits de ses industries prospères de soieries purpures et de verreries dépassèrent les frontières de la Phénicie et gagnèrent le monde méditerranéen.

Sidon conserva sa splendeur et son prestige encore sous la domination perse, jusqu'à son suicide en 346 A. J. pour éviter la vengeance du roi Perse Ochus : ses habitants préférèrent mourir incendiés dans leurs demeures que décapités par les sabres des Perses. C'est ainsi que quarante mille personnes trouvèrent la mort volontairement. Sidon fut alors abandonnée à son triste sort ; ses palais furent détruits, le flambeau de sa prééminence s'éteignit et elle perdit presque pour toujours sa grandeur. Elle céda désormais sa supériorité à Tyr.

Sidon, malgré la série de malheurs qu'elle subit, essaya de se maintenir à l'époque des Selucides, successeurs d'Alexandre. C'est grâce à la tenacité de sa population et à leur activité commerciale et industrielle qu'elle vit sous les Selucides et les Romains un nouvel essor urbain, mais moins florissant qu'auparavant.

2^{ème} CHAPITRE

SAÏDA A LA PREMIÈRE ÉPOQUE MUSULMANE
(DÈS LA CONQUÊTE ARABE A LA CONQUÊTE FRANQUE)

J'ai consacré le deuxième chapitre à l'étude de l'histoire de Saïda à la première époque musulmane : la période qui

CONTRIBUTION A L'ETUDE DE L'HISTOIRE DE SAÏDA A L'ÉPOQUE MUSULMANE (UN BREF EXPOSÉ)

ÉTUDE PRÉLIMINAIRE

Dans cette recherche je me suis borné à traiter d'abord de la situation géographique de la ville de Saïda et à détacher le rôle si important qu'elle jouait au cours de son histoire, les hypothèses concernant l'origine du nom de Saïda et enfin sa physionomie à travers l'histoire antique et médiévale.

I^{er} CHAPITRE HISTOIRE ANTIQUE DE SAÏDA

Ce premier chapitre est consacré à une étude extrêmement résumée de l'histoire de Saïda, dès origines jusqu'à la conquête arabe, l'accent étant surtout mis sur son rôle comme ville marchande et industrielle.

Saïda, ou plutôt Sidon de la Phénicie, dont le renom retentissait dans le monde antique et médiéval, fut la ville la plus ancienne de la côte phénicienne et une de cités les plus florissantes de l'antiquité. Elle fut le berceau d'une vie raffinée, la source d'une culture splendide, la patrie des philosophes et des poètes ainsi que le foyer des arts. Ses rois l'embellirent et la dotèrent des monuments les plus séduisants de l'art phénicien dont témoignent encore les vestiges assez restreints de ses temples qui subsistent jusqu'à nos jours.

HISTOIRE DE SAIDA A L'ÉPOQUE MUSULMANE

PAR

DR. ELSAYED ABDEL AZIZ SALEM

PROFESSEUR D'HISTOIRE ET DE CIVILISATION MUSULMANES

A L'UNIVERSITÉ D'ALEXANDRIE

